ألواح ودسر

د. أحمد خيري العمري



آفـاق معـرفـة متجـددة

الدكتور

أحمد خيري العمري

ألواح و دسر



أحمد خيري العمري

من مواليد بغداد 1970

طبيب متخصص بطب الفم والأسنان

مهتم بقضايا الفكر المعاصر والدعوة

له:

- البوصلة القرآنية
- الفردوس المستعار والفردوس المستعاد
- أبي اسمه إبراهيم (رواية للناشئة)
- سلسلة ضوء في المجرة (صدر منها):

كش ملك

أدرينالين

يوم، شهر، سنة

الذين لم يولدوا بعد

تسعة من عشرة

غريب في المجرة

موقع الدكتور أحمد خيري العمري:

www.quran4nahda.com

البريد الإلكتروني للمؤلف:

ahmed_k_alomari@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

ألواح ودسر

ألواح ودســـر/أحمد خيري العمري .- دمشـــق :
دار الفكر، ٢٠٠٩ .- ٤٠٠ص؛ ٢٠سم.
ردمك:978-9933-10-043-8

١-٨١٣,٠٣ ع م ر أ ٢- العنوان ٣- العمري
مكتبة الأسد



دار الفكر - دمشق - البرامكة

٠٠٩٦٣ ٩٤٧ ٩٧ ٣٠٠١

٠٠٩٦٣ ١١ ٣٠٠١

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

ألواح ودُســـر

د. أحمد خيري العمري

الرقم الاصطلاحي: ٢١٩٠.٠٣١

الرقم الدولي: ISBN: 978-9933-10-043-8

التصنيف الموضوعي: ٨١٣ (القصة والرواية والحكاية)

٣٩٢ص، ١٤ × ٢٠ سم

الطبعة الأولى: ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

المحتوى

إهداء..

الى طفل لا يكبر، لا يزال ماكثاً - هو وأحلامه - في أعماق كل منا..

على أمل أن نكبر نحن بما يكفي لتحقيق هذه الأحلام..

بعض الحكايات، لا تنتهي أبداً، بل تظل تحدث وتحدث مرة تلو أخرى، لا تكاد تنتهي إلا لتبدأ من جديد..

ربما تختلف التفاصيل، تختلف أماكن الأحداث، تختلف أسماء الشخصيات.. ولكن جوهر الحكاية يبقى مستمراً.. كما لو كان صدى لا يتبدد لصوت قديم..

بعض الحكايات يكون لها ألف وجه..

وجهها الأول هو مجرد بداية.. بعدها تبدأ الوجوه الأخرى بالظهور... لا تلغي الوجه الأول بالضبط.. ولكن تجاوره وتسكنه..

..مثل حلم داخل حلم هي بعض الحكايات، لا تدري حقاً متى بدأ الحلم الثاني، أو الأول، ومتى بدأ هذا الحلم أصلاً....

بعض الحكايات تشبه دوماً حكاية شاهدتها من قبل، لست واثقاً أين، لست واثقاً متى، لست واثقاً كيف، لكنك شاهدتها، ربما كنت جزءاً منها، ربما في حلم الليلة الماضية، وربما أول حلم تذكر أنه زارك، وربما حلم الليالي كلها.. مثل بقايا صور وأصوات تظل تجوب ذاكرتك.. وتظهر لك في كل حين..

بعض الحكايات تسمعها، فإذا بها تدخل من أذنيك لتسكنك، تتقمصك، تصير جزءاً منك، ثم تستدرجك، لتصير أنت جزءاً منها..

بعض الحكايات، تسمعها، فتشهق، لأنك ستجد فيها حكايتك، ربما لن تأخذ دور البطولة، لكنك قد تجد فيها دوراً ما، حتى ولو كان دوراً من سطرين..

ربما تدخل في أحلامك، ربما تأخذ جزءاً من أحداث حياتك..

هل سيلومك أحد على أنك صرت جزءاً من تلك الحكاية؟

ربما.. عذرك الوحيد سيكون أن ليس على النائم حرج..



لن أستطيع أن انسى تلك النظرة على وجوههم.

كانت المياه تغمر كل شيء، وتضرب كل شيء، كنت قد ركبت السفينة في اللحظة الأخيرة قبل أن تغمر المياه رأسي وأغرق. لهثت فور صعودي السفينة وتنفست بعمق. ثم التفت لأرى طوفان المياه يغمر كل شيء. كانت هناك بعض الرؤوس الطافية تصارع مد المياه.. مددت يدي لأساعدهم على الركوب، لكنهم رفضوا.. رفضوا أن يأخذوا يدي، أو أيّاً من الأيدي التي كانت تمتد لتساعدهم، رمى أحدهم بطوق نجاة مربوط بحبل من حبال السفينة، لكنهم رفضوا أيضاً..

بين مد المياه المتلاطم، استطعت أن أرى تلك النظرة على وجوههم، نظرة لا أتصور أنني سأنساها أبداً.

كانت نظرة عدم تصديق، نظرة فيها تفضيل للموت غرقاً على الاعتراف أنهم كانوا مخطئين..

لحظات وغابت تلك النظرة، غابت تلك الوجوه، غمرتها المياه، وكان صوت ضجيجه أعلى بكثير من أصوات صراخهم وصخبهم وهم يغرقون..

ذكرتني تلك النظرة، بنظرة أخرى، رأيتها على الوجوه نفسها، نظرة استهزاء واحتقار وسخرية، ملأت وجوههم ذات يوم وهم يمرون بنا حين كنا نشارك في بناء السفينة. صرخاتهم وهم يغرقون ذكرتني بصرخات الاستهزاء والضحك التي كانوا يطلقونها عندما نمر بهم ونحن نحمل الألواح الخشبية.

بين النظرتين، والصرختين، تقع القصة التي أريد أن أحكيها لكم.. القصة التي تشبه الحلم داخل الحلم، و المرآة مقابل المرآة...

وإذا كنا قد بدأنا من النهاية، فإن علينا أن نعود الأدراج.. نحو بداية القصة.. قبل أن يأتي الطوفان..



لست واثقاً متى بدأت القصة، لكني أعرف جيداً أنها كانت قد بدأت منذ أن ولدت، وربما قبل ذلك، كل ما أذكره أنهم كانوا يتحدثون في البيت عن نوح، و عما يقوله ويفعله إضافة إلى أنهم عندما كانوا يشيرون إلى شيء قديم جداً كانوا يقولون: "بعمر السيد نوح".

لم أكن قد رأيت نوحاً وقتها.

ظل في مخيلتي شخصاً كبيراً جداً أسمع به ولا أراه، أسمع الناس يتحدثون عنه، ويختلفون عليه، لكني لم أره، ولم أعرف لِمَ يختلفون حوله..لكني أذكر أني سألت أمي مرة عما يريده السيد نوح..فقالت بصوت بدا كأنه أجمل وأرق من صوتها وهي تؤنبني: "إنه يريد عالماً أفضل من هذا.." يومها استغربت، لم يكره البعض ما يقوله و يفعله نوح ما دام يريد عالماً أفضل!؟

تخيلت أنه ربما كان يريد العالم الأفضل لي وحدي، ربما فهمت هذا من كلام أمي، وزادني ذلك ارتباطاً به، صرت أعدّه صديقي، مع أني لم أره، لكني صرت أقضي الوقت وأنا ألعب معه، أتخيل أني صرت مساعداً له في عمله، ولم أكن أعرف ما هو عمله، لكني تخيلته

معماراً، بناء، مثل ذلك البناء مفتول العضلات الذي رمم بيت جدي عندما أطاحت بسقفه العاصفة..

تخيلته هناك، يبني ذلك العالم الأفضل، الذي لم أعرف عنه سوى أنه أفضل، وأنا أناوله أدوات البناء..

كنت أقضي الوقت - في يقظتي - وأنا أحلم بذلك العالم الأفضل الذي أساهم في بنائه مع نوح، أحلم بالشمس وهي أكثر إشراقاً، وبالهواء وهو أكثر إنعاشاً، بالصيف أقل حرّاً، وبالشتاء أكثر مطراً.. بالأرض أكثر خصباً، بمعلمي المدارس وهم بلا عصي، (بل بعالم بلا مدارس أصلاً..!).. بالآباء أقل غضباً ونزقاً، وبالكثير الكثير من الألعاب والدمى.. كنت أحياناً أصعد إلى سطح المنزل لألعب لعبة الخيال تلك، وكنت كثيراً ما أرفع صوتي وأنا أتحدث معه، أقول له: تفضل المعول، تفضل الفاس، تفضل الأصباغ..

سمعني أخي الصغير ذات يوم وأنا أتحدث معه، فهبط مسرعاً وأخبر أمي أني أتحدث مع نفسي، سألتني أمي - لكن دون اهتمام - عن الشخص الذي كنت ألعب معه، فقلت لها دون تردد: إنه السيد نوح، ضحكوا

جميعاً من الأمر وصاروا يضحكون كلما صعدت إلى السطح، بل إن أمي أحياناً، عندما تكون رائقة المزاج، وتناديني لتناول الطعام، صارت تصرخ: استأذن من السيد نوح قليلاً وتعال لتأكل ثم ارجع لتلعب معه..

ثم تردف وهي تضحك: أو قل له أن يتفضل ليتناول الطعام معنا.. مسكين.. طبخ زوجته لا يؤكل..هذا إن طبخت أصلاً!



ثم حدث ما غيَّر حياتي..

أو بالأحرى حدث ما لم يغيرها، ما جعل حياتي تجمد على وضع معين.

انتبهت إلى ذلك للمرة الأولى، في جلسة أمي الأسبوعية، عندما قالت السيدة غلاظة لوالدتي إنها تود أن تراني لأنها مشتاقة إلي كثيراً حيث إنها لم ترني منذ مدة. كان ذلك اللطف غريباً على السيدة غلاظة، لذا فقد نادتني والدتي بسرور، وعندما دخلت إلى المجلس، احتضنتني السيدة غلاظة بشدة وقبلتني

بشراهة عشرات القبل وهي تتمتم بأسماء الآلهة التي يفترض أن تحميني.

"تحميه آلهة السد كلها من شرّ الشياطين". كانت تقول ذلك وهي تتاملني، قبل أن انصرف، وما إن ابتعدت خطوتين، حتى سمعت السيدة غلاظة تقول لوالدتي بصوت مختلف وأقرب إلى صوتها الذي تعودت على سماعه: "لا أريد أن أزعجك يا أم نور، وأنت تعلمين مقدار حبي لك، ولكن..". ثم سكتت.. كما لو أنها تريد لفت انتباه السيدات جميعاً إلى أهمية ما ستقوله.. - وقد تمكنت بالفعل من ذلك - "ولكن.. ألا تلاحظين أن ابنك نوراً لا ينمو كبقية الصغار؟.. إنه يبدو أصغر من أصغر أولادي الذي ولدته بعده بأربع سنوات..".

لاحظت أن عيون السيدات جميعاً صوبت نحوي، ورأيت عيني السيدة نميمة الضيقتين أصلاً تضيقان أكثر وهي تحدق بي النظر، وتسال أمي بصوت بدا كما لو أن صوت غراب المقبرة أكثر فرحاً منه، سالت: "ماذا قلت؟ كم يبلغ نور الآن؟"..

حاولت أمي التملص وتغيير الموضوع بسرعة، فقالت: "إنه صغير فعلاً.. عمره لم يتجاوز السادسة بعد.. وطوله ووزنه مناسبان لعمره.. ما الذي دهاكن يا سيدات؟.. تفضلن كُلْنَ من الحلوى، لقد عملتها بيدي من السكر المستورد "..

كنت أعرف تماماً أني لست في السادسة، وأني في موسم الحصاد القادم سأكون قد بلغت التاسعة.. وكان كذب أمي يعني أنها تخفي شيئاً ما بخصوصي..

قالت السيدة غلاظة بحدة: "لا أعتقد هذا، فأنا أذكر تماماً أنني ولدت ابني سليطاً في الأسبوع نفسه الذي ولدت ابنك فيه، وابني عمره الآن تسع سنوات..".

كانت محقة تماماً، كان سليط معي في المدرسة، وكان يشبه أمه في كل شيء، ولا سيما في غلاظتها...

قالت السيدة تفاهة:" نعم، تذكرت أيضاً، في الأسبوع نفسه أراحتنا الآلهة من والدة زوجي، كانت قد خرجت في الليل لتتأكد من أن أحداً لم يمس مؤونة الطعام التي تخصها، عندما سقطت في البئر، وظلت تصيح إلى أن ماتت دون أن يسمعها أحد ".. ثم خفضت

صوتها: "بيني وبينكن يا سيدات، لقد سمعتها تصرخ ولكني تجاهلت الأمر، لم أكن أدري أنها ستموت. ولم أخبر زوجي باني سمعتها كي لا يغضب.. في الأسبوع نفسه أتذكر أني أقمت حفلة كبيرة بمناسبة وفاتها، تذكرن يا سيدات كم كانت ممتعة، وقد سالني زوجي عن مناسبة الحفلة ونحن في حداد على أمه، فقلت له: إنها بمناسبة ولادتكما..".

قالت السيدة نميمة على الفور: "نعم، أراحتك آلهة السد منها يا تفاهة " وقررت أنها ستذهب فوراً إلى منزل أخت زوجها لتخبرها أن والدتها ظلت تصرخ في البئر قبل أن تتوفى، وأن كنّتها السيدة تفاهة سمعت ولم تنقذها متعمدة ذلك...

قالت السيدة نميمة للسيدة تفاهة: "وكيف عرفت أن ذلك كله قد حدث منذ تسع سنوات؟"

قالت السيدة تفاهة بسرعة: " كنت قد نذرت لآلهة السد كبشاً كل سنة إذا ما أراحتني منها، وأنا أوصي زوجي أن يذبح واحداً كل سنة، وأقول له: إن هذه من أجل راحة روح والدته العزيزة ". قالت هنا وضحكت

ضحكة مجلجلة كانت بمثابة علامة مميزة لها، ثم أكملت، "وقد ذبحت حتى الآن ثمانية كباش، وفي موسم الحصاد القادم سأذبح التاسع.."

كان الحصار قد أحكم على والدتي، واتضح أن عمري تسع سنوات، وأن كلام السيدة غلاظة كان صواباً، قالت لي أمي بحسم أن أذهب.. ثم التفتت إلى السيدات وقالت بحسم أيضاً، "الحلوى يا نساء".



.. يومها أخذتني أمي وأوقفتني على الحائط، ثم جاءت بقلم مداد في طرفه لون أحمر ووضعته عند قمة راسي، وأبعدتني عن الحائط لأجد خطاً أحمرَ يماثلني في الطول قد ركز على الحائط. نادت إخوتي الصغار وفعلت معهم شيئاً مماثلاً لكن بلون مختلف لكل واحد منهم. بعد أسابيع كررت الشيء ذاته، باللون ذاته لكل منا، كل إخوتي ازداد طولهم ولو قليلاً، أما اللون الأحمر فقد بقي مكانه.. بعد أشهر كان طولهم قد ازداد باصبع أو أصبعين. أما اللون الأحمر فقد بقي ثابتاً، لم يتحرك ولو قليلاً..

كان واضحاً للجميع أني لا أكبر.. كان أخوَايَ الأصغر مني قد تجاوزاني طولاً وحجماً. وبدلاً من أن أعطيهما ثيابي التي تصغر علي، صرت أنا أرتدي ثيابهما التي تصغر عليهما. وكان زملائي في الصف قد انتبهوا إلى ذلك، كما انتبه الجميع في الحي..

وحدها أمي كانت ترفض أن تصدق أن ثمة مكروهاً فيّ، واحتاجت إلى ذلك الحائط، وتلك النقاط الصاعدة، وذلك الخط الثابت، لتقتنع أن ثمة مشكلة ما في نموي..

شاهدتها ذات ليلة واقفة أمام الحائط تنظر إليه وهي لا تكاد تصدق.. وكانت دموعها تنساب من عينيها بهدوء وصمت.. احتضنتها بشدة، وهمست في أذنيها: "لست مريضاً يا أمي، لست مريضاً، أنا بخير.."



في الأشهر التالية، لم يبق دجال، ولا دجالة، في المدينة إلا وذهبت إليه بصحبة أبي أو أمي.. كنت في كل مرة أذهب معهم فأسألهم: هل هذا دجال جديد؟ وكانا يردان بالنفي، مؤكدان أن هذا (الكاهن) - أو

(الكاهنة) - شخص يتمتع برعاية الآلهة، وأنه ليس دجالاً على الإطلاق، ثم تمضي الأسابيع، ويستنزف هذا الكاهن أو تلك الكاهنة أموال أبي ومدخرات أمي، والنقطة الحمراء لا تتزحزح من مكانها، ويعود أمي وأبي يبحثان عن شخص آخر "غير هذا الدجال"..

مع ذلك كله، ومع أنني كنت أتمدد في الشمس لساعات بناءً على نصيحة إحدى صديقات أمي، فإن طولي لم يزد، بقيت كما أنا، بقيت النقطة الحمراء في مكانها، وبقيت دمعة أمي حزينة وصامتة.. لا تهبط إلا عندما أنام، أو بالأحرى عندما أتظاهر بالنوم، فتنزل من خدها على خدي.. دمعة واحدة تخبرني بدلاً من آلاف الكلمات كم تحبني..



قال النورس للأفق: ما الذي نفعله هنا بالضبط؟ لقد قالوا لنا إنها قصة نوح..لكني أشعر أن البداية مختلفة قليلاً..

قال الأفق: أو كثيراً ربما..

قال النورس: نعم..كثيراً..ربما هناك خطأ ما..هل نكون قد دخلنا في القصة الخطأ؟

قال الأفق: ربما لا..

قال النورس: ما الذي تقصده؟

قال الأفق: ربما هي قصة نوح، ولكن كما شاهدها طفل صغير كان موجوداً في وقته.. ما المشكلة في هذا؟!

قال الأفق: هل سننتظر حتى يكبر؟ لاحظ أنه ليس صغيراً فقط، ولكنه صغير ولا يكبر أيضاً..هل سمعت بشيء كهذا من قبل؟

قال الأفق: ربما لهذا معنى...لا تقل لي إنك مستعجل هكذا من البداية، لقد وصلنا للتو!



ذات يوم، وكانت أمي غارقة في حزنها وقد يئست من كل الدجّالين والدجّالات، جاءت (أم صابر) الخبازة التي تأتي عندنا كل صباح، وجلست بالقرب منها...

كانت أم صابر تعمل عندنا منذ أن وعيت الدنيا،

كانت قليلة الكلام، نحيلة جداً، وتبدو طاعنة في السن. لم أكن أحبها، ولكني لم أكن أكرهها أيضاً، كانت مختلفة عن الخدم الآخرين الذين يسكنون عندنا في المنزل، والذين كانوا يلاعبونني وألاعبهم.. كانت تأتي بهدوء قبل شروق الشمس بقليل، فتأخذ القمح من المخزن وتطحنه، ثم تعجن ما يكفي لعشرين رغيفاً من الخبز الشهي، وتأخذ رغيفين لها، هما أجرتها في الوقت نفسه، ثم تمضي دون أن تحدث أحداً، أو يحدثها أحد..

هذه المرة، على غير عادتها، جاءت وجلست بالقرب من أمي، لكن على الأرض.. قالت لها: "سيدتي، لم لا تأخذين المحروس إلى السيد نوح؟".

دق قلبي بشدة عندما سمعت اسمه.. إنه صديقي على السطح، الذي حرمتني الظروف والتنقل بي بين الكهنة والعرافين من الالتقاء به.. أحسست أنه افتقدني أيضاً، وأن أم صابر جاءت لتأخذني إليه بطريقة ما..

رفعت أمي حاجبيها مندهشة: "السيد نوح؟ لم أكن أعلم أنه أصبح يعالج الأمراض، هل صار الطب من هواياته الآن؟".

أجابت أم صابر: "لا، ليس الطب، لكنه رجل مبروك، و يداه كلها خير وبركة، لن تخسري شيئاً يا سيدتي.. إنه لا يأخذ مالاً من أحد.. إنه رجل صالح يساعد الناس.. إنه يساعد الناس الفقراء قرب منزلي، أستطيع أن آخذك إليه..".

سكتت أمي قليلاً، وأطرقت براسها مفكرة. ثم قالت: "نعم، غداً".

ثم قالت قبل أن تنهض: "...وإياك أن تخبري أحداً"..



قررت أمي ألَّا تخبر أحداً بقرارها الذهاب إلى السيد نوح. أشارت إلى أم صابر أن تخرج من الدار قبلها، ثم نلحق بها نحن كاننا لم نخرج معاً. لحقنا بام صابر التي انتظرتنا عند الزاوية، قالت لأمي إن الطريق مشياً سيستغرق إلى انتصاف النهار. وكان النهار لا يزال أوله. لم تتردد أمي في الإشارة إلى واحدة من العربات التي تجرها الحمير والتي تجوب المدينة لتوصيل الناس، صعدنا وقالت أمي لأم صابر أنها لا يمكنها أن تقضي النهار باكمله لأنها لا تريد لأحد أن يلاحظ غيابها.

التفت السائق مستفسراً عن وجهتنا، فقالت له دون تردد: "الأراذل، لو سمحت".

بدت الدهشة على وجه سائق العربة، ونظر من جديد إلى ملابسي وملابس أمي كأنه يستغرب وجهتنا، ثم لكز حماره وانطلقت العربة..

كان الطريق طويلاً فعلاً، لم أكن قد وصلت إلى هذا البعد في المدينة، وكانت حدود المدينة هي في حينا والأحياء المجاورة لنا والحي الذي تسكن فيه عمتي، والساحة العامة والمعبد.. وكلها كانت متقاربة إلى حد الالتصاق. أما هذه المنطقة، وهذا الاسم الغريب الذي يشبه الشتيمة، الأُراذل، فلم أكن قد زرتها، ولا حتى سمعت بها..

عندما دخلت العربة إلى ما استنتجت أنه "الأُراذل"، فهمت لماذا استغرب سائق العربة، ولماذا نظر إلينا مستغرباً، كان كل شيء في المنطقة يبدو مختلفاً عن الحي الذي نسكن فيه، والأُحياء المجاورة، كانت ملابسنا، أنا وأمي مختلفة عن ملابس الناس الذين يمشون في المنطقة، بل إن معظم الأطفال كانوا

بلا ملابس، عراة في الشارع، هذا إذا كان يمكن أن نسميه شارعاً، ذلك أنه لم يكن مرصوفاً مثل شوارعنا، وكان مليئاً بالأوساخ والوحل الذي كان الأطفال يغطسون فيه أو يتراشقون فيه..

لم تكن العربات تدخل المنطقة كما يبدو، ذلك أن الأطفال ما إن رأوا عربتنا تدخل حتى انطلقوا يتعلقون بها فرحين مهللين وسط صراخ أم صابر عليهم ولعنات السائق. بعد قليل من السير بين المطبات والأوحال قال السائق إنه لن يتمكن من المواصلة لأن عجلاته ستتحطم بسبب سوء الطريق، أخبرتنا أم صابر أننا يمكن أن نواصل سيراً لأننا وصلنا تقريباً، وقالت أمي للسائق أن ينتظرنا لأننا لن نعثر على عربة أخرى تقلنا في العودة.

لم تكن المسافة بعيدة فعلاً كما قالت أم صابر.. لكن الأزقة التي دخلنا فيها كانت كئيبة جداً.. كانت البيوت تشبه الأكواخ، وكان الناس مكدسين فيها، أو هكذا بدوا، كانت غرفتي وحدي أكبر من بيوتهم، عدا كل غرف البيت والباحة الوسطية التي

كانت أعرض من عرض الزقاق كله. كانت وجوههم أيضاً تشبه تلك البيوت، وجوه صفراء يبدو عليها التعب والإرهاق، لم يكن هناك من يبتسم.. بل حتى لم يكونوا يتحدثون..

تمتمت أمي: "... ما الذي يفعله نوح هنا؟".

لم تكد تنهي جملتها هذه حتى وصلنا إلى منعطف أشارت أم صابر إليه، وهناك رأينا بيتاً أوسع قليلاً، وبناؤه أفضل قليلاً، ومنه انطلقت أصوات الأطفال..

كان الأطفال يرددون خلف صوت آخر، صوت قوي، مفعم بالحياة، صوت مختلف عن كل ما حوله..

دق قلبي بقوة، وحزرت.. لا بد أنه صوت نوح..



اقتربنا أكثر، ومن النافذة رأيته، للمرة الأولى، رأيت ذلك الصديق الذي طالما لعبت معه في خيالي.. لم يكن معماراً يبني البيوت كما تخيلته، لكنه كان يعلّم الأطفال، كان يعلّمهم الأبجدية، وكان وجهه مضيئاً جداً.. كانت جبهته عريضة مثل الأفق، وعيناه

صفراوين بلون المروج وقت الحصاد، ولحيته مهيبة ومنسقة.. طويلاً مثل تلك الزيتونة التي تظلل بيت جدي.. مليئاً بالحماس والفرح مثل تلك العنزة الصغيرة التي ولدتها أمها وخرجت فوراً تركض إلى العالم كما لو أنها كانت تتوق إلى الخروج طوال فترة الحمل..

كان أكثر وسامة مما تخيلت، ربما ليست الوسامة.. الوسامة للدمى والألعاب، لكن كان هناك ضوء يشع من قسماته.. ضوء غريب لم أعرف أنه يخرج من الناس أيضاً.. كان يعلم الأطفال بحماس.. ذكرني بحماس عازف ناي سعيد مرّ ذات يوم في المدينة ولم أره بعدها.. أو بحماس الأولاد أصدقائي عندما نلعب معاً ويكون الكبار بعيدين.. كان عليه شيئاً مميز جداً.. وعرفت أنه أفضل صديق يمكن لأي طفل أن يناله.. بالضبط كما كنت أتوقع.. كما كنت أريد..



كان الدرس على وشك الانتهاء.. سمعنا صوت نوح يقول للأولاد، **تذكروا دوماً أننا نتعلم الأبجدية من اجل ان نقول شيئاً مختلفاً عما يقوله الآخرون.. من اجل ان**

نقول جملة اجمل، كلمة افضل، من اجل أن نصل لمعنى اكمل.. إننا نتعلم الأبجدية لا لنردد ما قاله الآخرون. ولكن كي نقول الصواب.. والصواب فقط..

قال هذا واشار للأطفال أن ينصرفوا، فعَلَتْ ضجتهم، وبدؤوا يخرجون مسرعين من البيت، كانوا لا يشبهون أولئك الأطفال الذين يلعبون في وحل الطريق، مع أنهم يشبهونهم أيضاً، كانت ملابسهم بسيطة جداً، شبه ممزقة، اشبه بالأسمال، لكن وجوههم كان فيها شيء مختلف.. كان شيئاً من الطاقة عند نوح انتقل إليهم..

تاملت أيديهم وهم يمسكون الألواح.. وظلت كلماته تتردد في أذني، عن تلك الأبجدية التي يجب أن نقول بها ما لم يقل،.. لم أفهم بالضبط ما يقصد، لكن شعرت أن كلماته تدخل في أعماقي لتزيدني طولاً.. شعرت بأن كلماته بإمكانها أن تجعلني عملاقاً.. حتى لو بقيت النقطة الحمراء في مكانها..



دخلت أم صابر أمامنا، دخلت أمي بتردد وهي تسحبني.. تخيلت أن الاقتراب من نوح سيكون

مربكاً.. على العكس، كل خطوة كانت تزيد من الشعور بالراحة، كما لو أننا نعرفه طوال حياتنا..

سلمت أمي عليه فرد التحية مع ابتسامة لم تكن في وجه أمي عندما ألقت السلام. زاد ذلك من الطمأنينة عند أمي، فقللت من عبوسها قليلاً وقالت له: "إن الناس كلها تدلني عليك يا سيد نوح، وأم صابر هنا قالت لنا إنك رجل مبروك، وقالت إن أحداً لن يتمكن من مساعدتنا كما تستطيع أنت".

رد نوح بهدوء: "تفضلي سيدتي، إن الله هو الذي يساعدنا حين نساعد أنفسنا".. بدت لي الكلمة غريبة، من هو الله؟ كيف يساعدنا حين نساعد أنفسنا؟.. هل هو كاهن أو عرّاف أو صديق من أصدقاء السيد نوح؟..

قالت أمي بسرعة: "هذا ابني يا سيد نوح، يبلغ من العمر الآن العاشرة تقريباً، لكن طوله كما تلاحظ، لا يناسب عمره، لم يزدد طوله منذ أن كان في السادسة تقريباً.." قالت هذا بصوت منخفض كما لو أنها لا تود أن تجرحني..

مدّ السيد نوح يده وربّت على كتفي ولعب بشعري قليلاً، ثم قال لها مستفسراً: ".. و؟ "

..كما لو أنه يريدها أن تكمل..

قالت أمي: "وأخذناه يا سيدي إلى كل الكهنة والحكماء في المدينة، لم تبق تميمة أو تعويذة إلا حاولنا استخدامها، دون طائل"..

ردد السيد نوح، مع ابتسامة على وجهه: "... و.؟".

"وقالت أم صابر إن بإمكانك مساعدتنا في ذلك."

رد السيد نوح بوضوح: "سيدتي انا معلم أطفال كما ترين، ولست طبيباً، ربما أم صابر اخطأت العنوان". قالها ونظر إلى أم صابر بلوم..

"إنك رجل صالح يا سيدي..". قالت أمي بنبرة توسل..

"ربما"، قال نوح، "لكن الرجل الصالح ليست وظيفته أن يشفي أمراض الناس، أو أن يزيد من أطوالهم، الرجل الصالح عليه أن يصلحهم، أن يساعدهم في إصلاح أنفسهم وما حولهم بأنفسهم".

قالت أم صابر: "إنك رجل مبارك يا سيدي، ربما أنت متواضع ولا تريد أن تعترف بذلك، فقط لو مددت يدك على رأسه وقلت له بعضاً من كلماتك.. ربما سيشفى..".

"ليس هكذا يا أم صابر، أمد يدي ليس لأضعها على رأسه، ولكن لآخذ بيده، لكي أسحبه كما أسحب بقية الأطفال.. كلماتي لا أقرؤها على رأسه مثل تعويذة غير مفهومة، بل أقولها أمامه كي تدخل رأسه، كي تغيره، كما أفعل مع الجميع". كان هذا كله غريباً علي.. ولكنه بدا غير مقنع لأمي..

- "ليس ثمة ما ينقصه إلا أن يزداد طوله..".

- "إن شئت يا سيدتي أن يلتحق بالأطفال عندي في المدرسة فأنا أرحب به..".

"هنا؟!" ردت أمي بنبرة فيها استنكار، كما لو أنها تقول في نفسها: "وأين سأذهب من صديقاتي إن وضعته هنا؟"..

- "لا يا سيد نوح، ابني يدرس في أرقى مدرسة، مدرسة الأستاذ فهيم، وهي مدرسة ليست بالمجان مثل هذه".

في داخلي كنت أفضل أن يكون نوح مدرسي على كل أساتذتي في المدرسة التي أنا فيها..

- "كما تشائين يا سيدتي، لكني لا أعلم الأحرف والحساب فقط كما تفعل تلك المدارس"..

"ماذا تعلم إذن؟" - بفضول قلت أنا.. لما لاحظت أن أمي سكتت..

"أعلم الحقيقة". ازداد وجهه إشراقاً وضوءاً عندما قالها وهو ينظر إلي... "الحقيقة في هذا العالم الذي يحاولون أن يزيفوه.. وحقيقة أنه لله كله، وأن كل هذه التماثيل التي.."..

لم تدعه أمي يكمل.. "يا سيد نوح، كل ما أريده هو أن يزداد طوله شبراً أو شبرين".

- "بعض الأشياء يا سيدتي لا تقاس هكذا.. بعض الأشياء لا يمكن استعمال المكاييل فيها.. القمح والشعير والتين والتفاح يمكن أن توزن، والأشجار والبيوت يمكن أن تحسب بالأطوال والأشبار.. لكن الإنسان يا سيدتي لا يمكن أن يقاس هكذا.. إنه أهم

من أن يقاس بالمكاييل.. الإنسان لديه روح لا تملكها الأشياء.. وشبر أقل أو شبر أكثر لن يعني أن هذا الإنسان أسوأ أو أفضل..".

بهذه الكلمات تمنيت لو أركض إليه وأحتضنه وأقول له: قل لهم ذلك أرجوك.. للأسف، لم أفعل...

تنهدت أمي وقالت: "إذن لا فائدة.. شكراً لك على أي حال سيدي"..

انسحبت أمي وأم صابر بينما هما يشكرانه وخيبة الأمل واضحة عليهما، أما أنا فقد تسمرت في مكاني، لم أشأ أن أغادر.. كانت كلماته هي كل ما أحتاجه.. التفتت أمي وعادت أدراجها لتسحبني من يدي..

".. ربما ابنك ليس مريضاً سيدتي" قال نوح بوضوح.. "ربما العلة ليست فيه.. ربما العالم الذي نعيش فيه هو المريض.. ربما العلة في هذا العالم الظالم.. وربما كان ابنك لا يزداد طوله احتجاجاً على كل هذا.. ربما ابنك أنقى وأصفى من أن ينمو في هذا العالم الوسخ.. اعتبري أنه مثل نبتة ترفض أن تنمو في مستنقع آسن. ربما ليس هومن يحتاج إلى علاج، بل

أولئك الذين لا يكترثون، وينمون في عالم كالمستنقع، ويزداد طولهم بينما العالم يزداد تقزماً..".

سكتت أمي وقد بدا عليها الاقتناع..

"تذكري يا سيدتي" أردف نوح "الإنسان لا يقاس بطوله، بل بروحه وأعماله، وربما يأتي يوم تعرفين أنه من الأفضل له أنه بقي طفلاً"..

قالت أمي بصوت بدا غريباً: "شكراً لك.."



كانت أم صابر خائفة من أمي أن تقرعها وتلومها لأن المشوار لم ينته بتميمة أو بتعويذة، لكن أمي ظلت صامتة كما لو كانت تفكر بعمق، وعندما هبطت أم صابر من العربة، قالت لها أمي: "لا تخبري أحداً أننا ذهبنا إلى نوح، سأقول إنك مرضت فجأة، وإنني أحببت أن أوصلك إلى بيتك بنفسي.."، أشارت أم صابر بالفهم، وغرقت أمي في صمتها مجدداً..

أما أنا فقد غرقت في كلمات نوح.. أحسست بها تطوقني من كل الجهات.. أو ربما كان العكس،

ربما كنت غريقاً قبل كلماته، وربما كانت كلماته هي التي أنقذتني..

مع ذلك، فقد كانت هناك أمور كثيرة لم أفهمها، كنت سعيداً بالتجربة لأنها رفعتني بقوة إلى الأعلى كما يفعل والدي وهو يلاعبني، لكني هذه المرة تجاوزت كل ارتفاعاتي السابقة.. لأكون أعلى.. وأعلى..

لكني أردت أن أفهم أكثر..



أبي يعرف كل شيء عن كل شيء في هذه الدنيا..

أو هكذا كنت أظن يومها.. دوماً أوفر أسئلتي المهمة له.. وأبقي الأسئلة الصغيرة لأمي.. قسمت الأمر دوماً هكذا، المحبة والعطف والحنان لحضن أمي، والأسئلة لرأس أبي.. كانت أمي تستطيع أن تجيب، وكذلك كان بإمكان أبي أن يقدم حناناً لا بأس به، لكني فضلت أن أقسم المهام بينهما.. هكذا أفضل..

تسللت إليه بينما هو جالس على سطح المنزل، يسحب النفس تلو الآخر من المبخرة، وينفث الدخان

على شكل دوائر متتالية كعادته كل مساء بعد أن يتناول العشاء.. قلت له: "أبت، لماذا يعيش بعض الناس في تلك البيوت الصغيرة المهدمة، كالتي رأيتها اليوم عندما أوصلنا أم صابر إلى بيتها؟".

ابتسم أبي وقال: "وأين تريدهم أن يعيشوا إذن؟".

- "في بيوت مثل بيتنا.. أو بيت خالتي.. أو بيت عمتي.." قلت.

- "لا يمكن لهم ذلك يا عزيزي". قال هذا وعدل من جلسته ليضعني في حضنه، إذا كنت أحب شيئاً في كوني لم أكبر ولم يزد طولي، فهو هذا، إنه لا يزال يضعني في حضنه، ويتركني أتسلقه، بينما لم يعد يستطيع فعل ذلك مع أخي الذي يصغرني بعام.

"لماذا لا يمكن لهم يا أبي، ويمكن لنا نحن ويمكن لجيراننا وكل أصدقائنا؟" قلت له وأنا أعدل من جلستي في حضنه.

"لأنهم.. لأنهم فقراء يا بني". قال بهدوء وفي عينيه نظرة أن أكف عن الأسئلة.

"و لماذا هم فقراء أصلاً؟".

"فقراء لأنهم لا يملكون المال".

"أعلم هذا ولكن لماذا؟ كيف نملك نحن المال مثلاً؟".

"إنني أحصل على المال من تجارتي، وأنت تعلم ذلك، ولقد جئت أكثر من مرة معي إلى المتجر ورأيتني أستلم المال".

"ولماذا لا يفعلون الشيء ذاته، لماذا لا يذهبون إلى السوق، ويتاجرون ليحصلوا على المال، وبعدها يشترون بيتاً كبيراً وثياباً جميلة، بدلاً من أن يلعب أولادهم عراةً في الطين؟..".

"لا يمكن لهم ذلك.. لا تجري الأمور على هذا النحو في العالم.. لكي يفعلوا هذا، يجب أن يمتلكوا رأس المال"..

"وما هو رأس المال هذا؟" سألته بدهشة.

"إنه المال اللازم لفتح المتجر، وشراء البضاعة التي سيبيعونها لاحقاً، كي يحصلوا على المزيد من المال"..

"وكيف سيكون لديهم رأس مال إذا كانوا فقراء أصلاً؟"..

"هذه هي المشكلة يا عزيزي. ولهذا فهم لا يستطيعون الخروج من حيهم والسكن قربنا". قال وقبلني، كانت قبلته بمثابة رشوة من أجل أن أكف، لكني لم أستطع، رأس المال هذا دوخ رأسي..

"كيف حصلت أنت على رأس المال يا أبتِ؟"..

"من جدك - رحمته الآلهة - كان لديه مال كثير، فأعطاني جزءاً منه لكي أبدأ مشروعي.. وكذلك فعل مع أعمامك.."..

"ومن أين كان لجدي المال؟"..

"من أبيه، جدي، الذي كان له مال كثير، ولكن جدك كان ذكياً فاستطاع أن ينميه".

"وأبوه، من أين له المال؟" قلت وقد بدأت أفهم أنها سلسلة من الأموال المتوارثة..

"من أبيه طبعاً.." ردّ أبي ضاحكاً..

"وهؤلاء الفقراء، آباؤهم لا يملكون أموالاً أيضاً، ولهذا لم يعطوهم رأس المال الذي يمكن عبره أن يخرجوا من فقرهم.."..

"نعم بالضبط" قال أبي وهو يامل أن تكون نهاية أسئلتي هنا، كنت أحظى بصبر استثنائي من أبي ومن أمي أيضاً، بسبب ما يسمونه حالتي المرضية، ولو أن أحداً من إخوتي أطال الأسئلة هكذا لكان له جواب مبكر من نوع مختلف.

"هذا غريب يا أبي".. قلت له وهبطت من حضنه وجلست قربه..

"ما الغريب يا بني؟"..

"عندما رأيتهم هناك وبيوتهم وهزالهم اعتقدت أنهم يقضون عقوبة ما، بالضبط كما تحرمنا أنت أو أمي من اللعب أو من أكل الحلويات إذا حطمنا شيئاً من أغراض البيت في أثناء اللعب، أو إذا تعالى صياحنا حين تكون في قيلولتك، تخيلت أن لديهم ذنباً ما، وأنهم يعيشون هناك نوعاً من العقوبة، لكن الآن فهمت أن لا ذنب لهم غير أن آباءهم وأجدادهم لم يكونوا يملكون المال".

نظر إلي أبي باستغراب وقال: "طولك لا يزيد يا ولد، ولكن عقلك ازداد فعلاً "..

"في مرة عاقبتني يا أبتِ ولم أكن قد أذنبت، كانت الآنية الخزفية قد تحطمت ولم يكن لي دخل بالأمر.. يومها شعرتِ بالظلم، مع أني عوقبت أكثر من مرة، وبعقوبات أكبر، لكني كنت أستحقها، أما يومها فلم يكن لي ذنب.." قلت وتذكرت كيف حبسني والدي في القبو يومها، قبل أن يرقَّ قلبه لتوسلاتي وتوسلات أمي..

"وما علاقة هذا بذاك يا حكيم عصرك، أم أنك تريد أن تشعرني بالذنب؟ علماً أنك حصلت على هدية ترضية وقتها، أم أنك نسيت؟" ضحك والدي وعاد لوضعي في حضنه..

"لا، لكني فعلاً شعرت أنهم يعاقبون على لا ذنب، هل رأيت بيوتهم يا أبي؟ هل سبق أن رأيت الحي الذي يسكنون فيه؟"..

"نعم، لقد رأيتها يا عزيزي. وضعهم سيئ فعلاً، ولكني أقترح عليك، ما دمت تفكر هكذا أن تفكر من ناحية أخرى" قال أبي بجد.

- "أي ناحية؟ "

"من ناحية أنه لو لم يكن هناك فقراء، لما كان هناك أشخاص يقبلون بالعمل في المنازل وتنظيفها وحمل البضائع.. إنهم فقراء ولهذا فهم يقبلون بهذه الأعمال وبادنى الأجور.. لو لم يكونوا كذلك، لو كانوا يسكنون في بيوت مثل بيوتنا ويعملون بالتجارة مثلما أعمل، لما وجدنا من يخدمنا.. لما كان هناك أم صابر التي تاتي لتخبز لنا، ولما كان هناك عامل جمع القمامة الذي ياتي إلى الباب.. ولما كان هناك كل أولئك الحمالين الذين أستعين بهم في نقل البضائع في متجري.. وكذلك كل أولئك الذين يعملون في حراثة الأرض وزراعتها.. هل تعتقد أن كل هذه الأعمال الشاقة، كان يمكن أن يقوم بها أي أحد لولا جوعه وفقره؟"..

نعم، **الآن فهمت**، لكني لم أرد..

بطريقةٍ ما أحسست أن الثراء والفقر مرتبطان هنا، وأن عيشنا في هذا البيت الواسع يعتمد على أن ثمة أشخاصاً يعيشون في بيوت كتلك..

كان كلام أبي واضحاً، ومنطقياً.. وكان يمكن أن أقتنع هنا وينتهي الأمر، لكني تذكرت كلام نوح

عن الأبجدية التي لا نستعملها إلا من أجل الصواب، وذلك العالم الآخر الذي تأخذنا إليه الألواح..

فهمت بطريقة غامضة أن ذلك العالم الأفضل ليس عالماً بألعاب ودمى أكثر، أو بشمس أكثر إشراقاً، بل هو عالم بلا تلك الأحياء، بلا بشر يضطرون إلى العيش في تلك البيوت المتداعية.. بلا بشر يضطرون للعمل عندنا.. فقط لأنهم لا يملكون حلًّا آخر..



لم يكن هذا كل ما أريد معرفته.. فقد كان في كلام نوح ما لم أفهمه، لكني صرت - بشكل ما - أفهم ما الذي يقصده بالعالم الأفضل..

لكن من هذا الله الذي تحدث عنه وقال إن علينا أن نساعد أنفسنا كي يساعدنا، لم أسمع به أبداً، هل هو صديق له؟.. هل هو من مدينتنا؟.. وإذا كان مهماً جداً هكذا فلم لم أسمع به من قبل، لا من أبي ولا من أمي، ولا حتى من السيدة نميمة التي لا تكف عن نقل الأخبار من اللحظة التي تدخل فيها البيت حتى ما بعد تجاوزها العتبة عند الخروج؟

لم أسمع به أبداً.. ولكن تحدث عنه نوح بثقة وقوة.. وما معنى أن يساعدنا عندما نساعد أنفسنا؟.. كيف يمكن لأحد أن يساعد نفسه؟.. وكيف بعد ذلك تكون المساعدة من احد آخر بعد أن نساعد أنفسنا؟.. تمنيت لو أن أمي تركت نوحاً يكمل كلامه، لكنها قاطعته كما لو أنها لا تريد أن يتحدث عن صديقه هذا أمامي.. كما لو أنها تعرف ولكنها لا تريدني أن أعرف. بالضبط كما تفعل مع أبي حينما تتستر على شيء سيئ فعلناه ولا تريد لأبي أن يعاقبنا..

كنت قد رأيت أن مزاجها معكر، وفضلت أن أسألها لاحقاً.. في الصباح، عندما يهدأ مزاجها قليلاً..



في الصباح لاحظت أنها تأخرت في الاستيقاظ، ولم تنهض مبكراً قبل الجميع كعادتها.. انتظرت قليلاً، ثم دخلت غرفتها، كلما تأخرت في الاستيقاظ، تنتابني الوسوسة أن تكون قد ماتت. أبي لطيف وأنا أحبه كثيراً، لكن أمي هي الرقم واحد، والعالم من

دونها سيكون عالماً أسوأ بكثير مما هو عليه. لذا فكلما تأخرت في نومها، أبدأ بإصدار الأصوات قرب غرفتها، ربما أمشي كما لو كنت أرتطم بالأرض قرب سريرها كي تنهض من النوم.. وإذا لم تنجح الخطة الأولى، فإن الخطة الثانية ستنجح حتماً، أقفز فوقها على السرير، وأفتح عينيها بيدي.. وهذه لا تخيب أبداً، تهب أمي مذعورة ومنزعجة و غاضبة، ولكنها ليست ميتة. و أنا أفضل الأم الغاضبة- بمخاطرها- على الأم الميتة.

فعلت كل ما يجب ولم تنهض، فقفزت فوقها وفتحت عينها في حركة واحدة، فقامت مذعورة وهي تصيح كعادتها كلما فعلت ذلك: ماذا؟ ماذا حدث؟ ماذا بك يا نور؟..

قلت لها: "لا شيء.. فقط تصورت أنك قد مِت.. فاحببت أن أتاكد"..

"نعم.. يوماً ما ساموت فعلاً من الرعب من طريقتك في التأكد أني لم أمت، ماذا تريد؟".

"لم تأخرت في النوم هذا اليوم؟"..

"لأني لم أنم إلا قبل قليل. بقيت طوال الليل أتقلب ولم يغمض لي جفن، والآن الصداع يكاد يقتلني، اذهب الآن ودعني أحاول أن أكمل نومي"..

تظاهرت أني لم أسمع الجملة الأخيرة "سلامة رأسك يا أمي" - وقبّلتها على رأسها بما بدا أنه تملق، ولكنها كانت تستمتع به في كل الأحوال.

"قولي لي يا أمي، لم لا نجرب الذهاب إلى صديق السيد نوح الذي قال عنه؟"..

بدت عليها الدهشة "أي صديق هنا؟".

"صديقه الذي تحدث عنه.."

"لم يتحدث عن صديق إطلاقاً.. عم تتحدث أنت؟"..

"بلى، لقد قال شيئاً عن أحدهم، لم يقل إنه صديقه لكن بدا كما لو أنه يشير إليه، ربما كان كاهناً أو عرّافاً أو مجرد صديق. لكن ما دام أن السيد نوحاً يتعامل معه فهو ليس واحداً من أولئك الدجّالين الذين ذهبنا إليهم"..

قلت بثقة ذلك، وكنت أعني ما أقول.

"ما أزال لا أفهم.. نوح لم يذكر أي اسم، أضف إلى ذلك، أنه لم يذكر اسم أي كاهن ولا عراف لأنه لا أصدقاء له بينهم تحديداً". قالت هذا وسحبت الغطاء على وجهها لتعود إلى النوم..

"أظن أنه ذكر اسمه تحديداً يا أمي"..

"وماذا كان اسمه؟" قالت من تحت الغطاء وقد بدأ صوتها يغالبه النعاس.

"الله.." قلت بشكل طبيعي تماماً..

فجاة شعرت كان أمي قد تقلصت وجمدت.. رفعت الغطاء من على وجهها فإذا بوجهها قد ذهب لونه فجأة.. نهضت من سريرها والتوتر بادٍ عليها، قالت كأنها تحدث نفسها "كله بسببك يا أم صابر، كنت أعرف أن شيئاً كهذا سيحدث"..

جلست على الطاولة أمام مرآتها ونادت بأعلى صوت على الخادمة: "بطيئة.. يا بطيئة، كوباً من القهوة حالاً"..

"يا أمي، ألا تريدينني أن أزداد طولاً؟.. لم لا نذهب إلى هذا الذي قال عنه السيد نوح الله؟"..

التفتت أمي بحدة وقالت بصوت لم آلفه منها: "اسمع يا نور.. لا أريد أن أسمع منك هذه الكلمة.. ولا حتى مرة واحدة.. انسَ الأمر.. انسَ الأمر كله، نحن لم نذهب إلى نوح.. هل فهمت؟"..

"لم ذهبنا إذن؟ لم لا نحاول على الأقل؟.. هل تعتقدين أنه سيأخذ مالاً كثيراً.. أكثر من الباقين؟"..

"كفّ عن هذا يا نور.. ليس الأمر كما تظن.. هل تعلم ما الذي سيحدث لو سمعك والدك تنطق هذه الكلمة؟ لا تتخيل ما الذي سيحدث.. لن نعيش معاً بعدها، هل فهمت؟" قالت وقرّبت وجهها مني..

"ولماذا سيفعل والدي هذا؟ هل له عداء مع صديق نوح إلى هذا المدى؟ هل هو تاجر أيضاً وقد تسبب في خسارته؟"

صرخت أمي فجاة عندما سمعتني أقول هذا.. وامسكت برأسها بيديها: "يا بطيئة، يا بطيئة أين القهوة؟.. وأنت... اتركني الآن.."

"لكن..!"..

"اتركني، وإياك أن أسمع أنك نطقت بهذه الكلمة مجدداً"..

لقد طردتني أمي!!.. وهو أمر لم يحدث منذ أن اكتشفت أني لا أزداد طولاً، حيث نلت معاملة استثنائية من بين كل أشقائي.. لكنها طردتني، كان هذا اللفظ الذي لا تريدني أن أنطقه أهم مني، ومن حالتي المرضية التي لا أشعر بها إطلاقاً..

كان يمكن أن أحاول المناورة وأن أستعمل مرضي لابتزازها عاطفياً كما أفعل حين لا أجد حيلة أخرى، لكني حدست أن مزاجها أسوأ من هذا.. وقررت أن علي أن أتركها تهدأ.. وبعدها يمكن أن أحاول مجدداً..



هبطت إلى الحديقة الخلفية للمنزل. كانت أم صابر تعد الخبز كعادتها.. اقتربت منها وقد قررت أن أسألها عن صديق السيد نوح، لعلها تعرف عنه ما دامت تسكن بالقرب من حيث يعلم نوح الأطفال، لعله يزوره أحياناً، بل لعلها تعرفه شخصياً أو تعرف عنوانه..

جلست على الأرض بالقرب منها، خيل إلي أني رأيت ظل ابتسامة على وجهها.. ناولتني رغيفاً ساخناً خرج لتوه من التنور..

قلت لها دون أن أشعر بالحاجة إلى اللف والدوران، "هل تعرفين صديق السيد نوح؟"..

"أي صديق؟" سألت أم صابر باستغراب..

"لا تقولي لي إنك لم تسمعي يا أم صابر. قال شيئاً عن صديق له بإمكانه أن يساعدنا.. ولقد ذكر اسمه أيضاً، قال إن اسمه الله".

اختفت الابتسامة تماماً من وجه أم صابر النحيل "ليس الأمر كما تظن يا صغيري". والتفتت حولها كما لو أنها تخشى أن يسمعها أحد..

"ماذا تقصدين؟"..

"أقصد أن الله ليس كما تظن.. إنه ليس رجلاً" قالت هذا بصوت خفيض.

"ما هو إذن؟.. هل هو امرأة؟" قلت باستغراب وأنا أحاول تذكر ما قاله نوح بالضبط..

"لا، لا، ولا امرأة أيضاً" قالت بعجلة وبصوت لم تستطع السيطرة عليه..

"ماذا إذن؟ ليس رجلاً ولا امرأة، ولكنه يساعدنا إن ساعدنا أنفسنا، هل هذه أحجية يا أم صابر؟" قلت لها، وكان الكل يتصرف معي كما لو أنها أحجية فعلاً..

"إنه غير كل هذا.. وغير كل ما تعرفه يا صغيري، غير كل ما عرفت، لكن اعذرني، لا أستطيع أن أقول المزيد، لا أريد أن أطرد من عملي عندكم، ولا أظنك تريد أن يموت صغاري جوعاً". قالت هذا وهي تنهض وتنفض ثيابها من أثر الطحين والتراب..

"ما هو الله يا خالة إذن؟.." سألتها بإصرار وقد علا صوتي..

"اخفض صوتك يا بني واستر علي.. اذهب واسأل السيدة والدتك عن الله".. قالتها والتمعت عيناها مع الكلمة..

"أسأل أمي؟" قلت متعجباً..

"يسألني عن ماذا؟" جاءنا صوت أمي بحدة والتفتنا أنا وأم صابر مرعوبَيْن، وإذا بها واقفة خلفنا وهي تصوب نظراتها بحدة وتهديد إلى أم صابر..

ارتعدت أم صابر وتلجلج لسانها وهي تقول: "كان يسألني إن كان يمكنه أن يعجن معي رغيفاً بنفسه، وقلت له أن يسألك.." كانت سيئة في الكذب، كان واضحاً من ارتباكها أنها تخفي شيئاً مما لن يخفى على أمي.. قالت لي أمي دون أن تلتفت: "اذهب يا نور وكل إفطارك فقد أعدته بطيئة".. خطوات وسمعتها تقول بصوت منخفض ولكن حاد لأم صابر: "كلمة واحدة في هذا الأمر مجدداً وأقطع لسانك.. هل فهمت؟"..

أمي في العادة امرأة لطيفة ونادراً ما تتكلم بهذا الأسلوب، حتى مع الخدم. ولا يجعلها تغير طبعها إلا الشديد من الأمور.. ولا بد أن هذا منها..

لابد أنهما يخفيان شيئاً..

شيئاً عن الله الذي هو ليس رجلاً، ولا امرأة، ولكنه يساعدنا إن ساعدنا أنفسنا..

كما صار واضحاً أن هناك صلة (ما) لأمي، بالله..

صلة لا تريد أن أعرفها..



بعد يومين ذهبنا إلى نزهتنا في بساتين السد شرق المدينة عند ضفة النهر. كانت أمي قد وعدتنا منذ فترة أنها ستقنع أبي بأن نذهب جميعاً إلى هناك، وأن نهبط إلى (السد) في مقدمة الوادي.. بما أن قرار أمي أعلن قبل يومين من ذهابنا، وأننا قضينا الوقت كله نستعد للرحلة الموعودة، فقد حدست أن أمي ربما أرادت أن تلهيني عن أسئلتي وتساؤلاتي بإغراقي في كوم من الاستعدادات للتحضير للرحلة، وأعترف أيضاً أنها نجحت في ذلك تقريباً، ولو بشكل مؤقت..

كنا نذهب دوماً في هذه النزهة، ربما مرة أو مرتين كل شهر، في الصيف نذهب مساء، وفي الشتاء نذهب صباحاً.. مع ذلك فقد ظل لهذه النزهة سحرها كما لو أن كل مرة هي المرة الاولى.. كذلك كانت محاضرة أبي عن السد وأهميته في المدينة وكيف أن خماسي الآلهة العظيمة (ود وسواع ويغوث

ويعوق ونسر) يحرسه من الانهيار ويحفظ للمدينة وجودها..

انطلقنا بثلاث عربات استأجرها والدي، وفي طريق خروجنا من المدينة، لاحظت للمرة الأولى، أن الأحياء السكنية النظيفة الراقية التي يعيش فيها أقاربنا ومعارفنا تشكل عدداً محدوداً من الأحياء، بينما معظم الأحياء المتبقية هي أحياء فقيرة تشبه حي (الأراذل) حيث ذهبنا وأم صابر، أو أحياء أفضل قليلاً..

مع أني أعيش في المدينة نفسها، لكني كنت محاطاً بما حولي من الأشياء حتى تصورت أن حدود العالم هي هناك..

فكرت أن تلك الأحياء، وكل أولئك الذين يسكنون فيها كانوا موجودين دوماً، وربما عدد تلك الأحياء، وعدد من يسكنون فيها كان أكبر وأكثر من (أحيائنا)، لكني لم أكن قد عرفت بوجودها، ووجودهم أصلاً..

فكرت أن عدم معرفتي بصديق السيد نوح الذي قال إن اسمه الله، بمن هو، وما الذي يفعله، يمكن أن

يكون شيئاً من القبيل نفسه، ربما كان مهماً جداً، ومؤثراً جداً، ولكني لم أكن أعرف بوجوده حتى.. لكن عدم معرفتي لم يكن قد ألغى وجوده..

فكرت بذلك كله، ونحن في طريقنا إلى النزهة الموعودة، إذن لم تنجح خطة أمي تماماً..



بينما كنا نضع أمتعتنا، لاحظنا مجموعة من الصبيان لم يكونوا قد جاؤوا للعب أو التنزه، كانوا يرتدون ثياباً رثة ويحملون خراجاً معهم، قالت عمتي لأمي وهي تشير إليهم: "انظري إنهم الأراذل هنا أيضاً.. لم يعد ممكناً أن نخرج لنتنزه دون أن نراهم ونرى منظرهم، لقد أصبحت أخاف على الأولاد من الاختلاط بهم أو حتى صرت لا أستبعد أن يؤذوهم، رحمتك أيتها الآلهة".

قالت أمي دون اكتراث: "على المرء أن يكون حذراً في كل الأحوال، من الأراذل ومن غيرهم"..

"من الأراذل أكثر يا عزيزتي.. لا شك في ذلك.. بل إني أفكر أن أقول لزوجي أن يكلم أحد أصدقائه في

الحرس ليضعوا حدوداً لهؤلاء الأوباش وعقوبات رادعة فيما لو تجاوزوها.. ما الذي تتخيلينه موجوداً في هذه الخراج التي يحملونها غير الحلي والمجوهرات التي ربما سقطت من بعض السيدات الراقيات اللاتي جئن للتنزه هنا." قالت بينما مدت يدها لتتجسس أقراطها كعادتها..

لم أقتنع بما تقوله عمتي، ولم أشعر أن السيدات الراقيات مضطرات لارتداء كل حليهن في نزهة كهذه، إلا إذا كن يردن الثرثرة عن ضياعها في اليوم التالي عندما يلتقين بصاحباتهن، ويخبرنهن كيف أن الرحلة كانت رائعة لولا ضياع القرط الماسي الثمين الذي أهداه لها زوجها العزيز.. ومن سيستطيع التأكد من ذلك؟..

لكن ماذا في تلك الأكياس يا ترى؟..



دفعني فضولي إلى الاقتراب أكثر فأكثر من أولئك الأراذل أو الأوباش كما وصفتهم عمتي فهيمة.. لم أكن لأنتظرهم ليتجاوزوا الحدود، بل ذهبت أنا لأتجاوزها!

اقتربت أكثر ولاحظت انكماشهم من اقترابي.. بدوا خائفين مني أكثر مما كنت خائفاً منهم! كانوا مجموعة من الصبية في مثل عمري أو أكبر قليلاً، في منتهى الهزال، حتى يمكن عد عظامهم واحدة واحدة، بالتأكيد لا يلعبون مثلي ومثل إخوتي، ولم يجيئوا لغرض التنزه، كما أن أقدامهم تبدو متورمة من المشي كما لو أنهم أتوا من المدينة مشياً، لعل ذلك يفسر عدم وجود عربة تنتظرهم كما تفعل العربات التي استأجرناها..

لم يكونوا يلعبون لكنهم كانوا يتأملون الأطفال الذين يلعبون من بعيد، كأنهم يتمنون لو أنهم تمكنوا من اللعب.. ما الذي يمنعهم؟ لم لا يلعبون مع بعضهم إذا كانوا لا يعرفون الباقين؟..

لم يكونوا يلعبون كما لو أنهم قد جاؤوا لشيء آخر، كانوا يترقبون متاهبين لحدوثه..

وبالفعل، ما إن غادرت إحدى العوائل وتركت جلستها حتى اندفع أولئك الأوباش إلى المكان الذي كانت العائلة تجلس فيه، تأكدت أن عمتي كانت

محقة إذن، إنهم يبحثون عن الحلي الثمينة، هل يمكن أن يكون نسيان الحلي والأقراط أمراً شائعاً لهذه الدرجة..

اقتربت أكثر وقد استغللت انشغالهم عن مراقبتي بالبحث في المخلفات، رأيت أنهم كانوا فعلاً يضعون أشياء في الأكياس، اقتربت أكثر و قد جهزت ما أقوله عن ضرورة إعادة هذه الحلي والمجوهرات إلى أصحابها الأصليين..

يا لدهشتي، عندما اقتربت أكثر، لم أجد الأوباش وهم يملؤون أكياسهم بالحلي، بل كانوا يبحثون عما تركته العائلة من طعام. كانوا يجمعون فضلات الطعام ويضعونها في الأكياس..

"ماذا تفعلون؟.." سألت وقد فقدت سيطرتي من دهشتي..

نظر إلي أكبر الصبيان شزراً، بينما استمر الآخرون في جمع الطعام بسرعة كما لو كانوا يتسابقون فيما بينهم.. قال لي بينما يواصل وضع الفضلات في كيسه: "وماذا ترى أننا نفعل؟ نجمع الطعام!"..

"لكنها فضلات طعام!" قلت باشمئزاز؛ "ماذا ستفعلون بها؟"..

كانت هناك نظرة فيها حزن، وسخرية أيضاً، في عيني ذلك الصبي؛ "نجمع الطعام ونأخذه إلى عوائلنا، لكي لا يناموا جياعاً"..

"سيأكلونه؟" سألت...

"بالتأكيد، ولن يكون كافياً"..

"هل يأكلونه وهم يعرفون أنه من فضلات ناس آخرين، أم أنكم لا تخبرونهم؟"

"يعرفون طبعاً، يعرفون" قال وهو يضع بقايا بطيخ وتفاحة مقضومة في الكيس الذي بيده..

"لكنها فضلات! كيف يمكن أن يأكلوا فضلات؟".

"النوم جائعاً يجعلك تأكل أي شيء" هز كتفيه بلا مبالاة..

لم أتمكن إلا أن أسأله: "هل كل الوجبات التي تأكلونها تجمعونها من هنا، أم أن هذا يقتصر على العشاء فقط؟"..

"الوجبات؟.. ماذا تقصد؟" قال باستغراب..

"وجبات الطعام الرئيسية الإفطار، الغداء، والعشاء.. هل كلها تأخذونها من هنا؟"..

"ثلاث وجبات؟.. أنتم تأكلون ثلاث وجبات في اليوم؟.." سأل والدهشة بادية على وجهه.. وانتبه بقية الصبية وتركوا تسابقهم في انتظار جوابي..

"نعم، ثلاث وجبات رئيسية، أليسَ هذا ما يأكله الجميع؟" قلت بطريقة بدهية جداً..

"إنها وجبة واحدة فقط يا أخ.. نحن لا نأكل سواها.." قال وهو يضع بقايا كعكة ملوثة في الكيس..

"هذا إذا وجدناها أصلاً"..



في طريق العودة من النزهة، وبينما أنا في العربة، شاهدت أولئك الصبية الذين أسمتهم عمتي بالأوباش، كانوا راجعين إلى المدينة وهم يحملون أكياسهم معهم.. وفهمت لماذا رأيت أقدامهم متورمة وتنزف

عندما اقتربت منهم.. لقد جاؤوا مشياً على الأقدام كل تلك المسافة، وها هم أولاء يرجعون أيضاً على الأقدام، كل ذلك من أجل ألا ينام أهلهم جياعاً..مددت يدي وسلمت عليهم من بعيد..لم يردوا لأنهم لم يروني على الأغلب..

أما عمتي فهيمة فقد رأتني، وصرخت مذعورة: "كيف تسلم على هؤلاء الأوباش يا ولد؟".. ثم التفتت إلى والدتي بسرعة: "ألم أقل لك؟ هذه نتيجة أن أحداً لا يردع هؤلاء.. يجب أن يوقفهم أحد بسرعة.."

قالت بحزم وثقة: "سأقول لإمّعة أن يتدخل" واثقة، طبعاً، أنه سيسمع كلامها..



"هذا هو أسوأ كعك تذوقته في حياتي" قالت السيدة غلاظة وهي تتناول قطعة أخرى، خامسة، من الكعك الذي أعدته أمي لمجلسها الصباحي.

"يا عزيزتي" قالت السيدة نميمة: "لعلك لم تتذوقي كعك جارتي سمينة. ليس هناك ما هو أسوأ منه"، ثم

التفتت بسرعة إلى أمي "وكعكك يا عزيزتي لذيذ جداً ولكن تعرفين طبع غلاظة" بصوت منخفض..

أما أمي فقد قالت لغلاظة، "تعمدت ألَّا يكون الكعك لذيذاً جداً يا غلاظة، من أجل ألا تأكلي أكثر من قطعة واحدة، فقد لاحظت ازدياد وزنك مؤخراً، ولكن مع ذلك ها أنت ذي تأكلين القطعة الخامسة". قالت أمي بلؤم من تحمل من السيدة غلاظة كثيراً.

"حميتي لا تمنعني من الحلويات يا عزيزتي، ثم إن زوجي لا يمانع من ازدياد وزني، بل إنه يحبني هكذا وأكثر" ثم مدت يدها إلى الصحن وأخذت أكبر قطعة من الكعك والتهمتها كلها مرة واحدة وهي تنظر إلى أمي بتحدٍّ.

"كما لو أن زوجك يملك أن يرضى أو لا يرضى" قالت أمي من بين شفتيها بحنق..

أخذت السيدة تفاهة طرف الحديث بما أن النسوة دخلن في موضوعها المفضل، "هل أخبرتكن عن الحمية الجديدة التي جاءتني بها أخت زوجي من مدينة

الرجل الأبيض، تقول إن النساء هناك كلهن يتبعنها وهي في منتهى الرشاقة".

"الحذرَ الحذرَ من نسوة مدينة الرجل الأبيض، إنهن "خرّابات بيوت" بامتياز يا تفاهة. كل أخبارهن عندي، واساليني أنا عنهن.." قالت السيدة نميمة بثقة، وهي تريد تحويل الحديث إلى موضوعها المفضل.

"وهل يخربن البيوت إلا برشاقتهن يا عزيزتي.. السر كله في هذه الحمية السرية التي هي آخر ما وصلت إليه.. إنها حمية مريحة جداً، تأكلين ما تريدين وبقدر ما تريدين" قالت السيدة تفاهة..

"شوقتنا يا تفاهة.. فمع أن زوجي يفضلني هكذا، إلا أني قد أجرب أن أخسر وزني - فقط لكي أجرب - إن كان ثمَّة حمية كهذه حقاً" قالت غلاظة وهي تنظر إلى قطعة الكعك الوحيدة المتبقية، التي قالت عنها إنها أسوأ كعكة تذوقتها في حياتها..

قالت السيدة تفاهة وقد سعدت باهتمام الجميع بهذه الحمية:

"إنها أحدث حمية هناك، وأكثرها رواجاً.. تقول

أخت زوجي إن كل النسوة حتى الرشيقات منهن يتبعنها من شدة رواجها ونتائجها"..

قالت السيدة غلاظة للسيدة تفاهة: "قولي لنا ما هذه الحمية وإلا انتقلنا إلى موضوع خراب البيوت الذي تود نميمة أن تحدثنا عنه".

"حسناً، لن أطيل عليكن، مع هذه الحمية تستطعن أن تأكلن ما تشأن، خروفاً محشواً مرة واحدة، أو طناً من الحلويات أو ملء غرفة كاملة من كل الممنوعات بشرط واحد فقط.."

"إياك أن تقولي إنه الرياضة وهذا الكلام.. أفضل أن يتضاعف وزني على أن أتصبب عرقاً مثل خنزير وأموت من التعب مثل كلب لاهث".قالت غلاظة.

"لا تقلقي يا غلاظة، لن تصيري خنزيراً ولا كلباً، لا يوجد أي رياضة في هذا، بل إنك لن تستطيعي أصلاً أن تقومي بالرياضة من كثرة ما تأكلين".

"ماذا هو إذن هذا الشرط؟" قالت أمي وقد نفد صبرها..

"أن تأكلي كل هذا في وجبة واحدة فقط في اليوم حتى لو استمرت هذه الوجبة لمدة ساعتين.. حتى لو أكلت ما يكفي لعدة أيام، أو لعدة قبائل، المهم، أن يكون هذا كله في وجبة واحدة" قالت تفاهة بثقة.

"معقول؟! وهل جربته يا تفاهة، أو هل جربته أخت زوجك؟" قالت نميمة باهتمام.

"إذا كانت أخت زوجها قد جربته فهذا يدل على أن الحمية فاشلة جداً. قد رأيتها أول أمس في سوق الخضار وكانت تتحرك كالبرميل كعادتها" قالت غلاظة وهي تمسح شفتيها بعد أن أنهت قطعة الكعك الأخيرة.

"لم أجربه بعد، ولا هي، قررنا أن نأكل الآن كما نريد لثلاث وجبات، ثم بعد شهر نفعل ذلك في وجبتين، ولمدة شهر، وأخيراً نفعل ذلك في وجبة واحدة، قالت أخت زوجي إن هذا يسمونه التدرج أو التدريج.. أو الدرج.. لا أعرف ما علاقة الدرج بالأمر".

قالت نميمة: "ولكن هل نحن نأكل ثلاث وجبات فقط؟.. اعتقدت دوماً أنها خمس!".

قالت تفاهة وغلاظة معاً: "بل ثلاث فقط"، وأكملت تفاهة: "لا.. حمية الوجبة الواحدة كافية لنا.. إنني أستصعب من الآن حذف وجبتين، فكيف إذا كان المحذوف أربعاً؟!".

قالت أمي: "أظن أنها أحياناً خمس وأحياناً أكثر.. ماذا تسمين ما أكلناه الآن مثلاً؟".

قالت غلاظة فوراً: "هذا الكعك السيئ؟.. لا! هذا غير محسوب طبعاً! ".

تجاهلت أمي جملة غلاظة وقالت: "حمية الوجبة الواحدة ذكرتني بشيء قاله لي نور الأسبوع الماضي.. قال لي: إنه في أثناء الذهاب إلى نزهة السد -حفظته الآلهة- تحدث إلى مجموعة من الصبية من سكان الأراذل على ما يبدو، وقد قالوا له إنهم يأكلون وجبة واحدة فقط".

قالت نميمة: "ما الذي جعل نوراً يتحدث معهم أصلاً؟.. وهل غسلته جيداً بالصابون المستورد؟.. يقال إن مجرد الحديث يصيب بالجرب أحياناً" ثم خفضت صوتها.. "أعرف سيدة راقية جداً، ومن أعلى المستويات،

أصيبت بالجرب لأنها مست يد أحد هؤلاء مصادفة بينما كانت تتصدق عليه، لم أقل لكم اسم هذه السيدة لأنها استأمنتني عليه طبعاً، إلا إذا أصررتم على ذلك"..

"كلنا نعطي الصدقات لهم ولم يصبنا شيء يا نميمة" قالت أمي بتأفف وكانت تعرف اسم السيدة وتعرف أن قصتها لا علاقة لها بالصدقة على الإطلاق.

"لكن هذا غريب جداً!" قالت تفاهة وقد ضيقت عينيها: "أعني أن أخت زوجي قد أكدت لي أن هذه هي أحدث حمية في مدينة الرجل الأبيض، لم أكن أعلم أن سكان حي الأراذل يتابعون هذه الأمور بهذه السرعة".

"تفاهة!.. كيف فسرت ما قاله نور هكذا؟!" قالت أمي بين الضحك والاستغراب.

"دائماً كنت أقول إن النسوة هناك، مع أنهن لا يعتنين بملابسهن أو مكياجهن كثيراً، إلا أنهن رشيقات جداً.. والآن فهمت أنه الدليل على نجاح هذه الحمية.. حمية الوجبة الواحدة.. إنهن رشيقات جداً لأنهن يتبعنها" قالت تفاهة بثقة وفرح كما لو أنها

وجدت البرهان على الحمية الجديدة التي تروج لها. ثم أردفت "لكن ألا ترون أنهن قد بالغن قليلاً؟".

قالت أمي: "لم يقل أحد شيئاً عن أنهن يتبعن حميتك يا تفاهة، لقد قصد الصبية الذين تحدث معهم نور أنهم فقراء لدرجة أنهم لا يجدون مالاً يشترون به الطعام إلا لوجبة واحدة.. فضلات الطعام التي تركناها وغيرنا عندما كنا في البساتين".

"هل تصدقين هذا الكلام؟" قالت السيدة غلاظة لأمي: "مشكلتك هي هذه دائماً، طيبة، وبسيطة، وتصدقين كل ما يقال لك مثل الأطفال الأغبياء، وليس أي أطفال" قالت وهي تتعمد التركيز على كل حرف. ثم أكملت: "تأكدي وكوني واثقة مما أقوله، هؤلاء الذين تباكوا أمام ابنك وقالوا له هذا الكلام هم أكثر ثراءً منه ومن أبيه ومن زوجي.. إنهم هكذا، لديهم الأموال الكثيرة ولكنهم يخبئونها ولا يجعلونها تظهر لكي يحصلوا على المزيد.. دوماً المزيد.. نعمة الآلهة لا تظهر أبداً عليهم، إنهم أثرياء ولكنهم بخلاء".. قالت غلاظة بحدة كما لو أنها تريد تمزيقهم بأسنانها لأنهم لا يريدون إظهار نعمة الآلهة.

قالت تفاهة: "نعم، هذا ما يقوله زوجي دائماً.. ويقول أيضاً إنهم كسالى جداً.. إما أنهم لا يعملون أو أنهم لا يعملون بأمانة.. ولهذا فلا يجب أن يلوموا أحداً على وضعهم هذا إلا أنفسهم.. هكذا يقول زوجي دائماً"..

أيدتها السيدة نميمة: "زوجك يعرف كل شيء يا عزيزتي.. اسأليني أنا عنه".

التفتت غلاظة لأمي: "نادي على بطيئة لتحضر لنا شيئاً لنأكله.. مع أن سيرة أولئك الأوباش سدّت نفسي..."

ثم التفتت لتفاهة: "تشاءمت يا تفاهة من حميتك من بدايتها.. لا أظنها فكرة جيدة.. أعتقد أني سأواصل الحمية التي كانت تتبعها والدتي رحمتها الآلهة، والتي ما تركتها يوماً واحداً..".

قالت أمي: " وما هي هذه الحمية؟.."

قالت غلاظة بمنتهى الثقة: "حميتي هي أن أحب الجميع، وأعطف على الجميع، وأن أكون لطيفة مع

الجميع، وألا أكره ولا أحقد على أي كان..و هذا - كما تعلمون جيداً - ما أفعله دائماً."



كنت أتمنى لو أن ذلك كان حقاً..

كنت أتمنى لو أن ما قالته السيدة غلاظة عن كونهم أكثر ثراءً منا صحيح، ولكن "النعمة" لا تظهر عليهم لسبب ما، ربما لأنهم هكذا فحسب، أو لأنهم يتظاهرون بالفقر ليستعطفوا الآخرين..

لو أن ذلك كان حقاً.. لما أزعجني جوعهم، ولما أحسست بأن الشبع ذنب، وأن تلك الوجبات الثلاث وما بينها ذنب.. ولما وخزني ضميري مثل شوكة حادة..

حاولت أن أصدق.. لكني وجدت أن ذلك لن يكون سوى مهرب من ذلك الشعور بالضبط.. أمسكت بنفسي وأنا أحاول أن أجبرها على التصديق.. ولكني وجدت أن ذلك بالضبط هو ما يجعل السيدة غلاظة - وسواها - يصدقون ذلك.. إنهم يصدقون بأن هؤلاء يخبئون الأموال

تحت بلاطة ما من أجل ألَّا يشعروا بالشفقة عليهم، بالضبط من أجل أن يقتلوا كل إمكانية لذلك..

لم أستطع أن أبتلع ذلك الطُّعم.. ولا الطُّعم الآخر، من أنهم كسالى ولهذا كانوا يستحقون ذلك، كما قالت السيدة تفاهة نقلاً عن زوجها، على الأقل ليس أولئك الصبية الذين أسمتهم عمتي أوباشاً، ليس من تورمت أقدامه مشياً من أجل تلك الوجبة الواحدة المكونة من فضلات الطعام..

ربما كنت قد بقيت في سن السادسة، ربما طولي لم يزد من يومها.. لكن ربما كان ذلك المكان الذي بقيت فيه يجعلني أرى ما لا يرونه.. كنت كمن بقي في مكان واحد بينما سار الناس جميعاً مع التيار، فصرت أرى ما لا يرونه.. مع أني لا أزال في السادسة.. مع أني لم أكن أكبر.. إلا أني بدأت أعي أن الأمور أحياناً لا تكون بالأشبار، أو بالطول.. أو بمظهرها..

بالضبط كما قال نوح..

وتذكرت نوحاً.. تذكرت كلامه من جديد.. فسرت في جسدي رعشة تشبه تلك الرعشة التي كانت تجتاحني

عندما كان والدي يحملني ويقذفني في الهواء.. بالضبط كما لو كنت أركب تلك الطائرة الورقية بدلاً من أن أجعلها تطير فقط، كما نفعل كل عيد أنا وإخوتي.. تذكرت نوحاً وكلماته.. واحسست ان كل ذلك يرتبط بما قاله، عن ذلك العالم الذي يحتاج إلى التغيير.. العالم الذي لا أريد ان أكبر فيه..



٢

كنت، كما كل أفراد عائلتي، نبدأ كل يوم من أيامنا بالصلاة لآلهة السد.... أحياناً نصلي أمامها عند البهو. وأحياناً يخرجها أبي إلى الباحة عندما يكون الجو لطيفاً، فنصلي جميعنا هناك.

كان والدي شديد التدين والورع، وهو من حرص على تعليمنا الصلاة وتحفيظنا كلمات التراتيل والأدعية.. لا أقصد أن والدتي كانت غير متدينة، ولكنها كانت كسولة في هذه الأمور إلى حد ما، كان والدي هو السباق لكل ما يتعلق بالآلهة وعبادتها. وكان يقول دوماً إنه لا يشعر أن تجارته ستنجح أو أن القافلة التي فيها أمواله ستعود سالمة ما لم يرض الآلهة. وكانت فكرته عن إرضاء الآلهة أعقد من فكرة

عمتي فهيمة عن ارضائها مثلاً.. فقد كانت عمتي حريصة أيضاً على ارضاء الآلهة من أجل تجارة زوجها وأمواله، لكنها كانت تقدم القرابين للآلهة في الهيكل - وأمام الجميع - كما لاحظت أمي أكثر من مرة- ثم تمضي مسرعة إلى الالتقاء بصديقاتها أو التسوق.. أو إلى أي شيء.. أما والدي فقد كان يختلي بالآلهة، وكان يقول لنا دوماً إن "التواصل" مع الآلهة، أهم من كل القرابين والذبائح التي تقدم، لكنه كان يعود فيؤكد على أن ذلك لا يجب أن يقلل من أهمية القرابين.

كان والدي باختصار، هو "المتدين" في العائلة، وهو الذي يتابعنا جميعاً من أجل أن نكون متدينين، وهو الذي يوقظنا من أجل الصلاة للآلهة في موسم الحصاد وموسم اقتراب وصول القوافل، أما والدتي، فلا أنكر أني ضبطتها أكثر من مرة وهي تغفو في صلاتها، بل إني أعلم أنها لا تصلي أصلاً عندما يكون والدي مسافراً، وكانت تقول دوماً إن والدي قد عينته الآلهة مندوباً لها من دون أجر.. كانت تعلق - عندما ينبهها والدي إلى ذلك - أن الآلهة تعرف كم تتعب مع الأولاد وتربيتهم، وأنها تغض النظر عنها حتماً.

كان والدي، من أجل كل ذلك، يعرف كل شيء عن الآلهة.. بل إنه كان يعرف كل شيء عن كل شيء، بالنسبة إلي على الأقل.. كما قلت، والدتي للمحبة والعطف والحضن الجاهز دوماً. وأبي للأسئلة وأجوبتها وللحكمة العريقة التي يقول إنه ورثها أباً عن جد..



ذهبت ذات أمسية بعدما عاد من سفره، وقد حزمت أمري على أن أعرف منه كل الأجوبة.. وبقي تحذير أمي مضيئاً في ذهني "لا تسأل والدك عن الله، لا تفتح هذه السيرة كلها" لكنه كان تحذيراً زاد من أسئلتي وأجج نارها.. لماذا سيرة الله بالذات مع والدي؟.. لماذا سينزعج والدي؟.. ما هذا الأمر؟.. هل لهذا علاقة بتدينه؟.. هل صديق السيد نوح رجلٌ لا يحب الآلهة؟ وتذكرت ما قالته أم صابر من أن الله ليسَ رجلاً ولا امرأة.. ما هو إذن؟.. هل الآلهة هي التي لا تحبه؟.. وهل نوح يحب الآلهة؟ هل تحبه هي؟ إنه رجل صالح - ولا بد أنه متدين - لكني لا أذكر أني رأيته أبداً في الهيكل.. أو في أي تجمع آخر نتعبد فيه الآلهة، مثل أيام الأعياد المختلفة..

لماذا كل هذا يا ترى؟.. وكيف يمكن لرجل مثل السيد نوح أن يكون غير متدين؟ ما السر وراء هذا كله؟..

حملت أسئلتي، وتحذير أمي ألا أفتح سيرة نوح وصديقه الذي هو ليسَ رجلاً ولا امرأة، وجلست في حضن أبي..

قلت له: "هل كانت رحلتك ناجحة يا أبتِ؟ هل جنيت أموالاً منها؟.."

احتضنني وقال: "نعم، والدليل الهدايا التي جئتكم بها.. لا تقل لي إنك مللت منها بهذه السرعة وتريد غيرها؟.."

كنت قد مللت منها فعلاً، وكان الحصان الخشبي قد تحطم ليلة وصول أبي، لكننا - أنا وإخوتي - أخفينا الأمر وحاولنا لصقه وتركه في مكان دون أن نلعب به كي لا يكشف الأمر.. لكني قلت له: "أبداً يا أبتِ إنها جميلة جداً.. لكني كنت أسأل عن تعبك في هذه الرحلة، وتجارتك، هل كان مردودها يعوض تعبك فيها؟"..

"كبرت يا نور وصرت تسأل عن تجارة أبيك" قالها ونظرة حزينة في عينيه.. نظرة صرت أعرف معناها جيداً، نظرة تستحضر أن أسئلتي وما يعتبرونه أفكاري قد وضعت في الجسم الخطأ.. وضعت في جسم طفل.. ولهذا لن يكون هناك أي فائدة منها..

"نعم يا أبي، أريد أن أعرف إن كانت الآلهة قد استجابت لدعائك الذي دعوته صباح يوم سفرك، عندما ركعت أمامها لمدة طويلة وأنت تطلب منها أن تبيع حمولتك في المدينة التي ذهبت إليها بسعر يمكنك من جلب بضاعة جديدة، بالإضافة إلى الربح" كنت أذكر كل تفاصيل ذلك الدعاء لأنه ظل يكررها نصف ساعة، وقد أجبرنا على الوقوف معه جميعاً حتى مللنا واستغرقت أمي في النوم..

"نعم، حمداً للآلهة، لقد (طارت) حمولة التمور التي أخذتها بسرعة كبيرة وسعر جيد، واستطعت أن أشتري بضاعة من الأقمشة الفاخرة، ولم يصادفنا قطاع الطريق لا في الذهاب ولا في العودة، ماذا يمكن لاستجابة الدعاء أن تكون أكثر من هذا؟"..

"حمداً لها على ذلك" قلت بشكل آلي.. "لكن هل فعلت ذلك لأنك مؤمن تقي وتحبها كثيراً أم لسبب آخر؟".

"بالطبع لأني مؤمن تقي" قال أبي وعلامات الرضا على وجهه.

"إذن، هل الفقراء ليسوا مؤمنين يا أبي؟"..

بدت علامات الدهشة على وجه أبي: "لم تقول ذلك؟.. ما دخل تجارتي وربحي بكون الفقراء غير مؤمنين يا نور؟"..

"لأنه من الواضح جداً أن الآلهة لا تستجيب لدعائهم، أو أنها لا تحبهم، ولا بد أن ذلك لسبب، إذا كانوا يدعونها فهذا يعني أنها لا تحبهم، وإذا كانوا لا يدعونها فهذا يعني أنهم ليسوا متدينين ومؤمنين مثلك يا أبت"..

أطرق أبي مفكراً "في الحقيقة لم أفكر بالأمر هكذا، ثمّة فقراء متدينون، وآخرون ليسوا كذلك، أي كما الأغنياء"..

"هناك أغنياء ليسوا متدينين إذن؟".

"نعم.." قال أبي..

"وتجارتهم تربح وقوافلهم تعود سالمة؟!" قلت باستغراب..

"نعم يحدث ذلك كثيراً" قال أبي بصوت يشي بخيبة كبيرة.

"إذن كيف عرفت أن تجارتك ربحت بسبب أنك متدين يا أبتِ، ربما كانت الآلهة لا تهتم لهذا أصلاً؟!" قلت وكأني أحدث نفسي.

"كيف تقول هذا يا نور؟.. الآلهة رحيمة وعطوفة وتحب المؤمنين بها كما تحبك أمك وأكثر.. اذهب وصل واطلب منها العفو على ما قلته تواً". قال أبي مدفوعاً بورعه وخوفه عليّ.

"مغفرتك أيتها الآلهة العظيمة لم أقصد الإساءة وأنا عابدك المطيع دوماً" قلت هذا وأنا مطرق برأسي بعد أن عدلت من جلستي وصرت مواجهاً للإله الموضوع في الباحة أمامنا..

"لكن يا أبتِ.. أمي لا يمكن لها أبداً أن تحرمنا من الطعام وتمنحنا وجبة واحدة في اليوم.."

"وجبة واحدة؟ بالتأكيد لن تفعل أمك ذلك.. إنها تركض وراءكم كي تأكلوا المزيد من أجل أن تكبروا وتنموا.. لا تكتفي بالوجبات الثلاث وتحرص أيضاً على ما بينها" قال أبي وهو يبتسم..

"نعم أمي تفعل ذلك ومزيداً.. لكن الآلهة المقدسة لا تفعل ذلك بالضبط" قلت بعد تردد وتمتمت طالباً المغفرة من الآلهة على ما قلته بصوت خفيض..

بدا الانزعاج على وجه أبي، "الآلهة لا تفعل ماذا؟"..

"إنها لا تمنح وجبات الطعام العديدة للجميع.. إنها أحياناً لا تمنحهم إلا وجبة واحدة، وأحياناً لا تكاد تشبعهم، وبمشقة كبيرة".. قلت مسترسلاً وبحماس..

" هل هناك يوم واحد أكلت فيه وجبة واحدة فقط يا نور؟.. هذا اسمه جحود منك، وأعتقد أنك بحاجة أن تصلي للآلهة فوراً"..

"ليس أنا يا أبي.. بل أولئك الفقراء.. الصبية الذين شاهدتهم يوم نزهة السد، قالوا لي إنهم يأكلون وجبة واحدة في اليوم.. وكانوا يجمعونها من فضلات الطعام التي تركناها".

تنهد أبي وقال بعد صمت قصير: "ولهذا بالذات يجب أن نشكرها لأنها أعطتنا ما لم تعطهِ للفقراء.. يجب أن نتذكر كم هي رحيمة بنا كلما رأيناهم"..

"نعم، بالتأكيد" والتفت مرة أخرى وعدّلت من جلستي وشكرت الآلهة لأنها أعطتنا ثلاث وجبات وأكثر، ولم تجعلنا نبحث في الفضلات عما نأكله وتتورم أقدامنا بينما نفعل ذلك..

"لكني لم أقصد ذلك يا أبي، كنت أقصد الآلهة مع أولئك الفقراء.. هل هي لا تحبهم؟.. هل هم غير متدينين؟ وإذا كان التدين هو الحل لكي يخلصوا من فقرهم، فلم لا يتدينون كي ترضى عنهم الآلهة؟"..

"اسمع يا نور.. صحيح أن الآلهة عطوفة ورحيمة، لكنها حكيمة أيضاً.. لذلك فإن بعض ما لا نفهمه مما تفعله وتقرره قد يعود لحكمة نجهلها"..

"هل تعني أن الآلهة تجيع الفقراء وتجعلهم يأكلون وجبة واحدة لحكمة نجهلها؟" قلت وأنا أفكر..

"نعم، هل تذكر عندما كانت والدتك تجبرك على تناول زيت الخروع عندما كنت مريضاً؟".

"بالتأكيد!" قلت وقد ملأ وجهي القرف من ذلك الطعم.

"الشيء ذاته مع الآلهة، زيت الخروع كان لفائدتك، وكذلك فإن الآلهة قد تقرر أحياناً أن تقدم وجبة واحدة، من أجل حكمة ما"..

"ما حكمة أن يكون هؤلاء جياعاً يا أبي؟" قلت على الفور..

"بسيطة" قال أبي: "تخيل لو أن كل الفقراء أكلوا ثلاث وجبات في اليوم واستمروا في ذلك.. سيعني ذلك أنهم سيستهلكون القمح والشعير والأرز والفواكه والخضار واللحوم التي تأكلها الآن.. سيشاركوننا فيها.. ولو كان لدينا في البيت عشرون شخصاً بدلاً من العشرة، وكمية الطعام نفسها، ما الذي سيحدث لحصة كل فرد من العشرين؟ ستقل طبعاً فيما لو كان العدد هو عشرة.. أليس كذلك؟".

"ماذا تقصد يا أبي؟" سألت مع أني بدأت أفهم قصده..

"أقصد أن بقاءهم على الوجبة الواحدة هو الضمانة الوحيدة لبقائنا نحن على ثلاث وجبات.. لو أنهم أكلوا

ثلاث وجبات لما بقي من الطعام في المدينة ما يكفي لناكل جميعاً ثلاث وجبات.. ربما سنضطر عندها إلى أن نقلل من طعامنا.. والآلهة العطوفة الرحيمة لن ترضى بذلك طبعاً، لذلك فحكمتها قررت أن تجعل من جوع الفقراء ضمانة للتوازن لكي لا نجوع نحن، ألا ترى كم هي حكيمة؟".

سكت.. كان ما قاله أبي أشد مرارة في فمي من زيت الخروع الذي كانت أمي تجبرني على شربه عندما كنت مريضاً. وتذكرت ما قاله أبي عن كون زيت الخروع مراً ولكنه مفيد، وكذلك جوع الفقراء ووجبتهم الواحدة، كان الأمر فيه تشابه حقيقي، ولكن بفارق أن زيت الخروع كان مفيداً لي و أنا الذي أتجرعه، أما بالنسبة إلى جوع الفقراء، فقد كانوا يتجرعونه هم، ولكنني أنا، وأبي، نحن وأمثالنا وأصدقاؤنا ومعارفنا، من يستفيد من ذلك كله..

شعرت بالرعب وطلبت المغفرة من الآلهة المقدسة وأنا أتخيلها بوجهين، وجه حنون ورحيم ويخصنا نحن، ووجه (حكيم) يقرر أن على الفقراء أن ياكلوا وجبة واحدة من أجل ألا يمس ذلك وجباتنا الثلاث وما بينها..

قال لي والدي لاحقاً ألا أفكر كثيراً بالأمر، ونصحني بالصلاة لكي أطرد تلك الوساوس خوفاً من أن تعاقبنا الآلهة وتاخذ نعمتها منا، أكثر من ذلك، فقد جلب لنا سيوفاً خشبية كي نلهو بها أنا واخوتي، وقال لي إن ذلك سيكون كفيلاً بإلهائي عن وساوسي.. ونسيانها..



لم أنس بالضبط.. وما إن مللت من اللعب بالسيوف حتى عاودتني الوساوس.. بل وزادت، وصرت أرى الآلهة المقدسة كما لونها بوجهين دوماً، وجه رحيم وعطوف ووجه بشع و قاسٍ، وكنت انهض من نومي مرعوباً وأنا أتخيل أن الوجه القاسي سيلتفت لي أيضاً وينالني من قسوته شيء.

اتبعت نصيحة والدي: الصلاة للآلهة كي تغفر لي وتنقذني من تلك الوساوس.. لكن كلما جثوت على ركبتي لأصلي لها، عدت لأتخيل ذلك الوجه القاسي..

بطريقة ما، صرت أعتبر الآلهة المقدسة هي آلهتنا نحن الأثرياء فقط، آلهة كبار القوم من التجار وأصحاب

المزارع الكبيرة، آلهة الكهنة وجيراننا ممن يسكنون البيوت التي تشبه بيوتنا حتى وإن كنت لا أعرف من أين يجلبون أموالهم..

كان خماسي الآلهة المقدسة هو آلهة من يملكون الأموال فقط..

هكذا فهمت الأمر..

وتساءلت: هل هذا هو السبب في أنني لم أر أم صابر تصلي للآلهة، ولا مرة واحدة؟..



"السيدات المحترمات لا يأكلن هكذا يا تفاهة" قالت غلاظة بكل ما تمتلك من قدرة على النظر باشمئزاز..

ضحكت تفاهة ضحكتها المعتادة العالية: "لست آكل يا غلاظة.. إنني أعلك".. فتحت فمها وأخرجت شيئاً ممضوغاً منه بينما كانت السيدات ينظرن إلى ما أخرجته من فمها باهتمام: "إنها علكة... وقد جلبتها أخت زوجي من مدينة الرجل الأبيض وقد قالت إنها لا تؤكل، بل

تمضغ فقط، ونستمر في المضغ إلى أن يمتص كل طعمها" قالت تفاهة بمنتهى الفخر، وأخرجت علبة ملونة من حقيبتها وهي تريها للسيدات. وأكملت: "تقول أخت زوجي إن كل السيدات هناك يقضين الوقت في مضغ العلكة. تقول أخت زوجي إن الأمر عادي جداً هناك، بل إنه يعطي ما يسمونه (بريستيج)".

"بريستيج؟ الكلمة تبدو سيئة، والسيدات المحترمات لا يقلن كلمات سيئة كهذه" قالت غلاظة بالوتيرة نفسها.

"البريستيج!" قالت نميمة:"كان عندي (بريستيج) ثم أعرته لسيدة لن أخبركن اسمها إلا إذا أصررتم على ذلك، وقد ادَّعت أنه وقع من يدها وانكسر"..

"أي بريستيج هذا الذي وقع وانكسر يا نميمة؟ (البريستيج) وعلى ذمة أخت زوجي هو مظَهر راق تظهر به السيدات هناك في مدينة الرجل الأبيض، إنه أن تكوني في أحسن حالاتك وتعبري عن أرقى ما في داخلك، بحيث يعبر مظهرك عن شيء يسمونه (الشخصية)، وكل ذلك على ذمة أخت زوجي".

"ذمة أخت زوجك ليست على ما يرام يا عزيزتي. اسأليني أنا عنها!" قالت نميمة..

"أي مظهر راق هذا الذي تتحدثين عنه يا تفاهة؟" قالت غلاظة: "البريستيج كلمة سيئة، وأنت تبدين كالجمل وهو يجتر طعامه عندما تعلكين".

"لا تنكري يا غلاظة! إنك تغارين مني لأني أبدو مثل السيدات الرائعات في بلاد الخارج" قالت وهي تتعمد أن يكون صوت علكتها مسموعاً.

"اليوم تضعين هذا الشيء في فمك وغداً تنزعين غطاء رأسك، مثلهن تماماً" قالت غلاظة..

"ماذا؟ لا تقوليها يا غلاظة! هل ينزعن أغطية الرأس هناك؟" قالت أمي..

"ينزعنها؟! إنهن لا يرتدينها أصلاً، يمشين حاسرات الرأس في الشارع وفي كل مكان" قالت نميمة بتلذذ..

"حقاً؟ تعنين أن هناك سيدات محترمات ويفعلن هذا؟" قالت أمي..

"نعم محترمات جداً" قالت تفاهة وهي تعلك، "تقول

أخت زوجي إنهن محترمات جداً وإن هذه الأمور لا علاقة لها بالاحترام هناك.. بل على العكس، إنهم لا يحترمون من لا تمشي على (الموضة) "..

قالت نميمة: "نزع غطاء الرأس أقل ما يفعلنه هناك.. لا أقول إنني أدافع عما يفعلنه.. لكني عرفت أنهن أيضاً.." وخفضت صوتها وأشارت لهن أن يقتربن منها، فامتدت الرؤوس واتجهت الآذان إلى ما تقوله، وسرعان ما تعالت الضحكات وارتفعت أيديهن لتكتمها بعد إفلاتها..

توقفت السيدة غلاظة عن الضحك وقالت بجدية: "السيدات المحترمات لا يفعلن هنا". ثم قالت: "ولا يتحدثن عن هذا أيضاً".. وحدجت السيدة تفاهة بنظرة أشد وأعادت بإصرار " وأيضاً لا يعلكن!"..

قالت نميمة: " صحيح، هل سمعتن ما أعلنه السيد نوح مؤخراً؟...يقول إنه سيفتح مدرسة جديدة، هنا في الحي أو الحي المجاور على الأغلب".

"ألم تكن مدرسته مجانية وللفقراء وفي حي الأراذل؟" قالت أمي كأنها تحاول أن تتذكر كما لو أنها لم تذهب إليه هناك..

"نعم! إنه مخدوع بهؤلاء الفقراء، لا يدري أنهم متى ما شبعوا وتعلموا بدؤوا بإثارة المشاكل" قالت غلاظة.

"لا أعرف ما الذي يمكنه أن يفعله هنا إذا نقل مدرسته، أولادنا كلهم في مدارس خاصة ولا يحتاجون إلى (تعليم مجاني)" قالت أمي..

"لا بد أنه أفلس وأغلق ويريد أن يتكسب هنا" قالت غلاظة "لكني لن أرسل أولادي لمدرسته بكل الأحوال".

"لم يغلق مدرسته.. إنه يفتح فرعاً جديداً هنا فحسب" قالت السيدة نميمة.

"لكن أولادنا لا يحتاجون إلى التعليم. إنهم متعلمون أساساً" قالت والدتي باستغراب..

"سمعت أنه يقول إنه لن يعلمهم ما يتعلمونه في المدارس، بل شيئاً آخر.. لم أعرف بالضبط ما هو" قالت نميمة.

"سمعت هذا أيضاً، قال إنه يريد أن يعلمهم الحياة الحقيقية.." قالت تفاهة وهي تفخم كلماتها.. تضحك بصوت عالٍ ساخرة..

"الحياة الحقيقية؟ أنا أعرف كل شيء عن الحياة، اسألوني أنا عنها" قالت نميمة.

"ماذا يقصد بالحياة؟.. وهل تحتاج الحياة إلى مدرسة؟ كم هو ممل! لولا أني أعرف كم هي كريهة زوجته لقلت إنها مسكينة على زواجها منه" قالت غلاظة.

"على العكس" قالت أمي بحدة غير معتادة "إنه رجل محترم وهي لا تستحقه على الإطلاق" ثم خففت صوتها "على الأقل مما سمعته عنها".

"إنها سيدة سليطة اللسان ولا ينجو أحد منها" قالت غلاظة وهي تستهول الأمر.

"وهي نمّامة أيضاً، تخرج من بيت وتدخل لآخر، وتنقل الأخبار، كم أكره هذا!"قالت السيدة نميمة بمنتهى الجدية...

"لقد تزوجته من أجل ماله، هكذا يقولون".. قالت أمي..

"ماله؟ هل لديه مال أصلاً؟ بيتهم عادي جداً، وشاهدته أكثر من مرة بملابس عادية " قالت تفاهة..

"بالتاكيد نوح كان ثرياً جداً، ورث الأموال والأراضي من والده الذي كان يقال إنه كان واحداً من أكبر تجار وملاك الأراضي في المدينة، لكنه يحب تبذير أمواله هنا وهناك، وقد تصورت زوجته أنها ستغيره لكنها فشلت، واليوم لم يعد يملك أكثر من قطعة أرض صغيرة وبيته هذا" قالت نميمة..

"نوح ليس مبذراً حسب علمي، إنه يوزع أمواله على الفقراء ليساعدهم، وكانت امرأته تعرف ذلك جيداً عندما تزوجته" قالت أمي مدافعة..

"لم افهم أبداً هذا، ما علاقته بالفقراء لكي يوزع أمواله عليهم، هل كانوا من أهله؟ هل نصّبه أحد مسؤولاً عنهم؟" قالت غلاظة بحدة..

"ليس الكل غليظون يا غلاظة!" قالت أمي..

"ماذا ربح هو من هذا كله؟ لا شيء سوى وجع الرأس.. وزوجته التي تنتقل من بيت لآخر وهي تحكي عنه وعن حظها السيئ"..

"إذا كانت هناك امرأة محظوظة فهي زوجته.. تزوجت رجلاً لديه أخلاق ومحترم.. لكنها لا تستحق ذلك"..

"زوجة نوح محظوظة؟ بم؟ بحياة الكفاف التي تعيشها مع رجل كان يمتلك نصف المدينة ووزعها على الأراذل الذين يقضي وقته معهم؟" قالت نميمة..

"المال ليس كل شيء في الحياة" قالت أمي بإصرار..

"بالتأكيد!" قالت تفاهة "المال ليس كل شيء في الحياة، هناك الجمال والبريستيج والملابس الجميلة والأقمشة الزاهية والعطور الحديثة. المال وحده لا شيء من دون هذه الأشياء يا عزيزتي".



"انس الأمر!" صاحت بي أمي ولم أكن قد أكملت جملتي..

"لكن يا أمي.." حاولت أن أقول...

"انس الأمر" صرخت بصوت أعلى..

"دعيني أكمل يا أمي"..

"أعرف ما تريده يا نور، أنت تريد أن تدخل هذه المدرسة الجديدة، وأقول لك انسَ الأمر" قالت أمي بوضوح..

"لكنك أنت يا أمي من أخذتني إليه أول مرة"..

"انس تلك المرة أيضاً، ولا تأت على سيرتها أمام والدك" قالت وهي تمسكني بعنف "أخذتك لأني تصورت أنه سيعطينا دواء لحالتك، لكن ليس أن تكون طالباً عنده في المدرسة"..

"لم لا؟ ألم تمدحيه في مجلسك صباح اليوم؟"..

تلعثمت أمي وبدا عليها الارتباك "قلت لك مئة مرة ألَّا تحاول الجلوس معنا طويلاً أو التلصص علينا، مدحته لأغيظ غلاظة لا اكثر.."

"أمي.. قولي لي لِمَ لا تريدينني أن أذهب إلى مدرسة السيد نوح"..

"قلت لك انس الأمر، والدك لن يقبل مهما حاولت"..

"والدي لا يرفض لي طلباً"..

"ليس عندما يتعلق الأمر بالسيد نوح، كن على ثقة من ذلك"..



مساءً وعندما تناول طعام العشاء، وبعد أن صلى والدي للآلهة المقدسة وكررنا الصلوات من بعده، قلت له: "أبي، هل أستطيع أن أحضر بضعة دروس في المدرسة الجديدة التي ستفتتح الأسبوع المقبل.. بدؤوا بتسجيل الأسماء، وهي مجانية.. ويقولون عنها إنها مدرسة مختلفة"..

لاحظت وجوم والدي، ولاحظت أيضاً أن أمي سكتت وهي تراقب رد فعله، ابتلع أبي ريقه وقال: "هل تقصد مدرسة هذا الرجل الذي يسمونه نوحاً؟..".

تجاهلت عبارة "هذا الرجل" مع وضوح موقف أبي ضمناً، وتظاهرت أني لا أعرف اسم الرجل..

قلت: "لست واثقاً.. ربما.. لا أعرف من هو مديرها بعد".

قال بحزم: "انسَ الأمر! "

ثم نهض من المائدة قبل أن ينهي طعامه وأشار لأمي أن تتبعه..

سمعت صوت شجارهما قادماً من غرفتهما.. سمعته يقول لها: "أنت السبب، كان يجب أن أعرف أن ذلك

سيحدث" وسمعتها تبكي وتستعطفه وتقسم له أن لا شيء حدث..

لم أفهم شيئاً من كل ذلك، لم اتخذ أبي هذا الموقف من المدرسة ومن نوح.. ولم يقول لأمي إنها هي السبب؟ هل علم أنها أخذتني إلى نوح؟ هل أخبرته هي؟.. ولماذا أصلاً يبدو لي أنه يكره نوحاً.. تذكرت تحذيرات أمي المستمرة ألّا آتي بسيرة نوح.. وبدا لي الأمر كله غامضاً جداً.. لكني واثق أن أبي قال، إن نوحاً يسب آلهة السد العظيمة...



بعد أيام سمعت من والدي أن رجال المدينة قد قرروا الاجتماع لمناقشة ما يجب عمله بشأن نوح، كنت مقتنعاً الآن بصواب موقف أبي ووالدتي من نوح، إذا كان حقاً يكره الآلهة ويسبها كما قال أبي، وإن كنت لا أزال لا أفهم بعض التفاصيل، لِمَ اتهم والدي أمي بأنها هي السبب في كل ذلك؟.. كان هناك شيء غامض لم أجد له حلاً..

طلبت من والدي أن أصحبه إلى الاجتماع، فبدا عليه

الفرح لأنني صرت "أكبر" حتى لو لم يبد علي ذلك.

عندما دخلت المجلس لاحظت هياج الرجال وغضبهم. كان السيد (جشع) أكثرهم هياجاً، وكان يلقي بخطبة عند دخولنا..

"إن آلهتكم أيها السادة تطلب منكم التدخل لوضع حدٍّ لهذا الصابئ.. المدعو نوحاً.. لقد تمادى عندما لاحظ صبرها عليه، والآن جاء دورنا نحن لنوقفه عند حده ونكون حراس آلهتنا..".

قال السيد إمّعة: "نعم، نعم، صحيح..".

"إنها آلهتكم أيها السادة، الآلهة التي تسهر على حمايتكم وعلى رزقكم، فكيف تتركون هذا الصابئ يسبها ويسيء لها حتى يبني مكاناً لسبها في عقر دياركم؟"..

وافقه السيد إمّعة: "صحيح.. كيف؟..".

"لقد كان السيد نوح طول هذه المدّة يسب الآلهة في تلك الأماكن القذرة الموحلة، في الأراذل وغيرها، ولهذا لم نكن نهتم، لكن الآن اتضح أن تركه يفعل

ما يريد هناك لم يكن هو الحل الأمثل. لقد تمادى، وها هو ذا الآن يريد أن يفتتح معبداً ليسب الآلهة في وسط المدينة" أكمل السيد محتكر وقد تهيج صوته..

قلت لوالدي بصوت منخفض، "عجباً؟.. هل يريد السيد نوح أن يفتتح معبداً أم مدرسة؟.." لكن والدي أشار إلي أن أصمت..

"ألم تلاحظوا كيف قلَّ منسوب مياه النهر؟.. ألم تلاحظوا كيف قلت الأمطار؟.. ألم تلاحظوا كيف أن الغلة تقل كل سنة؟ والتجارة تبور أكثر فأكثر؟ هل يستغرب أحد منكم ذلك؟ ألم نحذركم أن الآلهة تصبر ولكنها سرعان ما تغضب؟"..

قال السيد إمّعة وهو يهز رأسه، "نعم، بالتأكيد". وعلا صوت الرجال مؤيدين مطالبين بإيقاف نوح عند حده..

"فليبق بدعوته هناك بين الأوباش والأراذل.. أما أن يأتي هنا ويسمم أفكار أولادنا فلا مجال للسكوت على هذا. حرمة السد وآلهته تأبى علينا أن نسمح له بهذا" وعلت الأصوات مرة أخرى مستحسنة..

"علينا أن نمنعه".. "علينا أن نهدم معبده."..."نحرق تلك المدرسة المزعومة" كانوا يقولون..

لاحظت أن السيد جشعاً، والسيد محتكراً هما أكثر الناس حماساً وهياجاً ضد نوح ودفاعاً عن الآلهة، مع أنهما الأقل تديناً وتردداً على المعبد من بين الجميع، ولاحظت أن أبي - الأكثر تديناً منهما - لم يهتج ولم يتحمس ولم يصرخ إلا بعد أن ألقيا خطبتهما.. كان ذلك غريباً ومثيراً للشك عندي..

استقر رأي الجميع على إحراق مدرسة السيد نوح، ولكن بعد أن يكمل بناءها، وذلك من أجل تلقينه درساً عبر خسارته كل أمواله التي أنفقها على تعمير البناء..



في الموعد المقرر تجمع الناس وبدؤوا برمي شعل النار على المدرسة.. كان نوح موجوداً أيضاً، ووددت أن أذهب قريباً من كل ذلك.. لكن أمي منعتني وصعدت بي إلى السطح.. هناك كان يمكننا أن نشاهد من علو ما كان يدور غير بعيد عنا.. كان نوح واقفاً أمام

مدرسته وهي تحترق.. لم يكن معه سوى ابنه الذي يلازمه في كل مكان تقريباً..

سمعت أمي تتمتم وتقول: "كيف يحتمل قلبه أن يرى تعبه وهو يحرق".. وخيل إلي أني رأيت دمعة على خديها مسحتها بسرعة وهي تنظر إلى نوح من بعيد.. كان واقفاً بهدوء.. يتأمل بحزن.. لكن لم يكن منهاراً كما فعل والدي مرة حين هاجم قطاع الطريق قافلته ونهبوها.. كان حزيناً ومتماسكاً..

قالت والدتي: "لن يكف أبداً نوح هذا.."

"لن يكف عماذا؟"..

"عن محاولاته لتغيير العالم" قالت بعد صمت طويل..

"هل حاول قبلها؟"..

"نعم، دائماً.. منذ أن كنت صغيرة في سنك وأصغر"..

"منذ أن كنت أصغر مني؟ تصورت أن نوحاً كان صغيراً آنذاك.. تصورت أنه في مثل سنك أو أكبر قليلاً"..

"لا.. نوح دوماً هكذا.. لم نرَه إلا هكذا.. لم يتغير.. لا نعرف له بالضبط سناً معيناً، كما لو أنه توقف عن النمو عند هذا السن"..

فجأة صارت فكرة نوح الذي لا يشيخ أبداً شديدة الجاذبية والسحر.. إنه بطريقة ما مثلي، انا توقفت عن النمو قبل أن اكبر، و هو توقف في الوقت المناسب..

"نوح لا يكبر إذن؟ "..

"لا أحد يعرف بالضبط. كل ما نعرفه أننا وعينا الدنيا وتفتحت أعيننا ونوح أمامنا.. كبرنا وبقي هو شاباً.. لم يهرم.. والأهم من ذلك أنه لم يتغير.. لا يزال يحاول"..

"وهل كان يخفق دائماً؟ هل كانوا يحبطون له ما يفعله دوماً؟"..

"نعم.. كما ترى الآن.. أحرقوا له مدرسته وقبلها منعوه من توزيع أمواله على الأراذل.. ومرة ألّبوا عليه الأراذل أنفسهم وكادوا يقتلونه.. واتهموه بالشعوذة عدة مرات.. وحاكموه مرة بتهمة الخيانة لمصلحة دولة أخرى، لكنه لا يكف أبداً.." قالت أمي التي تتامل النار وهي تلتهم المدرسة باكملها..

"ربما لأنه يتحدث عن الآلهة بسوء؟ لذلك فالتوفيق لم يصبه؟" قلت بتردد.

"ربما.. وربما لأن إلهه يريد أن يمتحنه، أن يثبت له أن الأمر صعب" قالت بصوت خفيض.

"إلهه؟ نوح له إله؟" غمغمت مع نفسي..كانت هذه معلومة جديدة بالنسبة إلي.

"طبعاً، وهو الذي يمده بهذه القوة، هو الذي يجعله يتمسك بحلمه، يجعله يقاوم كل الضغوط، بينما يضعف آخرون، ويكفون عن المحاولة، يتخلون عن أحلامهم من أول ضربة، ويتركون كل ما حلموا به، وكل ما تصوروا أنهم سيستطيعون عمله.." قالت هذا بصوت متهدج.. وخيل إلي أني رأيتها وهي تمسح دمعة هبطت من عينها، تأكدت أنها كانت تبكي في الظلام عندما قالت بصوت حاولت أن تجعله طبيعياً: "يجب أن أذهب للنوم.. لا تتأخر أنت أيضاً.."

وحيداً بقيت على السطح، أتأمل النار وهي تلتهم ما كان سيكون مدرسة نوح.. بالتدريج انفض الزحام عن الحريق.. وبقي نوح وحده، مع تلك النار..

فكرت أني لو كنت مكانه ما كنت سأبقى للحظة واحدة وأنا أرى النار تلتهم ما عملت من أجله بجهد.. لكنه لم يهرب.. انصرف الجميع بعد أن ضجروا من الاحتفال باحتراق مدرسة من يسب آلهتهم، أما هو فقد بقي كما لو أنه يواجه النار..

مضى الوقت.. خبت النار قليلاً.. رأيت نوحاً وابنه يجمعان الحطب.. وكان نوح يهذب الحطب بيديه.. بقيت أنتظر ماذا سيفعل.. رأيته يجمع الخشب في رزم متراصة.. ويشعل رأس كل رزمة.. ويضعها واحدة على جنبات الطريق.. لم أفهم أولاً ماذا يريد أن يفعل.. شيئاً فشيئاً.. ومع استمرار عمله.. رأيت ماذا كان يفعل.. لقد كان ينير الطريق العام.. كان يأخذ من النار التي أحرقت مدرسته، ليضيء الطريق الرئيسي في المدينة..

فهمت ما قالته أمي من أنه لن يكف أبداً نوح هذا..



قال النورس للأفق: هذه المرة كنت خائفاً فعلاً من أنه سينكسر..

قال الأفق: كل مرة تقول ذلك..

قال النورس: نعم صحيح.. كل مرة أكون خائفاً فعلاً.. وكل مرة يثبت لي أنه أقوى..

قال الأفق: إنه مختلف عن الآخرين.. طالما أثبتوا لنا أن مخاوفنا كانت في محلها.. طالما انكسروا من أول مرة..

قال النورس: لاحظ أنه لم يهرب.. واجه النار واستطاع أن يأخذ منها شعلة..

قال الأفق: نعم.. لقد جعل من هزيمته وسيلة أخرى للانتصار.. لم يُضِعْ وقته في وضع خطة أخرى.. لم يمر بفترة نقاهة لتلتئم فيها جراحه..

قال النورس: ربما الجروح لا تلتئم إلا هكذا.. بالعمل؟..

قال الأفق: نعم.. يبدو ذلك.. وأتمنى أن يسرع.. فلقد سئمت الانتظار..

قال الأفق: لا تستعجل! أحياناً يكون التعجل سبباً في الانكسار.. ومن ثمَّ في اليأس..



كانت هذه هي أول مرة تحكي أمي هكذا عن نوح.. وعرفت عدة أشياء مهمة عنه دفعة واحدة..

عرفت أنه، بطريقة ما، "مصاب" بحالتي نفسها، واستغربت لأن أحداً لم يقل عن ذلك شيئاً، ربما لأنه توقف عند سن الشباب فإن ذلك يعتبر (نقطة) في مصلحته، أي إنه سيظل شاباً، أما أنا فقد توقفت عند الطفولة، وهذا يعني أني لن أصير رجلاً ولذلك فإنها (نقطة) ضدي..

عرفت أيضاً أنه لم ينكسر أبداً - كما قالت أمي - وأنه كان يحاول دوماً أن يفعل شيئاً.. وعرفت - وهذا الأهم-: أن له إلهه.. إنه لا يسب الآلهة فحسب، لكن له إله خاص به إذن!

لكن إله واحد؟.. كيف يكفي إله واحد؟..كيف يمكن لإله واحد أن يعوض كل ذلك الحشد من الآلهة المقدسة الموجودة في المعبد؟.. كيف يمكن لشخص في عقل السيد نوح أن يتجاهل ذلك؟..

وعرفت أيضاً أن أمي تملك تعاطفاً خفياً مع نوح.. تعاطفاً تحاول أن تخفيه لكنه كان جلياً في تلك

الدمعة التي مسحتها بسرعة.. مع أنها حاولت منعي مراراً من الذهاب إليه، وبإصرار - إلا أن ثمة شيئاً ما، في موقفها، يدل أن باطنها غير ما تظهره.

تذكرت ما قالته أم صابر، أن أسأل أمي. تذكرت ما قاله والدي عندما تشاجر مع أمي في غرفتها..

كان هناك شيء ما في كل ذلك.. لم أعرفه بعد.. لكني سأفعل حتماً..



٣

عادت السيدة تفاهة من رحلتها إلى مدينة الرجل الأبيض.. لم تذهب إلى بيتها عند وصولها، بل توجهت فوراً إلى منزلنا، حيث كان موعد الاستقبال الأسبوعي لأمي.. ووجدت السيدة تفاهة ذلك فرصة لاستعراض ما تسوقته في رحلتها، ووضعته في ثمان حقائب، وزعتها في عربتين..

كانت السيدة تفاهة قد قضت أسبوعين بناء على دعوة وجهتها لها أخت زوجها.. دخلت المجلس وحقائبها تسبقها، كدلالة على أنها لم تضع وقتها هناك، وأنها لن تضيعه هنا، ستعرض ما جلبت معها فوراً..

كانت السيدة تفاهة ترتدي قبعة غريبة الطراز فوق غطاء رأسها التقليدي.. وبعد عاصفة من القبلات

والأشواق الحارة، التفتت تفاهة إلى السيدة غلاظة.. "أعرف يا غلاظة ما تودين قوله، ستقولين إن السيدات المحترمات لا يلبسن هكذا"..

قالت السيدة غلاظة فوراً: "بالتأكيد.. السيدات المحترمات لا يبدون كالزرافات هكذا.. "

ردت تفاهة: "على العكس، السيدات المتقدمات، مثلي، يلبسن هكذا، والسيدات المتقدمات، محترمات طبعاً.."

قالت السيدة نميمة: "السيدات (المتقدمات)، ماذا يعني هنا يا تفاهة؟".

قالت تفاهة: "السيدات المتقدمات هن اللواتي يلبس على الموضة"..

قالت غلاظة:" الموضة؟ ألفاظك لم تعد محترمة أبداً يا تفاهة.. ماذا تعني هذه الكلمة؟" و التفتت بسرعة للسيدات و هي تقول محذرة:" ولا تكررنها يا سيدات قبل أن تتأكدن من سلامتها.."

انطلقت السيدة تفاهة تشرح لهن معنى الموضة وكيف أن السيدات المتقدمات يغيرن ملابسهن كل

ستة أشهر أو سنة على الأكثر.. وأن الألوان والطرز كله يتغير.. وأن كل المحال والمتاجر تبدل الثياب على الواجهات، وشرحت لهن معنى الواجهات، والدمى الكبيرة التي يسمونها (مانيكان) التي ترتدي هذه الثياب.

قالت غلاظة: "هل تقصدين أنهن لا يحتفظن بثيابهن أكثر من سنة؟"

أكدت تفاهة ذلك.. قالت: "إن النسوة اللواتي يلبسن هناك ما هو أقدم من سنتين أو ثلاث سنوات يعتبرن (متخلفات).."

"وما معنى متخلفات؟" سألت والدتي..

"التخلف هو عكس التقدم يا عزيزتي، وهو بالضبط ما تعشن أنتن فيه، وما كنت أعيش أنا فيه قبل أن أذهب إلى هناك.. إنه أن تلبسي ما لبسته جدتك وتأكلي ما أكلته"..

"وهل الطعام أيضاً يتغير عندهم مثل الملابس؟" قالت غلاظة باشمئزاز تخفي به فضولها.

وانطلقت تفاهة تشرح لهن عن الطعام هناك وكيف أنه لذيذ وملآن بنكهات مختلفة، وكيف أنه لا يستغرق

وقتاً طويلاً في الإعداد، وأن "النسوة المتقدمات" هناك لا يقضين وقتهن في المطبخ - كما تفعل النسوة هنا - بل يقضينه في التسوق، أو في غرفة النوم..

"كنت دوماً تقولين يا نميمة إن أخت زوجي تبالغ.. وربما تقولين عني الشيء ذاته.. لكن أقول لكنَّ أن ما نقلته لي أخت زوجي لا يعدّ شيئاً أمام ما رأيته".. قالت تفاهة بثقة.. وانطلقت تخبرهن كيف أنها اكتشفت أنها لم تكن تعرف شيئاً عن الحياة حقاً.. بل إنها لم تكن تعرف أي شيء عن أي شيء..

تحدثت عن مشروب مليء بالغاز أثار دهشة حتى السيدة غلاظة، ووعدتهن أن "تسعى" لهن في قنينة يتقاسمنها فيما بينهن بشرط ألا يخبرن السيدة فهيمة لأن القنينة الواحدة لن تكفي كل هذا العدد.. تحدثت لهن عن قشطة جامدة طعمها لذيذ جداً يسمونها الآيس كريم، وعن شطيرة دائرية من اللحم القوي "ستتقزز الواحدة منكن لو شاهدتها، لكن طعمها لذيذ جداً، ومع الوقت، ولأن كل المتقدمين هناك يأكلونها، سيصير حتى شكلها شهياً".. وتحدثت لهن عن لعبة

راقية جداً "يلعبها حتى المتقدمون بقياسهم هناك، أي متقدمو المتقدمين"، ووصفت لهم اللعبة فعلقت غلاظة أنها لعبة سخيفة "أرض خضراء وكرات في ثقوب؟ ومضارب كالعصي؟ أي شيء أكثر إثارة للضجر من هذا؟"..

"لا تستطعن أن تتخيلن شعوري وقد رجعت، أشعر أني كنت أعيش في الجنة.. أو في حلم جميل.. والآن عدت إلى مدينتنا الكئيبة.. لا أدري أكنت سأتحمل الحياة هنا، لهذا فقد جلبت كل ما يمكن حمله لأحاول التأقلم مع الحياة هنا من جديد". وأشارت إلى الحقائب التي وضعها خدمها في وسط الصالة بناء على طلبها، "وفي النهاية لم أستطع أن أجلب إلا أشياء بسيطة جداً، غيض من فيض كما يقولون هنا، وتسوق بسيط كما يسمونه هناك"..

بدأت السيدة تفاهة بفتح حقائبها بمساعدة بقية السيدات.. كان "التسوق البسيط" قد تمخض عن ستة عشر قميصاً للنوم، وتسعة عشر زوجاً من الأحذية، وتسعة أثواب للسهرة، وعشرين ثوباً للصبحيات "وشرحت

الفرق الدقيق بين الأمرين، حيث إن السيدات المتقدمات لا يرتدين في الصباح ما يرتدينه في المساء" وأربعة أثواب للسباحة - الطراز نفسه بألوان مختلفة - وقالت إنها تنوي تعلم السباحة من الآن فصاعداً ما دامت قد اشترت هذه الأثواب.. وتمخض التسوق البسيط أيضاً عن عشرة أطقم كاملة من مستحضرات التجميل، قالت السيدة تفاهة إنها غير ضارة بالبشرة مثل بقية المساحيق، واستهجنت السيدات هذا التصريح لأنهن كن يجهلن أن المساحيق تضر البشرة أصلاً.. كما كانت هناك حقيبة كاملة مليئة إلى آخرها بالحلي الصناعية التي ادعت أن قيمتها أكبر بكثير من الحلي والأساور الذهبية التي تلبسها النسوة في مدينتنا.

كان هناك حقيبة أخرى لقوارير العطر، وأخرى لملابس الأولاد، وأخيراً جاء دور الهدايا التي أكدت السيدة تفاهة عبرها كم افتقدت صديقاتها، قارورة عطر صغيرة جداً بحجم الأصبع الصغير لأمي - وقد أكدت لها أن ثمنها يزيد عن حجم برميل كبير من العطر المحلي - وقارورة أكبر قليلاً للسيدة غلاظة قالت السيدة تفاهة إنها مزيلة للتعرق، "ولذا هي لك خصيصاً

يا غلاظة" مع ابتسامة تخفي خبثها.. أما السيدة نميمة فقد جلبت لها جورباً من النايلون "يساعد في تخفيف الوزن، فقد تذكرت أن وزنك قد زاد مؤخراً عزيزتي".

تذكرت السيدة تفاهة أن عليها أن تستعرض حقائب (التسوق السريع) أمام بقية سيدات الحي، وقريبات زوجها، وتمنت على أمي أن تنظم جلسات جماعية للسيدات كي لا تضطر لفتح الحقائب أكثر من مرة "يجب أن تعرف جميع السيدات معنى الحياة الحقيقية".

وبينما خرجت السيدة تفاهة، وحقائبها التسع، وخرجت السيدات لتوديعها، كان هناك نوح، ومعه ابنه ومجموعة من تلامذته، ينظفون الشارع..

"ما هذا؟" قالت السيدة تفاهة وهي تشير إلى نوح: "هل...؟" وأشارت بيديها إلى رأسها علامة الجنون.

ضحكت السيدات وقالت السيدة نميمة بسرعة: "فاتك الأمر يا تفاهة.. أسبوعان والمدينة كلها ليس لها إلا الحديث عن هذا الأمر. رجل محترم و(ابن أصول) وثري وينظف الشارع".

"على ذكر النظافة، لا يمكن أن تتخيلن نظافة الشوارع هناك، بحثت طويلاً عن مجرد ورقة واحدة على الأرض فلم أجد. ماذا أقول؟ تقدم! مهما فعلنا فلن نصبح مثلهم".

أما نوح، فقد كان يقوم فعلاً بتنظيف الشارع، مع أنه لم يكن يريد أن يصبح "مثلهم".



فعلاً، لم يكن هناك حديث في المدينة طوال الأسبوعين الماضيين إلا ما فعله نوح.

ربما لم يكن هذا حديثاً بالضبط، كان الضحك أكثر من الحديث، فما إن رأى الناس السيد نوحاً وهو يقوم بجمع القمامة المتناثرة في الشوارع حتى ضجّوا بالضحك والاستهزاء والسخرية. ذلك أن هذا العمل كان خاصاً بالرعاع من الأراذل ولم يسبق لأحد من أشراف القوم، ومن ينتمي إلى أسرة من كبار أسر المدينة، أن عمل بذلك، أو حتى فكر بالأمر، بدأ الأمر بنوح عندما قام بتنظيف أنقاض مدرسته التي انهارت تماماً بفعل الحريق، وبعدها نظف الشارع المجاور من الآثار التي

خلفها حمل أنقاض المدرسة، وهكذا شيئاً فشيئاً، صار نوح يدور على الشوارع والأزقة، يجمع ما يرميه الآخرون.

في البدء كان الاستغراب من قبل الناس، قالوا: إن الرجل جُنّ تماماً، وإن الآلهة مسته بسوء. ثم أخذوا يسخرون منه ويضحكون. ثم صاروا - أسوأ من كل هذا - يتعمدون رمي القمامة أكثر من قبل، بل إنهم صاروا يتعمدون نثرها يميناً وشمالاً بعد أن كانوا على الأقل يجمعونها في أكوام، صار كل همهم، أن يزيدوا من عمل نوح بنثرها على الأرض تماماً، بل إن بعض الأطفال، بتشجيع من أمهاتهم، صاروا يلقون بالقمامة عليه.. أو أمامه.. كما أن بعض الأمهات أصبحن ينادينه لحمل القمامة من البيت، ويعطونه عملة نقدية (إكراماً) له، كما يفعلون مع الخدم والأراذل..

كنت أراقب نوحاً خلال ذلك كله. لم يكن سعيداً بما يفعله القوم طبعاً. لكنه لم يكفَّ. لم يتراجع، ظل ينظف الشوارع وحيداً، رفض أن يساعده أولئك الذين كان يدرسهم من الأراذل، قال لهم إن هذا بالضبط هو ما لا يريده، لأن الأراذل هم تقليدياً من

كانوا ينظفون الشوارع ويجمعون القمامة، لكنه يريد أن يقوم (هو) - ابن الحسب والنسب بذلك - ليكون في ذلك درس لكل سكان المدينة.

كنت أراه كل صباح وهو يقوم بمهمته، كان يتقدم بكل هيبة، بل بكل أبهة، ويجمع النفايات، لم يكن يفعل ذلك بذل أو خنوع كما كان الأراذل يفعلون، بل كان يفعل ذلك بفخر، كنت تستطيع أن ترى الضوء في عينيه وهو يفعل ذلك، كما لو أنه في كل مرة ينحني ليجمع (الأذى) من الطريق - يتقلد وساماً رفيعاً من الدرجة الأولى..

في مرة رأيت بعض صبيان الحي ينثرون أمامه كل ما جمعه قبل ثوان، ثم يتغامزون ويتلامزون عليه، وينادونه بأبشع الصفات، ثم يولون وهم يضحكون.

لم أستطع أبداً إلا أن أتعاطف معه. بالذات أتعاطف مع إصراره وهيبته وشموخه حتى وهو يلم الأذى. بيني وبين نفسي، فصلت هذا كله عن موقفه المخجل من الآلهة. قلت إنه كان سيئاً مع الآلهة، عسى أن تهديه، لكنه كان جيداً في أمر التنظيف، وكان الناس من

جهتهم جيدين مع الآلهة ولكنهم سيئون مع القمامة!

تقدمت إليه وكان لا يزال يعيد جمع ما نثره الصبيان. أخذت أجمع معه بصمت. نظر إلي - وأحسست بعينيه تخترقانني كما لو كانتا تبثا شعاعين، قال لي مع ابتسامة: "ما اسمك؟" قلت: "نور". نظر إلي كأنه يتذكر:" (نور)..؟ ألست أنت الطفل الذي لا يكبر؟.."

هززت رأسي وقد غمرني شعور سري بالفرح لأنه تذكرني. أحسست أني صرت مهماً لمجرد أنه تذكرني!..

قال:" اسمع يا نور، إننا لا نكبر حقاً إلا عندما نضيف شيئاً إلى ما حولنا، إلى هذا العالم.. اذهب الآن وقس طولك، وسترى أنك قد كبرت قليلاً.. وتذكّر دوماً: أننا لا نكبر حقاً إلا بقدر ما نضيف، بقدر ما نقدم من إضافة.."

لست متأكداً من أني فهمت ما قاله، لكني ركضت إلى البيت لأتأكد مما تصورت أني فهمته، ذهبت إلى ذلك الحائط الذي وضعت فيه أمي علامتي الثابتة، والذي طالما انهمرت دموعها بالقرب منه،

أمسكت بالقلم فوق راسي، ووقفت بجانب النقطة. وضعت علامة تثبت طولي وأغمضت عيني والتفت، بقيت مغمضاً قليلاً، كان قلبي يدق بشدة، خفت أن أفتح عيني وأجد أن كل ذلك كان سراباً، وأن هذا الأمل الذي تولد بكلمات نوح منذ دقائق ليس أكثر من وهم حاله حال كل التعاويذ والتمائم التي جلبتها لي أمي من دجالي المدينة.

فتحت عيني وقلبي يدق مثل الطبل. لم أصدق. لقد كان هناك فرق فعلاً.. فرق صغير جداً. ولكن، ها هو ذا، إنه فرق، أعدت الأمر، مرة ومرتين وثلاثاً، خشيت أن أكون قد أخطأت وضع القلم، وجعلته أعلى قليلاً، لكن لا، في كل مرة، كان هناك ذاك الفرق، لقد صدق نوح.

هبطت مسرعاً إلى باحة المنزل حيث كانت أمي تلاعب أخي الصغير. كنت ألهث من شدة الترقب والإثارة وأنا أناديها، في اللحظة التي اقتربت منها تذكرت أن إخباري لها بالأمر قد يجعلني أعاقب، التحدث مع السيد نوح في هذا الوقت، بل ومساعدته في

جمع القمامة، لن يمر دون عقاب، ودون منعي من تكرار الأمر، بل وربما منعي من الخروج من المنزل.

"ما بك يا نور؟" قالت أمي باستغراب لوقفتي الصامتة، بعد ركضي الصاخب.

قلت لها: لا شيء.. لا شيء.. وقفلت منصرفاً.

ليلتها بقيت أحاول استرجاع كلمات السيد نوح كلمة كلمة. غفوت وأنا أرددها. وحلمت بها تتردد في أذني وأرددها أنا، ويغمرني الضوء، مرة بعد مرة.



قال النورس للأفق: ألا تظن أنه تمادى قليلاً هذه المرة؟

قال الأفق: من تقصد؟ نوح؟

ردّ النورس: بالتأكيد، مَن غيره؟

قال الأفق: لا أبداً، أرى أنه فعل الصواب.

النورس: لكن تنظيف الشوارع! كان يدعو إلى الله الواحد، إلى نبذ الشرك.. والآن ينظف الشوارع!.

الأفق: ربما يجب أن تكون الأمور هكذا، يجب أن تبدأ من هنا، الأفكار الكبيرة يجب أن تنزل إلى الشارع!..

النورس: تنزل إلى الشارع فهمناها! ولكن أن تنظفه؟!.

قال الأفق: بالتأكيد، التغيير يجب ألا يكون مجرد فكرة في الرؤوس، بل أن يكون حقيقة يراها الناس، هنا يمكن أخيراً لنوح أن ينجح...ثم لا تنس، إنه مجرد حلم.وليس على النائم حرج!



في الأيام التالية، صرت أترقب مرور السيد نوح، وهو ينظف الشارع، ما إن أراه حتى أهب لمساعدته وأنا أتلفت يميناً وشمالاً خوفاً من أن يراني أحد من إخوتي أو من الجيران أو من الخدم، ويخبرَ أمي وأبي ويصيرَ منعي من الخروج أمراً محتماً.

بعد كل مرة كنت فيها أساعد السيد نوحاً، كنت أركض لأقيس طولي.. ومرة بعد مرة، كنت أصاب بخيبة الأمل. لم يكن هناك من زيادة. كنت أسأل نفسي: هل أخطأت في المرة الأولى وكانت زيادتي

مجرد وهم؟.. هل أخطأت في شيء آخر؟.. صرت أستعيد كل كلمة قالها نوح لعلي أجد فيها الجواب عن أسئلتي، لعلي أفهم لم زاد طولي في المرة الأولى ولم يحدث شيء في المرات التالية.

جاءني الجواب من السيد نوح نفسه، ودون أن أسأله حتى، خرجت ذات ظهيرة عندما مرّ كعادته، وأسرعت ألمّ ما يرميه الجيران والمارة وأنا أتلفت حولي خوفاً من أن يراني أحد.

عندما اقتربت منه، ثبت عينيه علي وقال لي: "نور.. أنت تنظف الشارع وأنت مرتبك، تتلفت خجلاً مما تفعل.. أو خوفاً مما تفعل".

هززت رأسي موافقاً، كان ذلك واضحاً جداً وما كنت أخفيه أصلاً.

"عليك ألا تخجل مما تفعله. عليك أن تكون فخوراً به، عليك أن تحبه" قال وهو يخترقني بنظراته.

"هل تعرف معنى كلمة شموخ؟" سألني، هززت رأسي بالنفي. كنت سمعت بالكلمة ولكني لا أعرف معناها تحديداً..

"أن تكون شامخاً يعني أن يكون رأسك مرفوعاً حتى عندما تنحني للأرض لتزيل عنها أذى الآخرين وإهمالهم".

سكت كما لو كان يدعني أفكر بما يقول ثم تابع "بالضبط كما يكون النسر شامخاً دوماً حتى وهو يهبط ليلتقط من الأرض طعاماً لصغاره". سكت أيضاً بينما كنت أحاول أن أتخيل ما يقصده.

"هل تعرف كيف تظهر حبك لما تفعله حتى وأنت تنحني لتلتقط شيئاً مهملاً من الأرض؟" لم ينتظر ردي. "تذكر كيف تنحني أمك لتغطيك وأنت نائم؟ إنها تنحني، لكنها تفعل ذلك بحب. عليك أن تفعل ذلك مثلها، أن تفعله بحب.."

أذكر ذلك. أذكر تلك النظرة على وجه أمي، أكثر من مرة أتظاهر بالنوم عندما تأتي لتتأكد من ذلك، ومن بين جفوني أرى تلك النظرة، وأشعر بالحب من قبلتها على خدي حين تغطيني..

"هل رأيت منظر الفلاحين في الحصاد؟ كيف ينحنون وظهورهم مشدودة وصدورهم مرفوعة، مع أنهم ينحنون بالمناجل من أجل أن يقطعوا السنابل؟ إنهم

فرحون بالحصاد، فرحون أن تعبهم سيثمر أخيراً، كذلك أنت، يجب أن تمتلك هذا الإحساس نفسه، عليك أن تفكر أن ما تفعله هو حصاد بطريقة ما.. ولو تاخر"..

قال ذلك ومضى، ورأيت خلفه خيطاً مضيئاً من الكلمات التي قالها.

ثم توقف والتفت، وقال لي: "نور.. تذكر انك يجب ألا تفعل ذلك لكي يزداد طولك.. بل لكي تكبر.. لأننا لا نكبر إلا عندما نفعل الشيء الصحيح"..

ومضى..



سجلت كلماته في ذاكرتي. حاولت أن أجسم ذلك النسر الشامخ، وتلك الأم المحبة، وذلك الفلاح المشدود.. حاولت أن أكون فخوراً بما أفعله حين أنظف الشارع.. تدربت على ذلك كما لو كنت أتدرب على إيقاع جديد، أتذكر كل كلمة قالها السيد نوح وأنا أتدرب على ما قاله..

لكي أتمكن من ذلك، أخذت أبتعد عن بيتنا، كي أفلت من نظرات الأهل والجيران. كنت خائفاً في البداية مع ذلك كله.. وكنت خجلاً أيضاً من أني أفعل ما يفعله الأراذل وعمال التنظيف.

بالتدريج، تخلصت من ذلك. قل اهتمامي بنظرات الآخرين وتعليقاتهم، صرت أقل خجلاً وخوفاً وانزعاجاً، مع الوقت، بدأت أتلمس طريقي نحو ما قال. لم يعد الأمر أني لم أبقَ خجولاً ولا خائفاً فحسب، بل صرت بالتدريج، أشعر بالفخر، قليلاً في البداية، لكن زاد ذلك بالتدريج.

تسرب لي شعور غريب بالمتعة، بالفرح، وأنا أنظف الشارع، لا أعرف كيف؟ لكنه حدث.. فجاة وجدت نفسي أحلق كالنسر في الأعالي عندما أنحني لألتقط الأذى من الطريق، أفعله كما لو كنت أحصد شيئاً رائعاً، لا أعرفه.. لكني كنت أنتظره منذ زمن طويل..



وكان جزءٌ من الحصاد هناك على ذلك الحائط، كنت أجد (الفرق) هناك، في زيادة طفيفة نعم، لكنها كانت هناك، تتراكم بالتدريج..

لقد كنت أكبر، بالضبط كما قال السيد نوح، كان شيء ما يضاف إليّ، إلى طولي، كلما قمت بالشيء الصواب من أجل هذا العالم..



مع الوقت لاحظت أني لم أكن وحدي..

كان هناك آخرون، صبيان وشباب.. أولاد وبنات.. في مثل سني، أكبر وأصغر..

كنت أرى بعضهم يلتفت خوفاً وخجلاً كما كنت في البداية.. وأرى آخرين يحلقون مثلي، وآخرين يحلقون أعلى مني.. كنت أرى بعضهم متحمساً كما الفلاحين وقت الحصاد.. والبعض يحاول أن يكون كذلك..

مع الوقت صار بيننا ألفة، صرنا نمشي في مجاميع.. نتبادل السلام، وأحياناً ما هو أكثر بقليل.. صرنا نشعر بأننا أقوى عندما نسير في مجموعة، صار الأولاد الذين كانوا يرموننا بالحجارة والقمامة ويسبوننا عندما كنا منفردين، لا يجرؤون على ذلك عندما نكون جميعاً.

صرنا نمشي في أسراب، بل نحلق في أسراب، بالضبط كما يعمل الفلاحون في الحقل وقت الحصاد.



وذات مرة جلسنا معاً في الظل، لنرتاح قليلاً، وراودني ذلك السؤال الذي كان يتردد في ذهني، عن الشيء الذي يجمعنا معاً، إن كنت أنا أحتاج إلى أن أكبر، فما الذي يحتاجه هؤلاء.. وهم الذين لا يبدو أنهم يشكون من أي مشكلة في ذلك..

سألتهم إن كانت مشاركتهم في هذا كله تزيد من طولهم كما يفعل معي. لم يبد أنهم فهموا سؤالي.. قال لي أحدهم: "هل تقصد أن نموك كإنسان يزيد عندما تفعل ذلك؟"

لم أفهم ذلك.. ما معنى ‹نموك كإنسان›. قلت ببساطة:" ما معنى النمو كإنسان؟.."

قال آخر:" معناه أن مهارتك فيما خلقت من أجله تزداد، كلما قمت بما خلقت من أجله."

لم أفهم. سكتّ. بدا عليّ أني لم أفهم. لذلك أكمل

قائلاً: "خذ النجار مثالاً.. وظيفته هي النجارة.. كلما زاد عمله، زادت خبرته ومهارته في النجارة، صحيح؟".

هززت رأسي، كان هذا واضحاً جداً.

"الشيء نفسه يحدث مع الإنسان، كلما أدى ما عليه ازدادت مهارته في وظيفته. ولذلك فإن عملنا في تنظيف الشوارع، ينمي مهارتنا في وظيفتنا الأصلية، التي خلقنا من أجلها".

"وظيفتنا الأصلية التي خلقنا من أجلها؟" غمغمت مع نفسي. كان هذا كله جديداً عليّ، لم أفهمه، كنت مستمتعاً بما أفعل، لكني كنت أريد فقط أن أكبر. سألتهم: "ما هي الوظيفة التي خلقنا من أجلها؟".

تبادلوا جميعاً النظرات، كأنهم يستغربون سؤالي..

هز أحدهم كتفيه "ماذا تعني؟.. إصلاح العالم طبعاً".



٤

"أيتها السيدات.. أنتن تدخلن الآن عالم (الكولا لولا)".

قالت السيدة تفاهة بفخر شديد. وهي تقدم ثلاث قنان من المشروب الغازي للسيدات..

"حصلت لكم عليها بصعوبة شديدة، كنت قد وعدتكن بقنينة واحدة لكن جميعاً. لكن كي تعرفن مقامكن العالي عندي، لقد أرسلت إلى أخت زوجي كي تبعث لكل واحدة منكن قنينة".

سألتها أمي باستغراب وهي تمسك القنينة بيدها وترمقها بحذر: "ماذا قلت اسمها؟". قالت السيدة تفاهة: "(الكولا لولا).." وهي تشدد على كل حرف بفخر شديد..

"اسم قبيح ولون مقرف، لو أن صرصاراً مات فيه لما ميزناه لأن لونه بالضبط مثل لون الصراصير" قالت السيدة غلاظة بسرعة وكأنها قد أعدت هذه الجملة منذ زمن.

"هل أنت متأكدة يا تفاهة من الطعم؟ فقد قالت لي سيدة لا أريد أن أذكر اسمها - إلا إذا أصررتن - وكانت قد ذاقت طعم هذا التراب، إنها أصيبت بتلبك في معدتها لشهرين من رشفة صغيرة" قالت السيدة نميمة.

"أنا واثقة من أن حياتكن ستتغير.. ستدخلن عالم الكولا لولا. عالم الحياة المعاصرة. عالم الانتعاش والثقة بالنفس. ستشعرن يا سيداتي أنكن في العالم الآخر، في الجنة".. قالت تفاهة وهي تفتح القناني الثلاث بالفتّاحة الخاصة التي كتب عليها أيضاً (كولا لولا).

قالت غلاظة على الفور أيضاً: "يبدو أن مبالغات أخت زوجك التي تتحدث نميمة عنها قد انتقلت إليك".

"ستعرفين عندما تذوقين" قالت تفاهة بثقة. "واحد، اثنان، ثلاثة" وأشارت لهن بالبدء.

ارتشفن جميعاً في وقت واحد، كانت السيدة غلاظة أول المعبرات عن رأيها، إذ حاولت إخراج ما ارتشفته وهي تسعل "معك حق يا تفاهة، أشعر أني فعلاً ذهبتُ إلى العالم الآخر ولكن إلى الجحيم وليس إلى الجنة كما قلت".

ثم وضعت القنينة بقوة على الطاولة وقالت بغضب:

"ما هذا يا تفاهة؟ هل هذا ما صدّعت رؤوسنا به. أقسم بكل الآلهة التي تحرس السد أن دواء المعدة الذي كانت أمي - رحمتها الآلهة - تشربه في مرضها الأخير كان أفضل منه ألف مرة".

قالت السيدة نميمة: "اسأليني أنا عن الطعوم. هذا خل تفاح لم يتم تخلله والتفاح أصلاً غير ناضج".

قالت أمي: "إنه يشبه الدواء فعلاً يا تفاهة. وسكره لاذع جداً".

ابتسمت السيدة تفاهة بثقة وهي تقول:" أرأيتن؟ لم تحببن (الكولا لولا) الذي هو شراب الناس المتقدمين والمدن المتقدمة، ذلك أن أذواقكن تنتمي إلى العالم

المتخلف، لقد حذرتني السيدة حيزبونة من ذلك. لكني لم أتوقع أنكن بهذا التخلف"

"ومن هي حيزبونة هذه؟" قالت غلاظة.

"أوه، هل نسيت أن أحدثكن عنها؟ إنها سيدة في منتهى الأناقة والجمال أيضاً. باختصار في منتهى التقدم.. وهي تشغل منصباً مهماً جداً في شركة مهمة هناك، إنها مسؤولة علاقات عامة أو شيء كهذا" قالت تفاهة.

استغربت السيدات من وجود هذه الوظيفة، وعلقت غلاظة أن السيدات المحترمات لا يشغلن منصباً كهذا. أما السيدة نميمة فقد أكدت أن العلاقات العامة هوايتها الأساسية، وأنها كانت دوماً تود لو أنها صارت (مسؤولة علاقات عامة) مثل السيدة حيزبونة.

قالت السيدة تفاهة إن السيدة حيزبونة تعمل في شركة كبيرة جداً تنوي أن تروج للمشروب (كولا لولا) في المدينة، وهو جزء من حملة أكبر لتقديم المدينة، وترويج سلع أخرى متقدمة.

"ولا في ألف سنة يا تفاهة، لن يشتري أحدٌ في مدينتنا دواء المعدة هذا الذي يشبه حساء الصراصير"

قالت غلاظة باشمنزاز " قولي للحيزبونة وللدجال الذي تشتغل عنده أنهم سيخسرون أموالهم".

قالت السيدة تفاهة: "إن حيزبونة مدركة لذلك، ولذا فقد قالت شيئاً عن إعادة صياغة ذوق أهل المدينة **قبل بيع (الكولا لولا)..**"

تساءلت السيدات عن معنى هذا. فهزت السيدة تفاهة كتفيها وهي تنفي علمها بالأمر.

"لم أفهم الأمر عندما قالته لي. لكني تذكرته الآن عندما لاحظت أن أذواقكن تحتاج فعلاً إلى تغيير...كل شيء فيكم بحاجة إلى تغيير".



تجري الأمور أحياناً بشكل غريب. أذهب لالتقاط النفايات من الشارع، فأجد نفسي أحاول إصلاح العالم.. هكذا بدا الأمر لي للوهلة الأولى عندما جلست مع أولئك الصبية الذين كانوا مثلي، ينظفون الشوارع..

كل صباح، كنت أخرج مع أولئك الصبيان والبنات، كنا مثل أسراب طيور تحلق في المدينة، نلتقط

النفايات، ونتلقى الإهانات.. ولم نعد نحفل كثيراً بها. لن أقول إن الإهانات قلت مع الوقت، بل لعلها زادت، لكن عددنا زاد أيضاً، وعدد الذين لا يهينوننا زاد أيضاً. حدّة الإهانات زادت، ربما أكثر من عدد من يفعلونها، وكانوا في غالبيتهم من الكهنة ورجال الدين وأتباعهم، ومعهم صبية صغار كانوا يتلهون بمضايقتنا..

كان معظم الصبية يحملون في أيديهم ألواحاً خشبية كتلك التي تستعمل في المدارس. وكانوا يسجلون ملاحظاتهم أحياناً، ويقرؤون من الألواح بصوت عال في أحيان أخرى..

قال لنا واحد من الصبيان، الذي كان يبدو أكبر من عمره - كما لو أنه عكس ما أنا عليه بالضبط - أي كما لو أنه يتقدم في نموه، مثلما وقفت أنا.. قال لنا: "إن النفايات التي يلقيها الناس، والإهانات التي يرمونها علينا، متشابهة، بطريقة ما، إنها بكل الأحوال أذى، سواء كان ما يرميه الآخرون، أو ما يقولونه..

وهذا (الأذى) الذي يجب أن نزيحه من الطريق إذا كنا نريد أن نمضي فيه قُدماً."

لم أفهم، كان لديهم جميعاً تقريباً هذه الصفة: إنهم يفهمون أنني لم أفهم، ربما كان ذلك بسبب مني، أي إن عدم الفهم يبدو علي! أو إن لديهم وسائل خاصة لاستشعار ذلك..

قال لي صبي آخر: "نور، لو كنت تمشي في طريق، وكان مليئاً بالعوائق، أحجار، أشواك، أثاث محطم.. هل كنت تستطيع أن تواصل المشي إذا لم تزحْ هذه العوائق؟".

قلت: "لا طبعاً، علي أن أزيحها."

قال لي: "ما يرميه الآخرون من نفايات، وما يقولونه من إهانات يرمونها علينا، هو جزء من هذه العوائق، إنه الأذى الذي علينا أن نميطه إذا أردنا أن نواصل الطريق.."

كان ذلك أوضح بكثير، أحسست أن هذا الكلام يسد شيئاً ما في داخلي، شيئاً كنت أفتقده دون أن أعرفه.

"لكن ذلك ليس كل شيء"، قال الصبي الأكبر سناً، ذو الرجولة المبكرة كما كانت أمي تسمي

الأولاد الذين تنمو شواربهم قبل الأوان **"هذه هي الخطوة الأولى فقط**، ربما تكون الخطوة الأسهل. فالطريق الذي علينا أن نمشي فيه قد يحتاج إلى رصف أحياناً، إلى تعبيد في أحيان أخرى، وقد يحتاج إلى تصحيح الاتجاه".

كان ذلك جديداً كله. وجميلاً. قلت كمن يحلم: "من قال لكم هذا؟ "سمعت الرد كما لو أنهم قالوه جميعاً: نوح..

سألت مرة أخرى: "وإلى أين يذهب هذا الطريق؟.."

تبادلوا النظرات فيما بينهم، وقال ذو الرجولة المبكرة: "إصلاح العالم، طبعاً.."



ليلتها لم أنم.

لقد خرجت لأساعد الرجل في تنظيف الطريق. فإذا بالطريق أطول مما تصورت. تسللت ليلتها من المنزل، قطعت مسافة كبيرة في الظلمة، وصلت إلى بيت صاحبي ذي الرجولة المبكرة. كنت أعرف نافذة غرفته فالقيت بحجر، ثم بآخر كي يستيقظ. رأيته

يفتح النافذة وينظر، أشرت له، هبط مسرعاً وكان بيده قنديل مضيء. سألني: ماذا؟ هل حصل شيء؟..

قلت له بسرعة و لهفة: قلت إن الخطوة الأقل هي إماطة الأذى، فما الخطوة الأعلى؟..

سكت ونظر إلي ملياً، ثم قال كلمات بدت كما لو أنها لم تصدر من فمه، بل من القنديل المضيء..

قال: إنها خطوة «لا إله إلا الله»..

ولا أذكر أي شيء بعدها، لست واثقاً من أني فهمت ما قال.. لكن فجاة غمرني النور.. هل كان القنديل، أم كانت الكلمات.. لا أدري.. كل ما أذكره أني شعرت باستغراب شديد، لقد خرجت لأساعد نوحاً وها أنا ذا الآن مع هذه الجملة: "لا إله إلا الله"..



قال النورس للأفق: هل شعرت بما شعرت به أنا؟..

رد الأفق: نعم..

قال النورس: لقد اقشعر جلدي عندما قالها.

قال الأفق: نعم، وأنا أيضاً.

قال النورس: مع أن كثيرين يقولونها أحياناً، لكني لا أشعر بشيء..

قال الأفق: ربما هو الصدق..

قال النورس: ربما..

قال الأفق: وربما لأنها كانت كالضوء في قلب العتمة.

قال النورس: ماذا تقول؟.. إنها دوماً الضوء في قلب العتمة، المشكلة في الناس الذين لا يحاولون أن يروا هذا الضوء...

قال الأفق: نعم.. هذه المرة إنه الضوء الذي رآه بعض هؤلاء الناس..



صحا الناس ذات يوم في مدينتنا ليجدوا منطاداً ضخماً - غريب الشكل - جاثماً على المدينة..

لم يكن الناس عندنا قد رأوا منطاداً من قبل. لم يكونوا يعرفون أصلاً المنطاد. كل ما رأوه كان شيئاً غريباً معلقاً في الفضاء، أثار رعبهم ونشر البلبلة بين الناس.

انتشر الخبر مع انتشار الضياء الأول. صاح الناطور صيحة رعب وسقط مغشياً عليه، وظنت زوجته أنه مات فأسرعت تندب حظها وتولول ثم أخذت تندب حظها أكثر عندما اكتشفت أنه قد أغمي عليه فقط.

رأى الكهنة المنطاد ودب بينهم الذعر، وانتشر الخبر بسرعة بين الناس، فصعد الأطفال إلى سطوح المنازل مع تحذيرات الأمهات، هرع بعض الناس إلى الهيكل ليروا ما سيقول الكهنة بشأن الأمر، فأسرع كبير الكهنة إلى إصدار بيان يؤكد فيه أن هذه هي عقوبة من الآلهة لأن القرابين لم تكن كافية في الموسم السابق، ولأن عدد مرتادي الهيكل في الصلوات يقل باستمرار. هرب بعض الأهالي ممن كان المنطاد فوق منازلهم بالضبط، وتجمع رجال الشرطة مع أسلحتهم قرب الساحة الرئيسية، لكنهم سرعان ما فروا عندما تحرك المنطاد قليلاً باتجاههم بفعل الهواء وقد تصوروا أنه جاء لالتهامهم كما لو كان وحش الأساطير، توقع آخرون أن النار ستخرج من بطن المنطاد كما التنين. وكان الكهنة يصلون سراً لأن يحدث شيء كهذا - ولو كان محدوداً - من أجل أن تظهر

مصداقية لبيانهم، ويؤدي ذلك إلى زيادة القرابين والنذور، أما الصلوات العلنية، التي حرص الكهنة على أدائها أمام الناس، فقد كانت تحرص على استعطاف الآلهة وتوسلها بأن تكف هذا العذاب القادم من السماء..

وهكذا كانت خطة الكهنة تصب الأمر في الحالتين لمصلحتهم، إن حدث العذاب، التفت الكهنة إلى الجماهير وقالوا:" ألم نقل لكم؟ لقد حذرناكم، كنتم سيئين مع الآلهة ولم تنصتوا لنا، وها هي ذي تعاقبكم." وإن لم يحدث، سيلتفت الكهنة أيضاً إلى الناس ويقولون لهم:" ألم نقل لكم؟ لولا أنكم صليتم وتضرعتم بعدما أخبرناكم أن تفعلوا لما كان العذاب ذهب.. عليكم أن تكونوا مطيعين أكثر من الآن فصاعداً..".

بكل الأحوال لم يحدث شيء، ومع الظهيرة، ومع سكون المنطاد، خف الرعب، وحل محله الفضول، وأخذ الناس يتجمعون بشكل أقرب شيئاً فشيئاً حول المنطاد، وقبل حلول المساء كان الأطفال يتسابقون في محاولة إصابة المنطاد بما تيسر لهم من أحجار، وقد استطاع

أحدهم أن يصيبه بسهم كاد أن يخرقه.. مع الليل كان معظم من هجر منازله من السكان الذين جثم المنطاد فوق بيوتهم مباشرة قد عاد إلى المنزل.



صباح اليوم الثاني، وجد سكان المدينة منطاداً ثانياً، شبيهاً تماماً بالأول، وقد اصطف بجنب المنطاد الأول، دبّ الرعب والبلبلة مجدداً.. دعا الكهنة للصلاة من جديد، باعتبار أن إنذار الآلهة لا يزال قائماً، لكن كل ذلك كان أقل مما حدث في اليوم الأول..

في اليوم الثالث، وجدَ السكان، منطاداً ثالثاً قرب المنطادين الأولين، وتقريباً لم يذهب أحد لأداء الصلاة، وبدأت مسابقات الأولاد مبكراً.. وبدأ الرهان بين الشباب إذا كان اليوم الرابع سيشهد منطاداً رابعاً أم لا، وأين سيقف عدد المناطيد.. أم أن سماء المدينة ستمتلئ بالمناطيد.. وأخذت السيدات صاحبات المنازل الواقعة تحت المنطاد يعقدن جلساتهن الصباحية تحت ظلال المناطيد..

في اليوم الرابع تراكض المتراهنون فور بزوغ الفجر، وفعلاً لم يخيب المنطاد الرابع أملهم فقد كان

موجوداً هناك، لكن انتبه واحد من شباب المدينة، في هذا اليوم بالذات، إلى وجود فرق طفيف في كل منطاد من المناطيد الأربعة.. ذلك أن كل منطاد كان يحمل حرفاً مختلفاً عن المنطاد الآخر.. وصار واضحاً أن المناطيد بتتابعها تتهجى رسالة معينة لم تتضح معالمها بالضبط.

عادت الإثارة إلى الناس من جديد مع القليل من الرعب، وبدأت التوقعات والمراهنات على فحوى رسالة السماء تلك. والتزم الكهنة جانب الصمت، ولم يعد كبارهم يظهرون في الصلوات، بل كلفوا صغار مساعديهم والمتدربين الجدد بالظهور بدلاً عنهم لكي يتجنبوا الإجابة عن أي سؤال من الناس بخصوص أحرف المنطاد. لم تكن استراتيجية رجال الدين التي تعتمد على أن الأمر السلبي عقوبة، والأمر الإيجابي نعمة من الآلهة ممكنة هنا، ذلك أن أحرف الرسالة قد تكذب الكهنة لاحقاً، لذلك فقد التزموا العزلة والصمت، وتركوا أولئك المساعدين المساكين يتولون الأمر بأنفسهم، وسيتم طبعاً القول إنهم قليلو الخبرة وأخطؤوا..

مع انقضاء الأيام العشرة وتتالي الأحرف، انتشر في المدينة قولٌ دعمه الكهنة بشدة وهو أن هذه الأحرف لا تعني شيئاً ولا يجب الالتفات إليها..

بعد انقضاء أيام أخرى، بدا كما لو أن المناطيد تريد أن تقول شيئاً لم يفهمه معظم من قرأ الرسالة أولاً.. بل إن الجملة عندما جمعت أخيراً زادت من الغموض وأحبطت الترقب والإثارة التي كان الناس قد شعروا بها وهم يريدون أن يتوصلوا لتغير الرسالة.

كانت الأحرف، بعد جمعها تقول هذه العبارة التي بدت كما لو أنها - من فرط غرابتها - بلغة أخرى:

الكولا لولا لولاها لما عرفنا الحياة!!



نام سكان المدينة ورؤوسهم حائرة مرتبكة برسالة المناطيد، توقع بعضهم أن يكون كل ذلك مزحة سمجة، سيتم تفسيرها بمنطاد لاحق، ولذلك هبوا بعد الفجر ليروا المنطاد الحاسم. لكن، وللمرة الأولى منذ نحو الشهر، لم يكن هناك منطاد جديد..

بدلاً من ذلك، ملئت شوارع المدينة، وحيطانها بملصقات ملونة صقيلة لم يكن سكان المدينة قد شاهدوا أي شيء مقارب لها. كانت الملصقات تحمل صوراً لشبان وشابات، معظمهن حاسرات الرأس (يا للهول!) وحتى اللواتي ارتدين غطاء الرأس، كن يبدون حاسرات الرأس أيضاً بطريقة ما، كان كل هؤلاء مبتسمين ويبدون في منتهى السعادة والجمال، وأسنانهم بيضاء لامعة بشكل غريب.. وكانوا جميعاً يحملون قنينة غريبة الشكل في أيديهم..

كل هذه الملصقات حملت مشتركاً واحداً، عبارة (الكولا لولا)، (توج متعتك بالكولا لولا)، (الكولا لولا معنى آخر للحياة)..

ومرة أخرى، لم يفهم معظم الناس ما هي (الكولا لولا).. لكنهم أحبوا الصور، أو أحبوا الناس الذين في الصور.. تساءلوا عن تلك الكولا لولا التي تجعلهم بهذا الجمال والشباب والحيوية، بالذات تجعل ابتسامتهم وأسنانهم بهذا اللمعان، قال البعض إنها إكسير الخلود الذي يروي قصة البحث عنه الكهنة، وقال

آخرون عنه إنه "دواء" يصلح لجميع الأمراض، بينما كان آخرون أكثر واقعية، وأقل توقعاً، عندما قالوا إنه ربما كان مبيضاً للأسنان..

حتى السيدات في مجلس أمي، ومع استثناء السيدة تفاهة التي كانت قد سافرت عندما تم اكتمال أحرف المنطاد، لم تربط واحدة منهن كل ذلك بذلك المشروب الذي قدمته لهن السيدة تفاهة احتفاءً بهن عندما رجعت من مدينة "الرجل الأبيض"، وهو المشروب الذي حاز على إجماعهن الحاسم بأنه مشروب سيئ ولا يمكن إكمال شربه.

ليس الاسم وحده هو الذي لم يدق في أذهان السيدات، بل حتى القنينة في الملصقات، والمنطاد الذي كان على شكل القنينة أساساً، لم يجعلهن يتذكرن تلك القنينة التي جاءت بها السيدة تفاهة والتي يشبه طعم المشروب بداخلها طعم دواء المعدة الذي شربته والدة السيدة غلاظة في مرضها الأخير.. كن قد نسين كل شيء عن الأمر تماماً، ولم يتصورن قط، ولا في الخيال حتى، أن ما فسر على أنه عذاب من الآلهة وشيك

الوقوع، لن يكون سوى المشروب الذي قالت عنه السيدة نميمة إنه محاولة فاشلة لإعداد خل التفاح..

جاء التفسير الأول الصحيح من بعض القادمين من مدينة الرجل الأبيض، قال بعضهم: "إن هذه (الكولا لولا) هي مشروب غازي شديد الرواج هناك"، لم يصدقهم أحد طبعاً، بل وسُخِرَ منهم بشدة لدرجة أسكتتهم، أو حتى أقنعتهم أن الأمر لا يعدو أن يكون تشابهاً في الأسماء. لكن - وبالمصادفة - واحدة من زوجات هؤلاء، كانت تخبر السيدة نميمة عن الدرجة التي وصل إليها عقل زوجها بحيث إنه قال شيئاً كهذا، برق شيء ما في ذهن السيدة نميمة وتذكرت كل شيء، تركت السيدة تتحدث دون أن تنهي جملتها - لم تنتظر حتى لتطمئنها على عقل زوجها - ارتدت عباءتها كيفما كان وذهبت لتخبر السيدات بما عرفته، مرت على بيت كل سيدة على حدة، وأخبرت كل واحدة منهن أنها جاءت إليها أولاً لتخبرها بالنبأ قبل سواها. واجهت السيدة نميمة التي تعد نفسها مصدراً موثوقاً للأخبار معارضة شديدة من الجميع، فحتى السيدات اللواتي ذقن (الكولا لولا) رفضن تماماً الربط مع أنهن أقررن بتشابه

الاسم والشكل. أما السيدات اللواتي لم يذقن الشراب ولم يسمعن به فقد قلن للسيدة نميمة مثل ما قالت تلك السيدة لزوجها.

لم تكل السيدة نميمة ولم تمل من أجل زيادة توكيد وتوثيق ما ذهبت إليه. وتمكنت فعلاً من جمع بعض الخيوط من هنا وهناك، لكن كانت بينها وبين نفسها، تملك شكوكاً حول الأمر كله. كان إصرارها ينبع من عنادها نفسه. كانت تسأل، ما علاقة خل التفاح ذاك بالابتسامة الساحرة والجمال المتدفق من الملصقات؟..



حسمت الأمر - وفي الوقت المناسب - السيدة تفاهة التي عادت من مدينة الرجل الأبيض ومعها اثنتا عشرة حقيبة محملة بما أسمته "التسوق لموسم الربيع"، من أشياء بدت كلها غير ضرورية في نظر كل السيدات اللاتي دارت عليهن مع حقائبها، واعتبرت هي رأيهن يدل أولاً على تخلفهن، وثانياً على غيرة خفية..

أكدت السيدة تفاهة ما قالته السيدة نميمة، من أن الأمر يخص الشراب ذاته الذي قدمته هي شخصياً لهن -

قالت ذلك بفخر شديد - وقالت إنها "تشرفت" بأن تكون أول من جلبته إلى المدينة، وقالت إنها علمت هناك من (أناس مهمين جداً) أن كل تلك المناطيد والملصقات، كانت جزءاً مما يسمونه هناك (حملة دعاية) لتسويق المنتج. وهو (**الكولا لولا**).

لم تفهم السيدات شيئاً من هذا، ولكنهن نقلن ذلك لأزواجهن، الذين استغربوا بدورهم من ذلك في مجالسهم، قال كبير التجار السيد عبد المال، وأيده طبعاً السيد إمَّعة، إن التجار في المدينة يجلبون دوماً أفضل البضائع، ويحققون أعلى الأرباح، بمجرد عرض البضائع في المتاجر دون الحاجة إلى كل هذه الضجة، الاستغراب العام من هذا التفسير من قبل تجار السوق أدى إلى تغليب إنكار هذا التفسير، وإن كان قد صار الآن احتمالاً وارداً أكثر فأكثر، مع تأكيدات السيدة تفاهة أن الأسابيع المقبلة ستشهد مراحل أخرى من الحملة " كما أكدت لي السيدة حيزبونة شخصياً، عندما التقيت بها في سهرة راقية جداً". قالت السيدة تفاهة ذلك وهي تعدل من تسريحتها البارزة من تحت غطاء الرأس، وهي

التسريحة التي جعلتها تبدو كارنب ارتدى قبعة وبرزت أذناه من خلالها.



الأيام التالية أكدت صدق ما قالته السيدة تفاهة. فبينما كانت الملصقات في البداية تشير إلى الكولا لولا دون أن تحدد هذه الكولا لولا، فإن الملصقات اللاحقة كانت تقول بصراحة: "**ترقبوا مشروب الكولا لولا..**" وصار أهل المدينة يترقبون المشروب فعلاً، لم يعد الأمر مرتبطاً في أذهانهم بمشروب سيكون ألذ أو أكثر أو أقل إنعاشاً، **بل ارتبط بطريقة ما بتلك الحيوية والسعادة التي تشع من الوجوه في الملصقات، ارتبط حتى بذلك (العلو) الذي يمثله المنطاد، فصار المشروب، وقبل ان يتذوقوه اصلاً يأخذهم إلى السماوات العُلى، كما تقول واحدة من الملصقات فعلاً.**

خلال ذلك الترقب، بدأت بعض الفتيات بتقليد الفتيات اللواتي تظهر صورهن في الملصقات، فبدأت شعورهن تظهر من تحت غطاء الرأس... بالذات تظهر الغرّة كما في الملصقات، بدأت الابتسامة تتسع لتصير

ضحكة تتكلف الغنج والميوعة بلا سبب، وصارت الفتيات، يمشين وفي وجوههن تقلص في العضلات يتصورنه ابتسامة مشابهة لتلك التي على الملصق، وقالت السيدة غلاظة عندما رأتهن يفعلن كذلك "الصبايا المحترمات لا يفعلن هنا".. مع ذلك فإن واحدة من بناتها.. وبنات أختها أيضاً كن من السباقات في ذلك..

لم يقتصر الأمر على الإناث، فقد حاول الصبيان أيضاً التشبه بأولئك الذين في الملصقات، وقام واحد من أقاربنا بصبغ أسنانه الأمامية كي تبدو لامعة وبيضاء كما في الإعلانات، وانتهى الأمر لاحقاً بقلعها جميعاً. كما انتشرت ظاهرة الوسائد الصغيرة المخفية التي يضعها الشبان في صدورهم تحت الملابس لكي يبدوا "متورمي العضلات" كما الشباب في الملصقات.

لم يعرف أحد وقتها من كان صاحب الفكرة، لكن السيد عبد المال واحد من كبار التجار وأصحاب رؤوس الأموال، قام بجلب الملابس ذاتها التي ظهرت في الملصقات، بأحجام وألوان مختلفة، وجلب قمصاناً زاهية

الألوان لم تظهر في الملصقات لكن كتب عليها عبارة "الكولا لولا"..

لم يحدث في حياة عبد المال المديدة وتجاربه في السوق والتجارة - ولا في حياة أي ممن يعرفهم - أن نفدت بضاعة بهذه السرعة، كان الطلب (خرافياً)، بالضبط. ولم تمض أيام حتى كانت شوارع المدينة تعج بالشباب والشابات وحتى بعض العجائز ممن ارتدوا ذلك القميص الأحمر اللون الذي كتب عليه - بأحرف بيضاء - "الكولا لولا" و صارت شوارع المدينة تبدو كما لو كانت ممراً في مدرسة طلابها يرتدون زيّاً موحداً..

حاول السيد عبد المال، كما حاول آخرون من زملائه التجار جلب المزيد من البضاعة، لكنهم فوجئوا بحواجز تمنعهم من ذلك. قيل للسيد عبد المال إن "الوجبة" التي أخذها كانت مدعومة من السيدة حيزبونة شخصياً. وإنها كانت "بضاعة تجريبية" لجس احتياجات السوق..

قالت السيدة تفاهة للسيدة حيزبونة: "كم شعرت بالحزن عندما وجدت أن قميص الكولا لولا الذي

اشتريته من أكبر أسواق مدينة (الرجل الأبيض) سيكون موجوداً في كل مكان ألتفت إليه في المدينة."

أما السيدة حيزبونة فقد قالت لها إن كل ذلك كان من أجل معرفة كيف تسير الخطة.. وإن ما حدث يدل على أن الخطة تسير حسب المرسوم بل أفضل..



عندما رأيت السيدة حيزبونة للمرة الأولى، خيل إلي أنها ستخرج لسانها وتلسعني، كان فيها شيء غامض يشبه الأفعى. أو حتى يشبه الشيطان إذا تخيلته.

لم تكن قبيحة بالمعنى السائد.. كانت تملك وجهاً لا يمكن أن يقال عنه إنه قبيح، كانت عيناها زرقاوان (علمت لاحقاً أنهما ليستا عينيها ولكنهما عدستان لاصقتان) وكان ذقنها مدبباً قليلاً (علمت أن هذه هي النسخة المعدلة منه بعد عمليات تجميلية)، وكانت زججت حاجبيها ورسمتهما بدقة، لديها شامة كبيرة عند ذقنها، اكتشفت أيضاً أنها اصطناعية، لأنها تنقلت يميناً وشمالاً أكثر من مرة.

كان فيها شيء شرير.. شيء كريه، مع أنها كانت تتصنع اللطف والظرف دوماً، ومع أن أنفها أو فمها لم يكونا كبيرين، وأن بشرتها كانت ملساء وخالية من الشعر، إلا أنها بدت مثل وحش مفترس بالنسبة إلي، وعندما احتضنتني لتقبلني جفلت كمن مسَّ جلداً لزجاً لأفعى سامة.

كانت السيدة حيزبونة قد جاءت لزيارة مجلس والدتي في إطار زيارتها للمدينة، لم يكن ذلك موعد الجلسة، بل تم ترتيب الزيارة بشكل خاص عن طريق السيدة تفاهة التي قالت إن مواعيد السيدة حيزبونة مزدحمة جداً، وقالت ضاحكة أيضاً وقد خفضت صوتها: "إنها ربما أكبر من السيد نوح لكنها تبدو شابة بفضل مساحيق العناية الخاصة التي تستعملها،ولأن كل النسوة هناك، في مدينة الرجل الأبيض لا يكبرن بسبب راحة البال"، متجاهلة تماماً عمليات الشد وإزالة التجاعيد وشفط الدهون التي تتحدث المجالس في مدينة الرجل الأبيض أن حيزبونة قد أجرتها، حتى قيل إنها تبرعت بكمية كبيرة من الدهون لمصنع خاص من أجل استثماره.

عندما جاءت السيدة حيزبونة، كان الجو في المجلس مهيأً تماماً لسطوتها وهيمنتها عبر كل ما قدمته السيدة تفاهة عنها.. لذا فقد بدت كل السيدات بشكل مختلف عن المعتاد. فكانت السيدة غلاظة أكثر رقة، والسيدة نميمة أقل فضولاً، وحتى السيدة تفاهة التي كانت تشيع أنها صديقة مقربة من السيدة حيزبونة، بدت خائفة من حيزبونة ومتملقة لها.

كانت والدتي قد أعدت وليمة عامرة للسيدة حيزبونة للتدليل على كرمها وعلى مقدار احترامها للسيدة حيزبونة، لكن السيدة حيزبونة لم تمس شيئاً من الطعام، مع أن والدتي ألحت، كانت تعتذر كل مرة بحميتها ثم تردف "لقد زاد وزني كثيراً كما تلاحظين" ولم تكن واحدة من السيدات قد لاحظت شيئاً غير الرشاقة الزائدة. أكثر من هذا، أن السيدة حيزبونة كانت قد جلبت معها قنينة ماء خاصة بها ولم تشرب من مائنا، وهو الأمر الذي أثار حنق والدتي مع أن حيزبونة كانت تعلل ذلك بأن معدتها حساسة لأي مياه غير هذا النوع من المياه، قالت والدتي لاحقاً وقد تقمصت دور السيدة غلاظة: "عشنا وشفنا وصار الماء له

أنواع، ألا تستنظفني أنا؟ أنا أنظف منها ومن أمها أيضاً. أراهن أنها كانت تسرح في الشوارع حافية وأنها لم تكن تغتسل إلا في العيد".

في كل الأحوال، حاولت السيدة تفاهة أن تهدئ الأمور، وأكدت السيدة نميمة أن سيدة أخرى - تعتذر عن ذكر اسمها - لديها المعدة الحساسة نفسها.

على العموم، قالت حيزبونة في تلك الجلسة أشياء عديدة بدأت كلها بكلمة "يجب" - وربما كانت كلمة يجب هي أكثر ما تكرر في كلامها - قالت السيدة حيزبونة بصوت حاولت أن تجعله رقيقاً: "**يجب** أن تتغير مدينتكن يا سيدات، إنها رمز للتخلف عن كل شيء"، "**يجب** أن تلحقوا بركب العالم، يجب أن تتغيروا، يجب أن يتغير كل شيء هنا، **ويجب** أن يتغير وضعكن أنتن النساء"..

"ألا تشعرن أنكن الأسوأ؟ ألا تشعرن أنكن في وضع سيئ للغاية؟" قالت السيدة حيزبونة بنبرة استفهام واضحة لم ترد عليها واحدة من السيدات، فأعادت السؤال بنبرة تهديد، وبدا على السيدات أنهن لا يشعرن

بما تقول، فقالت لهن بحدة وبصوت أكثر ارتفاعاً: "يجب أن تشعرن بذلك" جفلت السيدات من تغير لهجة السيدة حيزبونة وسقوط قناع اللطف والرقة ليحل الاكفهرار محله، فاسرعن يؤكدن لها أنهن "سيشعرن" بذلك في أقرب فرصة ممكنة.. وزادت السيدة تفاهة أنها بدأت للتو تشعر بذلك بالفعل، أما السيدة حيزبونة فقد كررت قائلة بأن التغيير يجب أن يحدث، وأن السيدات يجب أن يساهمن فيه ويدفعن أزواجهن للمساهمة فيه: "بعد كل شيء، السيد "ابرهة" سينفق أموالاً طائلة من أجل أن تنعم مدينتكن بالتقدم، ولا بد على الأقل أن نظهر له أن أهل المدينة يستحقون ماله وجهده".



كانت هذه هي المرة الأولى التي يذكر فيها اسم السيد"ابرهة"، وقد تبرعت السيدة تفاهة بعد خروج السيدة حيزبونة بإخبار الجميع عن كل ما تعلمه عنه، إنه ثري جداً، أكثر مما يمكن تخيله - وإنه صاحب الشركة العملاقة التي تعمل فيها السيدة حيزبونة، التي ستأتي بالكولا لولا وكل البضائع الجميلة الأخرى إلى

المدينة. ثم خفضت السيدة تفاهة صوتها: "وإياكن أن تخبرن أحداً، بالذات أنت يا نميمة، لقد أسرت إلي السيدة حيزبونة أنه سيأتي إلى المدينة قريباً جداً، وأنه سيحضر حفل (إطلاق) الكولا لولا".

قالت غلاظة باستهجان: "حفل طلاق؟ هل يحتفلون بالطلاق هناك؟ الناس المحترمون لا يفعلون ذلك"، بينما قالت السيدة نميمة باهتمام: "من تطلق؟.."

قالت تفاهة:" لا فائدة منكن، حفل "إطلاق " يعني حين تطلق السلعة الجديدة، يحتفلون ويرقصون ويسهرون للصباح."

قالت غلاظة: " يحتفلون من أجل سلعة جديدة؟! حتى الطلاق يبدو سبباً أفضل للاحتفال!."



قال النورس للأفق: "أبرهة؟..ما الذي جاء به إلى هنا.. أليس هو صاحب الفيل الذي حاول هدم الكعبة؟"

قال الأفق: "هو بعينه..و لكن.."

قاطعه النورس: "أعرف ماذا ستقول..ستقول إن هذا حلم و ليس على النائم حرج..حفظناها.."

رد الأفق: "هل تصدق أني هذه المرة بالذات لم أكن أريد أن أقول ذلك..بل كنت أريد أن أقول إنه ربما يكون هناك ربط لا نعرفه بين الأحداث.."

قال النورس: "ربط بين الأحداث..؟ كيف؟ أبرهة الذي نعرفه كان أسود اللون.. وهذا الأبرهة قادم من مدينة الرجل الأبيض..فكيف يكون هناك ربط بين الاثنين؟"

قال الأفق: "ربما التشابه يتجاوز لون البشرة إلى العمق..ربما الأمر أكبر..ربما هنا أبرهة رمز لما هو أكثر من شخص (أبرهة)..صاحب الفيل.."

قال النورس: "وهل تعتقد أنه سيكون هنا فيل أيضاً؟"

رد الأفق: "ربما الفيل سيكون شيئاً آخراً... اصبر قليلاً ودعنا نر.."



في الأيام التالية شهدت المدينة مزيداً من الملصقات، تحمل بشارة قرب إطلاق الكولا لولا، وقد سببت كلمة (إطلاق) بعض البلبلة كما حدث عندما استعملتها السيدة تفاهة للمرة الأولى، فراج في المدينة أن الكولا لولا على وشك الطلاق، وأن زوجها يسيء معاملتها، وأنها تستحق كل خير، وعسى أن تجد لها آلهة السد زوجاً أفضل منه.



في أثناء ذلك، كنت لا أزال أخرج مع أولئك الصبيان والبنات، ننظف المدينة، وقد زادت نفاياتها كثيراً منذ أن بدأت حملة الكولا لولا، فالملصقات القديمة كانت ترمى في الأرض، وكان الصغار يلعبون بها وأحياناً يمزقونها.. وكل ذلك كان يزيد من العمل.

لم أعد أتحدث مع الصبيان في أي شيء. كنت قد حملت معي تلك الكلمة التي قالها ذو الرجولة المبكرة عندما كان القنديل في يده، ولم أحدث أحداً بها. لم أحسم موقفي، لم أعرف ماذا أفعل، كنت بحاجة إلى أن أتحدث مع أحد، كنت بحاجة إلى رأس أبي - لأستند

إليه - أو إلى صدر أمي لأبكي عليه.. لكني لم أكن أستطيع، كنت أخاف من مجرد أن أفاتحها فيما سمعت. كان والدي سيغضب طبعاً من أي شيء يمس الآلهة. وكان هو وأمي سيغضبان أيضاً لأن ابنهما - ابن الترف والدلال و الحسب و النسب- كان ينظف الشوارع كما لو كان من الأراذل - كما يسمونهم.

كنت مضطرباً محتاراً، كنت أهرب من كل ذلك إلى النوم، وأرى نفسي في سفينة غارقة، وأحياناً كان يمر بي السيد نوح في الحلم، وعلى كتفه يقف نورس أبيض وديع، ولكنه لا يقول كلمة واحدة... ولا حتى كلمة واحدة.

كنت، بلا شك، منجذباً للسيد نوح، بهيبته وطلته وكلامه الجميل، لكن كان من الصعب جداً أن أترك خلفي كل الآلهة التي تحميني وتعطيني وجبات الطعام الثلاث بينما تعطي آخرين واحدة فقط. لقد كبرت على ذلك، وفي غرفتي حيث أنام كانت هناك نماذج من الآلهة، كنت أصلي دوماً لها، إذا ما داهمني النعاس دون أن أتمكن من النوم، وكانت توفر لي الحرز

والحماية دوماً، فلم أسقط من مرتفع، كما حدث مع واحد من إخوتي، ولم يلدغني عقرب كما حدث مع ابن الجيران، صحيح أنني لم أكبر - كما حدث مع الجميع - إلا أن (وداً) و(سواع) كانا يحرسانني دوماً..

والآن لا أعرف!

صرت أشعر أنهما لم يعودا يهتمان. ولا (يغوث)، ولا (يعوق). (نسر) لم أكن أشعر أنه يهتم بي منذ البداية، لكن ود وسواع، كيف يتركانني في حيرتي هذه، كيف يتركان هذه الجملة "لا إله إلا الله "التي قالها ذو الرجولة المبكرة تتوغل في داخلي؟ كيف يتركانها تفعل ما فعلته بي.. دون أن يتدخلا بطريقة ما؟..

صليت لهما بحرارة، دون جدوى. كانت الجملة عالقة في داخلي، مثل موسى حاد يجرح بلعومي، فلا أستطيع أن أخرجه، ولا أن أبتلعه..

كانت الكلمة هناك، لم أهضمها تماماً، شيء في داخلي كان يقاومها ويرفض الاستسلام لها. ولكني في الوقت نفسه كنت أجدها تبتلعني شيئاً فشيئاً، مثل

تلك الدوامة في النهر التي يتسابق في تجاوزها الصبيان في الصيف، فتغلبهم أحياناً إذا أخطؤوا التقدير.

كنت أحب الآلهة وأصلي لها دوماً، حتى تلك التي لم أشعر أنها تبادلني الحب، لكن الآن أشعر أنها هجرتني جميعاً.. تركتني في هذه الحيرة مع تلك الجملة التي قالها والقنديل في يده..

حاولت أن أستخدم الوقت كي يسكن حيرتي، لكنه زادَها، بالتدريج خفتت صلاتي للآلهة، خف تضرعي لها. لا أدري لماذا، لكني فجأة لم أعد أحدثها، لم أعد أكترث أن أصلي لها لكي تحميني، فجأة صرت أحاول أن أتحاشى النظر إليها، عندما أمر بجانبها، صرت أقوم متثاقلاً للصلاة عندما ينادينا أبي.

وكانت الحيرة تزيد مع ذلك، لقد أيقنت تقريباً أني فقدت إيماني بالآلهة، أو أني على وشك أن أفعل، لكني لم أؤمن بشيء آخر. أولئك الصبيان والبنات الذين كانوا يتعلمون عند السيد نوح قد وجدوا بديلهم. كانوا يؤمنون بما قاله ذو الرجولة المبكرة، تلك الجملة التي أخشى أن أعيدها حتى مع نفسي، خوفاً من أن أختنق بها..

أما أنا فلا. لا يزال في نفسي أشياء من هذا كله.

كان ذلك أصعب، لو أني بقيت أؤمن بآلهتي، أو لو أني صرت أؤمن بما يؤمن به نوح، لكان الأمر أسهل.

اما أن اكون لا هنا، ولا هناك.. فقد كان ذلك اصعب..



قال النورس للأفق: هل رأيتني؟ كنت هناك؟

رد الأفق: أين؟

قال النورس: في الحلم الذي رآه نور..كنت واقفاً على كتف نوح شخصياً..

قال الأفق: ما الذي تقوله..إنه مجرد حلم..وكل هذا مجرد حلم..إنه حلم داخل حلم!

قال النورس: ولكني كنت هناك! على كتف نوح!

قال الأفق: كما لو أنك النورس الأبيض الوحيد في العالم..! دعنا نتابع ما يحدث فلربما يكون لنا دور أكثر من هذا..

٥

كانت أمسية صيفية حارة، ذهبت مع أسرتي إلى البساتين المطلة على النهر، أخذ إخوتي يلعبون ويتشاكسون. كنت غالباً أشاركهم في ذلك، لكن شيئاً ما في النهر شدني، جعلني أذهب إليه..

كان النهر يجري بهدوء، لا يلتفت إلى أحد، لم يهتم إن وقفت على ضفته أو لم أقف. لم يبالِ، كان يسير في طريقه وهو غير مكترث لشيء.

تمنيت لو أستطيع أن أستوقفه قليلاً. أن أسأله: هل يصلي أيضاً لآلهتي.؟ هل يصلي قبل أن ينام لود ولسواع كما كنت أفعل أنا؟..

سألته ذلك السؤال فعلاً، لم يرد، بدا لي أنه لا يبالي ولا حتى بسؤالي، ثم فجأة أدركت سخف كل ذلك،

فجأة أدركت أن النهر لا يمكن أن يصلي لود أو لسواع أو لكل الآلهة الأخرى الموجودة في المعبد.

كان النهر، والجبل، والوادي، أكبر من تلك الآلهة، ولم يكن من الممكن أن يصلوا لتلك الآلهة، لا أدري كيف كان ذلك غائباً عني. لكني فجأة في تلك الأمسية الصيفية الحارة، والعرق يتصبب مني كما لو كان يتفجر من نبع، أدركت أن ذلك مستحيل.

أحسست أنني قطعت تلك الصلة بذلك العالم نهائياً، عالم الآلهة التي يعبدها أبي وأقاربي والتي عبدتها طوال حياتي. وأن عليّ أن أجد عالماً آخرَ لنفسي.. لم يكن في تلك الأمسية الصيفية، غير عالم السيد نوح، ولم يكن هناك سوى أن أذهب إليه، أو الصبيان الذين أعلم أنهم يتعلمون عنده، وأن أسألهم عن ذلك الإله الواحد الذي يقولون أن" لا إله إلا الله.."



لم يكن القنديل في يده هذه المرة. كان جالساً مع رفاقه تحت ضوء القمر، هناك عند السدرة الضخمة، حيث كنت أعرف أنهم يلتقون.

ذهبت إليهم وجلست دون أن أسلم. كنت لا أزال أتصبب عرقاً. نظر إلي ذو الرجولة المبكرة وقال: "كنت أعرف أنك ستأتي".

استفزني ذلك. شعرت أني مكشوف له أكثر مما يجب. شعرت أن حيرتي وارتباكي كلها مكشوفة أمامه كما لو كان يقرأ من لوح مكتوب.

لم أرد، جمعت كل شجاعتي وقلت له بلا مقدمات: "قلت لي تلك الليلة أن لا إله إلا الله".. توقفت عن الكلام. كانت هذه أول مرة أنطق تلك الكلمات بصوت عال. أحسست بطعمها غريباً على لساني، دهشت وأنا أشعر بحمل كبير قد أزيح عني وأنا أقولها. لثوان أحسست كأني أحلق، كان الضوء يتدفق من أنفاسي.. تساءلت إن كانوا قد لاحظوا ذلك أيضاً..

ركز ذو الرجولة المبكرة عينه علي وقال:" نعم.. وماذا؟..".

ابتلعت ريقي وقلت: " ماذا عن بقية الآلهة إذن؟.."

ابتسم وقال: "ماذا عنها؟"

قلت: "أنا الذي أسأل، ماذا عنها؟ ما الذي تفعله إذن إذا كان لا إله إلا الله؟.."

قال لي ببساطة: " لا تفعل شيئاً، لا يمكنها أن تفعل شيئاً، لأنها ببساطة غير موجودة."

"غير موجودة؟" رددت بعده - بنبرة حائرة بين التساؤل والقطع. أما هو فكان حاسماً، ردد مرة أخرى: "نعم، غير موجودة".

لو أن أحداً قال لي ذلك قبل أشهر فقط، لانفجرت ساخطاً على الكافر الصابئ الذي يحاول أن يشكك في الآلهة، بل لو قيل لي إن أحدهم سيقول لي ذلك لفضلت أن ينهار العالم على رأسه قبل ذلك.. لكني ها أنذا أسمعه يقول ببساطة: غير موجودة، وأردد ذلك وأنا أقرب للاستفسار مني إلى الغضب..

قلت:" ماذا كان كل هذا إذن؟ كل ما نشأنا عليه؟ كل ما علمونا إياه؟"

رد وهو يهز كتفيه: "غير موجودة".

"إذن كل هذا كان كذباً؟" قلت دون تحدٍّ، وأنا أتخيل ممحاة ضخمة تمسح كل ما تعلمته في

طفولتي، كل ما لقنني إياه أبي، كل تلك الصلوات التي حفظتها، كل تلك التعليمات التي حفظنا إياها الكهنة.

"نعم.. إنه كذب، هذا النوع أو ذاك من الكذب " قال بثقة و بهدوء.

"ماذا تقصد؟"..

"البعض يكذب لأنه ينقل ما نقله الآخرون له. وكان ما نقله الآخرون كذباً، أو غير حقيقة. البعض يصدق الكذبة ويقولها لآخرين، والبعض يتعمد الكذب، يستغله، يستثمره بأقصى ما يستطيع.."..

" لكن لِم يتعمد أي أحد الكذب في هذا؟.. لِم يكذب أي أحد ليقول إن هذا أو ذاك الإله موجود؟".

"ربما لأنه لو لم يكن موجوداً فإن الكاذب سيفقد قوته.. أو سيفقد الأسباب التي تجعله قوياً".

"ماذا تقصد؟" رددت..

"عندما يقول هؤلاء إن الآلهة ترضى بالظلم، وبالجشع، وبأن يعيش البعض في ترف فاحش وآخرون في فقر مدقع، فإن ذلك سيحكم من سيطرتهم على

الوضع، إذا كانت الآلهة راضية، فهل يستطيع أحد الاعتراض؟"..

فهمت قصده تماماً، تذكرت أولئك الصبيان الذين يأكلون وجبة واحدة من الطعام، وتذكرت تبريرات أبي في شرح ذلك، لكني رددت أيضاً، كما لو كنت أحدث نفسي "ماذا تقصد؟"..

"وآخرون لا يتعمدون ذلك، لكنهم بالتدريج يصدقون وهماً اخترعوه.. ومع الوقت ينقلونه إلى آخرين يأخذونه على أنه حقيقة".

"ماذا تقصد؟"..

"ود، سواع، يغوث، يعوق، ونسر، آلهة يعبدها سكان مدينتنا الآن، إنهم غير موجودين كآلهة، لكنهم كانوا موجودين ذات يوم فعلاً، لكن ليس كآلهة"..

"ماذا تقصد؟"..

"لقد كانوا رجالاً صالحين، تركوا أثراً طيباً في المدينة، أصلحوا الناس، واستطاعوا أن يصلحوا العالم المحيط بهم، وكانوا يدعون إلى الله الواحد الذي لا إله إلا هو.. عندما ماتوا، صنع أتباعهم وتلامذتهم تماثيلَ

تخلدهم كي يبقى ذكرهم.. فعلوا ذلك دلالة على محبتهم واحترامهم.. صاروا يصلون قرب تماثيلهم، كما كانوا يصلون معهم في حياتهم.. مع الوقت، وعندما جاءت أجيال جديدة، صار الناس يصلون لهذه التماثيل.. صاروا يعبدونها.. وصار ود وسواع آلهة، بعد أن كانوا رجالاً صالحين"..

بدا كل شيء واضحاً فجأة، لكن مع ذلك سألته: "ماذا تقصد؟"..

"صار ود وسواع وكل أولئك الرجال الصالحين آلهة يستخدمها أصحاب القوة كي يحافظوا على قوتهم.. صاروا وسيلة للإبقاء على الظلم والفساد في هذا العالم، بعد أن كانوا وسيلة لإصلاحه"..

شيء واحد بقي يحتاج إلى الوضوح. قلت له: **"وما الذي يجعل إله نوح مختلفاً عن ذلك كله؟"**.

هذه المرة سأل هو: "ماذا تقصد؟"..

"أقصد كيف يمكن ألَّا يتحول أيضاً إلى وسيلة لإفساد العالم أو الإبقاء على الظلم فيه، كما حدث مع أولئك الرجال الصالحين؟".

"الله لا يقول لنا أبداً إن العالم مكان جيد..لكن اسألني أنت سؤالاً آخر..قل لي لِم لم يجعله هو أفضل؟"

"لماذا لم يجعله أفضل؟"..سألت بذهول.

"لأنه جعل هذا هو امتحاننا، جعل إصلاح العالم الاختبار الذي علينا أن نجتازه.. الله لا يزيف لنا الواقع كي يجعلنا نرضى به.. بل إنه يجعل من إعادة بنائه هي المهمة التي كلفنا بها"..

هذا هو!!

انتصبت واقفاً، شعرت أن عمودي الفقري قد تمدد، شعرت أن العالم كله لم يعد يسعني، وأني صرت مارداً مثل مردة الأساطير.. شعرت أن العالم كله قد تقلص ليصير عمودي الفقري الذي تمدد بما قاله الآن.. صار كل شيء واضحاً مع هذه الجملة التي قالها.. كل هذا العالم الغامض - الذي كان يحتاج إلى تفسير، الذي كان يبدو كأحجية بلا حل، لأنها صممت لكي تكون بلا حل - صار الآن مترابطاً.. صار له حل.. فهمت الآن كل شيء - يبدو أن ذلك قد بدا علي - وبدا عليه أنه فهم أني فهمت. ساد الصمت على

المجموعة فبدا أن الصمت أعلى أحياناً من كل الكلام، قال: قلها..

لم أقل له ماذا أقول، كنت أعرف، تلك الجملة التي تختصر كل المعاني. تلك الجملة التي كانت الحل لأحجية العالم كله..

ساد الصمت مرة أخرى، عالياً، مستفزاً متوتراً، رأيت عيون الرفاق تلتقي وتفترق في ترقب، وتشع ضوءاً خلال ذلك مثل يعاسِيب الحقول.

ببطء، كما لو كان كل حرف يخرج من عمودي الفقري، قلتها.. قلت: **"لا إله إلا الله.."**

مني.. من لساني، من أطرافي، من أصابعي.. من كل جهاتي.. لم يكن النور هو الذي غمرني هذه المرة، بل شعرت أني أنا الذي غمرته.. شعرت أني صرت مثل يعسوبة حقول مضيئة.. تبعث النور في قلب العتمة..

شعرت أني لو بسطت يدي الآن لبرز لي جناحان ولحلقت بهما عالياً.. لم أفعل، لم أكن أريد الطيران الآن، بل كنت أريد أن أمشي على أرض صلبة لأتأكد من أن

كل ذلك لم يكن حلماً، لأتأكد من أن كل ذلك لم يكن وهماً..

عدت إلى البيت.. لا أعرف كيف عدت، كنت لا أزال أتصبب عرقاً وأتدفق ضوءاً في الوقت ذاته. كل ما أعرفه أني أحسست بحاجتي إلى النوم، وكنت أعتقد أني سأنام مئة عام أو أكثر. كنت تعباً كما لو كنت قد أزحت جبلاً كان جاثماً على صدري، أو لعلي قد أزحته فعلاً..

لم أنم مئة عام، للأسف، وعندما نهضت - متأخراً قليلاً - عن موعدي المعتاد في صباح اليوم التالي، ومررت أمام أمي، قالت لي وهي ترتشف شايها الصباحي: **عجباًا تبدو كأنك ازددت بمقدار شبر واكثر..**

لم أحاول أن أتأكد على الحائط، كنت واثقاً من ذلك..

أكثر من ذلك، أمام المرآة، لاحظت للمرة الأولى زغباً خفيفاً فوق شفتي.. بداية لشارب طال انتظاره من قبل أهلي، وجاء بشكل غير متوقع تماماً..



بعد عدة أيام من هذا، رأيتهم ينصبون شيئاً ضخماً، في الساحة الرئيسة في المدينة، شيئاً لم أتبين ملامحه لأنه كان مغطى بالقماش من قمته إلى أسفله..

سألتني أمي عند عودتي للبيت عن سبب الضجة في الخارج، وما الذي يحدث بالضبط في الساحة؟. فقلت لها إنهم ربما يضعون إلهاً من الآلهة في الساحة من أجل الاحتفال بالعيد أو شيء كهذا. كان ذلك قد حدث مراراً، وإن لم يحدث أن غطي الإله من قبل.

بعد عدة أيام، في حفل إطلاق (الكولا لولا)، أزيح القماش فإذا بالتمثال الضخم هو قنينة كولا لولا ضخمة..

تصورت أني كنت مخطئاً إذ قلت إنهم كانوا ينصبون إلهاً في الساحة.. لكن، مع الوقت، أدركت أني كنت على صواب. وأن (الكولا لولا) سيكون إلهاً جديداً، وثناً جديداً، لن ينضم فقط إلى مجموعة الآلهة التي يعبدها أهل مدينتي، بل سيكون واحداً من أشدهم سطوة.. ومن أكثرهم هيمنة.. إنه إله جديد سيتقدم ليحتل الصدارة في المعبد.. بطريقة أو بأخرى.



كانت السيدة غلاظة قد اعتادت القول عن أي احتفال تدعى له، إن عرسها كان أفضل بكثير، لكن مع (حفل إطلاق) الكولا لولا، لم تستطع السيدة غلاظة أن تقول شيئاً مماثلاً، لسببين، السبب الأول أن أحداً لن يتظاهر بتصديقها - أو تأييدها - هذه المرة، كما كان البعض يفعل خوفاً من لسانها. والسبب الثاني، أنه لم يسبق للمدينة كلها إطلاقاً أن شهدت لعبة نارية واحدة. لا في حفل زفاف ولا في أي شيء. أما في حفل" الكولا لولا"، فقد امتلأت سماء المدينة تماماً بعشرات، بل مئات، وربما الآلاف، من الألعاب النارية التي أذهلت سكان المدينة وجعلتهم في البداية يسجدون خوفاً، هم الذين كانوا يسجدون لبرق لا يدوم أكثر من ثوان، وله لون واحد، وشكل واحد، فكيف وقد أذهلهم تماماً تعدد الألوان والأشكال في تلك الألعاب النارية التي اتخذ بعضها شكل قنينة الكولا لولا، واتخذ غيرها شكل الأحرف المكونة لكلمة الكولا لولا..

كانت الألعاب النارية مصاحبة لحفل الافتتاح، الذي بدأ بعد كلمة قصيرة ألقتها السيدة حيزبونة، حيت فيها جميع الحضور، ووعدتهم أن العهد القادم سيكون

عهد الكولا لولا بامتياز، "حيث آن الوقت لكي تنعم المدينة بميزات الحياة المنعشة، وبالتقدم الذي يعيش فيه العالم باستثناء مدينتكم"..

بعد نحو نصف ساعة من الألعاب النارية المذهلة، ظهر السيد أبرهة - وللمرة الأولى - هابطاً بالمظلة، مما بدا أنه من عمق السماء... مما جعل أفواه الناس تسقط مشدوهة، وتساءل البعض إن كان السيد أبرهة الهابط من السماء هو من نسل آلهة السد المقدسة، أو أنه بشر مثلنا.

كان السيد "أبرهة" الذي يمتلك شركة ضخمة عابرة للمدن والقرى، يمتلك أيضاً، على العكس من كل تجار مدينتنا ذوي الكروش المتدلية، مظهراً رياضياً شاباً، كان الكرش بالنسبة إلى تجار مدينتنا مظهراً للوجاهة، كلما زاد حجم الكرش كان ذلك دليلاً على حجم الجيب والثروة، لكن السيد أبرهة مع كل ثروته كان بلا كرش على الإطلاق، وكانت بطنه مستقيمة مثل الحائط، كما لو أنه قضى كل وقته في جعلها كذلك.

كما أن ملابسه بدت بسيطة للناس، حتى إنهم أثنوا على تواضعه، علماً أن ملابسه البسيطة كانت تحمل في طياتها علامة تجعلها أكثر سعراً من كل ملابسهم مجتمعين..

لم ينطق السيد أبرهة في البداية، بل اكتفى بالابتسام، أو اكتفى بحركة بسيطة على وجهه فسرتها السيدة تفاهة أنها ابتسامة المحترمين من المتحضرين، وبدت لي كما لو كانت ابتسامة سخرية وتعالٍ.

تقدمت ثلاث فتيات صغيرات يرتدين الأبيض القصير نحو السيد أبرهة،وكانت واحدة منهن تحمل وسادة مخملية في يدها، الأمر الذي جعل الناس يتصورون أن السيد أبرهة متعب من رحلة السماء تلك وأنه سينام فوراً على الوسادة، لم يحدث ذلك بالطبع، واتضح أن الوسادة كانت تحمل مقصاً -وهو الأمر الذي أثار استياء السيدة غلاظة، إذ يمكن للمقص أن يحمل باليد مباشرة فلم هذا التكلف؟- وأن السيد أبرهة سيحمل المقص، ويقطع به شريطاً وردياً صغيراً كان يرتبط بقطعة القماش الهائلة التي غطت المجسم الهائل

المنصوب في الساحة، ثوان، وهبطت قطعة القماش لتظهر قنينة هائلة الحجم من الكولا لولا، وسط ذهول الناس ومن ثم إعجابهم وتصفيقهم..

لم يكن هذا كل شيء، فبعد ثوان بدأت فقاقيع هائلة الحجم تخرج من فوهة القنينة، فيما بدا كما لو أنه كان بركاناً - مما جعل الجالسين في الصفوف الأمامية يلوذون بالفرار فعلاً - لكن هذه الفقاقيع تمخضت عن سلالم متحركة (كانت أول مرة يراها الناس أيضاً)، وعبر هذه السلالم بدأت فتيات، يرتدين ملابس قصيرة، رسم عليها شعار الكولا لولا، بالظهور من القنينة، تباعاً، وينزلن عبر السلالم.. وهن يحملن في أيديهن قناني الكولا لولا.. ويقتربن من الجمهور المصعوق تماماً بسبب قصر الملابس بالإضافة إلى كل شيء، ولكن الفتيات ذوات الملابس القصيرة تقدمن، وعلى وجه كل واحدة منهن ابتسامة عريضة جداً، وبدأن بتوزيع قناني الكولا لولا، بالتتابع على الجمهور كله..

بعدها عادت الألعاب النارية من جديد، واعتلى المنصة بعض من شعراء المدينة ومهرجيها، حيث تباروا

في مدح السيد أبرهة والكولا لولا، السيدة حيزبونة نالها أيضاً قليل من المدح، بعدها جاء دور المغنين والمغنيات في أغان معروفة ورائجة، لكن أعيد ترتيب كلامها ليتلاءم مع التغزل بالكولا لولا، التي لولاها ما عرفنا طعم الحياة، والتي البعد عنها عذاب، والتي يتقلب المشتاقون على نار الشوق إليها.. إلخ.

استمر كل ذلك حتى ساعات الصباح الأولى، وهو الأمر الذي لم يحدث في المدينة، أي احتفال عام من قبل..

وعندما نامت المدينة بعد ذلك الفجر، كانت الكولا لولا قد امتزجت في رؤوسهم وأحلامهم بكل ذلك الاحتفال، بتلك الألعاب النارية البهيجة، وبكل ما بدا أنه قادم من عوالم الخيال..

تجشأت المدينة طويلاً ذلك الفجر.. وكان ذلك يعني أن فقاعات الكولا لولا قد دخلت عميقاً في سكان مدينتي..

من الآن فصاعداً، سيؤرخ كل حدث، باعتباره ق. ك، أو ب. ك.

قبل الكولا.. أو بعد الكولا..

صارت الكولا لولا رمزاً لكل ما جاء بعدها..



"أخزتك الآلهة يا تفاهة" هكذا استقبلت السيدات السيدة تفاهة عندما التقينها بعد الاحتفال للمرة الأولى، كان هناك إجماع منهن جميعاً، حتى أمي، على هذا الدعاء.

"كيف تقدمين لنا خل التفاح الفاسد وتقولين لنا إنه الكولا لولا؟"، هكذا قالت السيدة نميمة، بينما كررت السيدة غلاظة الجملة ذاتها تقريباً مع إبدال "دواء المعدة" بدلاً عن "خل التفاح".

بقيت السيدة تفاهة مصرة على موقفها، قالت لهن إن ذلك لم يحدث وإن الكولا لولا التي قدمتها لهن هي نفسها التي ظللن يشربنها طول الليلة الماضية بلا انقطاع، والتي جعلت بطونهن منتفخة لدرجة عدم القدرة على الحراك..

قالت السيدة غلاظة إنها أخبرت زوجها بما فعلته تفاهة، وإن زوجها أخبرها أنه سمع أن الكولا لولا يمكن

أن تقاضي السيدة تفاهة وتطلب منها تعويضاً نتيجة لذلك.

أما تفاهة،التي ضحكت في البداية من الأمر وقالت للسيدات إنهن غير جادات حتماً، فإنها ومع إصرار السيدات على اتهامها بإبدال شيء آخر بالكولا لولا، بدأت تفقد أعصابها، وبدأت تصرخ بأنهن مجنونات،خاصة عندما تمكنّ من إدخال الشك في قلبها، عندما قالت لها والدتي أن الأمر ربما يكون مقلباً من واحد من أولادها، "أقول لك: إني فتحت القنينة أمامكن.." كانت السيدة تفاهة تصرخ: "إنها نفسها"!..

أما السيدة غلاظة فقد حسمت الأمر: "لا ياحبيبتي، الكولا لولا هي سر الحياة، كما تقول الملصقات، أما ما قدمته لنا، فهو سر الموت".



حكت السيدة تفاهة ما حدث للسيدة حيزبونة، التي صارت تستقبل تفاهة وغيرها في مكتبها الذي افتتحته في أرقى مكان في المدينة، وجلبت له الأثاث المبهر من مدينة الرجل الأبيض، كانت السيدة تفاهة تقسم وهي

تبكي وتؤكد أنها لم تبدل شيئاً في الكولا لولا، بل إنها شربت منها معهن، "وأؤكد لك أنها نفس المذاق". قالت وأضافت بالارتباك "تقول السيدة غلاظة إن الكولا لولا قد تقاضيني وتطلب مني تعويضاً عن ذلك".

"لا يا عزيزتي" قالت السيدة حيزبونة بلهجة متعالية "اطمئني من هذه الناحية، سأبذل جهدي كي لا يتطور الأمر".

"لكني ما زلت لا أفهم" قالت السيدة تفاهة "كيف حدث ذلك؟"

التمعت عينا السيدة حيزبونة بشدة، وقالت وهي تبتسم بغموض: "لا أشك أنه مجرد سوء فهم عابر".

لم تقل حيزبونة أكثر من هذا للسيدة تفاهة، لم تقل إن الأمر لم يكن مجرد (سوء فهم) كما قالت، وأن الأمر كان نتيجة طبيعية لما حدث لسكان المدينة كلهم وبضمنهم السيدات اللواتي رفضن أن يصدقن أن الكولا لولا التي شربنها قبل أن تأتي المناطيد، ومن بعدها الملصقات، هي نفسها التي شربنها بعد أن حدث ذلك كله..

لم يكن طعم الكولا لولا هو الذي تغير، لكن براعم المذاق التي في طرف اللسان هي التي تغيرت، (الذوق) هو الذي تم تغييره، وهكذا كان سيحدث مع كل شيء..

كان ذلك هو البند الأول في خطة السيدة حيزبونة..

ما كان شيء سينجح إلا بنجاح هذا البند..

أن تتغير الرؤوس أولاً.. وبعدها، سيكون كل شيء أسهل..



قال النورس للأفق: إن ذلك لا يصدق..

قال الأفق: ولم لا يصدق؟ لقد كان دوماً يحدث، كل ما في الأمر أنه كان يحدث أقل، وأكثر بطئاً..

رد النورس: نعم، لكنه يظل أمراً محزناً، أن يصدق الناس كل ما يقال لهم لهذه الدرجة..

قال الأفق: الأمر أبعد من هذا، إنه ليس أنهم يصدقون ما يقال لهم، عقولهم هنا تلغى تماماً دون أن يشعروا.. إنها تنوم مغناطيسياً، وهذا يعني أنها تنام، ويساقون وهم نائمون..

كرر النورس: أمر محزن جداً..

قال الأفق: إنه عالم حزين..

قال النورس: ولهذا لا بد أن يأتي.. لقد طال انتظاره.. متى يأتي..

قال الأفق: قلت لك سابقاً، الاستعجال، أحياناً، يقتل القدوم كله..



استقر السيد أبرهة مؤقتاً في منزل كبير أشرفت السيدة حيزبونة على تأثيثه بشكل يليق به وبمكانته، وفي الوقت نفسه بدأ العمل في بناء منزل آخر، على مساحة تعادل مساحة خمسة بيوت.. دفع السيد أبرهة لأصحابها مبالغ خيالية لكي يبيعوها له، في أرقى منطقة في المدينة، وسرعان ما بدأ العمل الذي تبين من بدايته أنه سيكون مختلفاً جداً عن كل بيوت المدينة، فالحجر الأحمر الذي لم يره سكان المدينة من قبل استورد من أماكن بعيدة ليشكل هيكلاً ضخماً لم تشهده المدينة من قبل، وبسرعة لم تشهدها المدينة أيضاً، إذ لم يمر أسبوع حتى كان الهيكل قد اكتمل، وهو الأمر الذي

كان يستغرق أشهراً طويلة بالأحوال الاعتيادية في إيقاع العمل في المدينة، ولم يمض شهر واحد فقط حتى كان القصر الفاره قد اكتمل تماماً، حتى الأشجار في الحديقة بدت كما لو أن عمرها سنين عديدة، وكذلك الحشيش الأخضر الممتد كالبساط كان سيستغرق أشهراً طويلة في السقي والعزق، لكن لم يستغرق الأمر في الحالتين أكثر من الوقت اللازم لمد بساط على الأرض، وتثبيته من جميع الجهات، ووضع الأشجار الباسقة (التي كان بعضها مثمراً) أو هكذا بدت في حفر صغيرة أعدت لهذا الغرض.

"إنه عصر السرعة!" هكذا قالت السيدة حيزبونة وهي تجول في أرجاء القصر مع مجموعة من وجوه المدينة ووجهائها بمناسبة افتتاحه.. "وهذا هو نموذج لما نريد فعله، لما يعنيه عصر الكولا لولا، قصر كهذا ما كان يبنى عندكم ولا في ألف سنة، لكن استغرق الأمر أسابيع فقط بطرقنا، بطرق الكولا لولا".

كان كلام السيدة حيزبونة يتسرب إلى رؤوس المهنئين وهم مشدوهون تماماً مما يرونه، كانت هذه

هي المرة الأولى التي يقفون فيها أمام مكيف للهواء، وكان القصر كله بطوابقه الثلاثة وحتى بحديقته مكيفاً للهواء، وكان الوقت في منتصف الصيف والحر في الخارج يكاد يذيب الحجر، لكن القصر كله كان يبدو كما لو أنه في قارة أخرى ربيعها دائم مع هواء منعش كما في قصص الجنان.

كل ما في القصر، كان يبدو كما لو أنه قادم من خيال باذخ، المسبح الواسع، الذي يتوسط الحديقة والماء الذي يبدو شديد الزرقة (وقد أثار ذلك استغراب الناس بل استياءهم، فالماء كما هو معلوم عديم اللون)، وبركة الماء الفوار في القاعة المغلقة (الذي أثار اسمه "الجاكوزي" استياء السيدة غلاظة التي اعتبرت أن هذه هي السلبية الوحيدة للقصر)، كانت الحمامات أيضاً مما أثار إعجاب الجميع ودهشتهم، وقد اتفقت غلاظة مع بقية السيدات، أن الحمام الذي قالت عنه السيدة حيزبونة "إنه حمام بسيط للخدم" هو أجمل وأفضل من غرف استقبالهن جميعاً، بل ومن غرفة استقبال السيد عبد المال، الذي كان يعتبر أثرى أثرياء المدينة.

"تذكرن أيتها السيدات ذلك الإعلان الجميل عن أن الكولا لولا أكثر من مجرد شراب، إنه نمط للحياة..؟"

هزت السيدات رؤوسهن،بينما أكملت السيدة حيزبونة، "لعلكن تصورتن أن الإعلان يبالغ فقط، لكن الآن تفهمن ما هو نمط الحياة هنا"..

أشارت بيدها إلى كل ما حولها، والتمعت عينها بشدة وهي تقول، "هذا هو نمط الحياة الذي تعنيه الكولا لولا.. الرفاهة، الترف، السعادة التي كنتم تجهلون وجودها.." ثم قالت بنبرة حاولت أن تجعلها مؤثرة،"الكولا لولا هي إكسير الخلود الذي كنتم تبحثون عنه في أساطيركم، بفارق أن ذلك لم يكن إلا وهماً وهناك، أما الآن فهو حقيقة، إنه حقيقة...الآن، وهنا.."



لم يكن كل سكان المدينة فرحين بما يحدث في مدينتهم.. بل إن البعض من أهمهم تأثيراً لم يكن مرتاحاً لما يدور..

كان أول هؤلاء هو السيد عبد المال، كبير تجار المدينة، الذي أدرك بذكائه الفطري وخبرته في التجارة أن بساط السيطرة على السوق سيسحب منه - إن لم يكن قد سحب فعلاً - بفارق أنه سيسحب ليس لمصلحة واحد من منافسيه التقليديين الذين قضى حياته في محاربتهم - بل لصالح هذا الشخص، السيد أبرهة، الذي لم يكن يعرفه أحد قبل "الساعة السوداء" التي جاء فيها المنطاد والكولا..

لم يكن هذا موقف السيد عبد المال ابتداء، كان في البداية مهتماً، كما الجميع بما يدور، لكن ما إن فهم أن الأمر جزء من حملة دعاية لمشروب معين، حتى انتابه القلق، خافتاً في البداية، ثم بدأ يزيد ويعلو، مع اتضاح الحجم الكبير للأمر، الذي جعل من السيد عبد المال يوقن أن الأمر لم يقف عند تسويق مشروب غازي لا أكثر ولا أقل وإنما سيكون تسويقاً لكل شيء، حتى السلع التي يحتكر السيد عبد المال جلبها إلى المدينة والانتفاع بها. كان السيد عبد المال يدرك تماماً أن الأساليب الجديدة، تجذب الزبائن أكثر بكثير من طرق العرض التقليدية التي يتبعها، والتي لم يغيرها

منذ أن استلم المهنة عن أبيه. كان يأتي بالبضاعة ويأمر بصفها في المستودع، وانتهى الأمر. حتى الابتسامة لم يكن يوصي (صبيانه) بتكلفها عندما يبيعون شيئاً إلى الزبائن. بل إنه كان يوصيهم بألا يظهروا الاهتمام الزائد بالزبون، حتى لا يشك الزبون أن ذلك تعويضٌ عن عيب ما في البضاعة!.

لكن هذا كله لم يعد يصمد أمام ما اعتبره السيد عبد المال مصيبة بكل المقاييس. مصيبة جعلته يجتمع مع بعض منافسيه الذين كان يعدهم أعداءه (ولا يزال طبعاً يعدهم كذلك لكنه مضطر لتأجيل ذلك الآن).. كان بالذات يريد أن يجس نبضهم ويقرأ ما بين كلماتهم ليرى ماذا ينوون فعله.

لدهشته، وجد السيد عبد المال أن بعضهم غير مدرك لخطورة الأمر، كاد أن يضرب السيد (إمّعة) الذي كان قد عاد للتو من زيارة للمتجر الكبير الذي يسمونه (المول) الذي افتتح مع افتتاح قصر السيد أبرهة. كان السيد (إمّعة) يتحدث بإعجاب شديد عن مول "القليس"، وعن تنظيمه وترتيبه، وكيف أن

زوجته السيدة فهيمة قد ملأت ثلاث عربات من البضائع، وبعثته ليجلب المزيد من النقود..

"هل فقدت صوابك يا إمعة؟ هل كان لديك أي صواب على الإطلاق؟" صرخ عبد المال بوجهه وقد تخلى عن هدوئه "ألا تدرك خطورة كل ذلك؟ ألا تدرك أننا لن نجد أحداً يدخل إلى متاجرنا خلال مدة وجيزة؟ هذا إذا لم يكن قد حدث؟".

كعادته، أيد السيد إمّعة الكلام بشدة، كما لو أن التعنيف لم يكن موجهاً له، "صحيح، كل الناس غدروا بنا وصاروا يذهبون إلى القليس!"، واستشاط عبد المال غضباً واحمر وجهه وهو يصرخ بإمعة "وأنت أولهم يا إمّعة".

انتبه إمّعة إلى أنه لا يمكن له أن يكتفي بالتأييد فقال بصوت خفيض:"لست وحدي يا عبد المال، كلهم كانوا هناك، حتى كبير الكهنة!.. ولقد شاهدته في قسم ألعاب الأطفال"..

قال الآخرون إن زوجاتهم لم يعدن يتسوقن إلا من (القليس)، وأنهن صرن يسخرن من مخازن أزواجهن

ويسمينها (دكاكين عطارة) في استهزاء.. وقد أيد السيد إمّعة ذلك أيضاً، وأبدى قلقه من الأمر، وعندما قال السيد محتكر إن ذلك كله قد يكون هوساً عابراً وإن "الناس سيعودون لنا، لأننا نحن الأصل" - أيده إمعة أيضاً، وقال إنه مطمئن لذلك تماماً!..

قال السيد عبد المال: "إننا سننتهي إلى أن نكون تجاراً نبيع القطعة بعد أن كنا تجار جملة نستورد ما نريد ونفرض السعر بالاتفاق بيننا "، وأيده السيد إمعة كذلك وهو يبدي أسفه، هنا قال السيد جشع إنه مستغرب لشيء واحد، وهو أن سكان المدينة كانوا يفاوضون ويساومون على أسعار أقل من التي يشترون بها الآن، فمن أين جاؤوا بكل تلك الأموال الآن؟.. وكيف لم يعودوا يفاصلون في السعر كما في السابق؟.. أيده السيدة إمعة أيضاً في استغرابه، وقال إن زوجته صارت تنفق في التسوق في اليوم الواحد أكثر مما كانت تنفقه في شهر، كما أنها وصديقاتها صرن يلتقين في المطعم الملحق بالسوق، وصرن يذهبن إلى هناك كل يوم، بدلاً من اللقاء الأسبوعي المعتاد..

أدرك السيد عبد المال أن الأمر أخطر مما توقع إذا كان الانغماس في هذا قد طال التجار أنفسهم وعوائلهم.. أدرك أيضاً أن لا شيء يمكنه أن يفعله، ليوقف ذلك الطوفان.. ربما كان من الذكاء ألا يحاول ذلك أصلاً..

بينما كان يسمع لما يتداوله التجار من تجارب في (المول) خطرت في باله فكرة أسرّها لنفسه، ولم يقلها بصوتٍ عال.. لقد فكر أن عليه أن يكون جزءاً من هذه الموجة، بل أن يتقدمها.. أن يكون شريكاً في كل ما يدور.. بالذات عليه أن يفعل ذلك قبل أن يسبقه أحد من التجار..

تنحنح بصوت عال ليكف الجميع عن الحديث وينتبهوا له..

قال لهم بصوت حاسم: علينا أن نتماسك يا إخوة، أن ننسى خلافاتنا القديمة، ونتحد، علينا أن نتمسك بأساليبنا في البيع والشراء، وستمر العاصفة حتماً..

أيّده السيد إمعة بحرارة، كذلك أثنى بقية التجار على الأمر، فقد كان عدم فعل أي شيء، والانتظار فقط، أسهل بالتأكيد من تحدي ذلك الطوفان.

"لا يصح إلا الصحيح، وعملنا هو الصحيح، أما هذه فمجرد فقاعة زائلة" قال السيد عبد المال مع ابتسامة. "وعلينا أن نتمتع بها إلى أن تزول هذه الفقاعة" قال السيد إمعة.

اعتذر السيد عبد المال وانصرف مبكراً بحجة مراجعته بعض الأمور في المستودع. تلفت عندما خرج ليتأكد من أن أحداً لن يلاحظ أنه لم يتجه إلى المستودع، بل باتجاه مكتب السيدة حيزبونة.



قال النورس للأفق: هل سمعت ما سمعته؟

قال الأفق: ماذا؟

قال النورس:اسم المتجر.. قالوا اسم متجر أبرهة هو "القليس"!

رد الأفق: نعم..سمعت..

قال النورس: أليس هذا هو اسم المعبد الذي بناه أبرهة الاصلي، وحاول أن يجبر العرب على الحج إليه بدلاً من الكعبة، ولما فشل في ذلك توجه إلى مكة لهدم الكعبة؟؟

قال الأفق: هو بعينه..

قال النورس: المعبد صار متجراً الآن؟ أتساءل أنا عن معنى ذلك؟

قال الأفق: أتساءل أنا عن شيء آخر..

قال النورس: ما هو؟

قال الأفق: أتساءل ان كنت ستتحلى بالصبر قليلاً..وتدعنا ننتظر لنرى ما سيحدث..



"عرفت أنك ستكون أول من يطلب مقابلتي من كبار التجار يا سيد عبد المال " هكذا استقبلته السيدة حيزبونة في مكتبها الذي أثار دهشة عبد المال، الذي كان مكتبه يعد أفخم مكتب في المدينة، صار يشعر أن مكتبه لا يصلح حتى للمقارنة مع مكتب السيدة حيزبونة.. كانت السيدة حيزبونة، قد جاملت كل التجار في المدينة، وعلى رأسهم السيد عبد المال، وأرسلت لهم الهدايا القيمة باسم السيد أبرهة، ولم توفر دعوة إلا وكانوا على رأسها، وفي صدر كل

مجلس، وفي الصف الأمامي من كل افتتاح، كانت علاقتها بالجميع ودية، وكانت تحرص دوماً على تأكيد ذلك.

كان السيد عبد المال محرجاً من البدء بالموضوع، لم يكن قد حضَّر أي شيء ليقوله أصلاً، لدهشته، وجد السيدة حيزبونة تسهل الأمر له بسؤال مباشر إذا كان المول الجديد قد أثَّر سلبياً على مبيعاته هو.. لم تحرجه السيدة حيزبونة في انتظار جواب، إذ انطلقت تؤكد له أن السيد أبرهة لا يود خسارته على الإطلاق، بل إنه يريد رؤية جميع التجار وهم يربحون، "فقط يريدهم أن يتعاونوا".

لدهشة السيد عبد المال، قدّمت السيدة حيزبونة ملفاً كاملاً، كتب عليه اسم السيد عبد المال شخصياً، بخط كبير واضح، وفيه مقترحات يتحول فيها متجر السيد عبد المال إلى (مول) كبير أيضاً في منطقة أخرى، وقد أرفق الملف بخريطة للمول الذي يشتمل على قاعة كبيرة للألعاب وقاعة للسينما وأخرى للرياضة، بالإضافة إلى ثلاث طوابق للتسوق.

نظر السيد عبد المال إلى كلفة المشروع فوجدها عالية جداً وظهر ذلك على وجهه. كان المشروع يأكل رصيده كله.

عاجلته السيدة حيزبونة "هل يقلقك المبلغ؟ اطمئن، نستطيع أن نقرضك، وتستطيع أن تسدد حصتك بعد عشر سنوات بالاتفاق، أو ندخل بنسبة من الأرباح، أو نكون شركاء في كل شيء.."

كان العرض مغرياً جداً، تخيل السيد عبد المال المول الكبير ذا الطوابق وهو يحمل اسمه، تخيل الناس تفرغ جيوبها عند منصة دفع الحساب. نعم! هذا ما كان يريده عندما جاء، لكنه لم يتوقعه بهذه السهولة أبداً، لم يتوقعه بهذه السرعة، لم يتوقعه أن يأتي من السيدة حيزبونة شخصياً.

لم يكن يحب الربح السهل.. كان حس التاجر في داخله يقول له إن ذلك يحتوي على مكيدة حتماً..

قالت له السيدة حيزبونة فوراً: لعلك تقول ما الذي يجعلنا نختارك أنت بالذات؟ إن السيد أبرهة يا عزيزي له أعمال متعددة في العالم كله، و مول" القليس " له فرع

في كل مدينة في العالم، وهو لا يمكنه أن يستقر لمدة طويلة هنا، مع أنه أحبكم وأحبَّ مدينتكم جداً، لكن أعماله لا تنتهي، وهو قد يفكر لاحقاً أن يعطي توكيلاً بأعماله لشخص محترم من تجار المدينة، ولا أعتقد أن السيد أبرهة سيجد من هو أفضل منك يا سيد عبد المال.." قالت وهي تبتسم موحية له أن اختياره محسوم ثم أكملت "ويستطيع السيد أبرهة أن يوظف أهم الاقتصاديين من العالم ليتابعوا أعماله، لكنه يريد أن يحافظ على الهوية الثقافية للبلد، ولذلك فهو يريد أن يكون شريكه من قلب المدينة".

لم يفهم السيد عبد المال موضوع الهوية الثقافية للبلد، لكن الأمر أعجبه، فقد شعر أن فيه إطراء ما.

أخرجت السيدة حيزبونة أوراقاً من الملف، وهي تقول: "كل شيء جاهز للتوقيع على المستندات وتسديد القروض إذا تم الاتفاق بيننا..".

لم يكن السيد عبد المال يحب الاستعجال في هذه الأمور، لم يكن يحب أن يبدو متلهفاً. كان (الثقل) جزءاً أساسياً من الصنعة التي يتقنها، لم يكن ذلك

(الثقل) محبباً لدى السيدة حيزبونة على ما يبدو، إذ ما إن انتبهت إلى أنه يريد التأجيل مع أنه يريد التوقيع، فقط ليبين عدم لهفته، حتى أسرعت تقول: **"أعتقد أن السيد جشعاً قد يمر الليلة، وهو أيضاً يمكن أن يحافظ على الهوية الثقافية للبلد.."**

قال السيد عبد المال بسرعة: أين تريدينني أن أوقع؟!



٦

لم يكن السيد عبد المال وحده «ضد» ما يدور..

فقد كان نوح أيضاً ضد الكولا لولا، وكل ما تبعها. لكن الرفض كان مختلف الأسباب. ولهذا فقد كان رفض السيد عبد المال مرتبطاً بالأرباح التي خسرها - والتي يمكن إن عادت أن تزيل هذا الرفض كما لو أنه لم يكن.

أما نوح، فقد كان رفضه مختلفاً، لذا بدا أن الأمر غير قابل للتفاوض.

قال لنا ابنه، بينما نحن نقوم بتنظيف الشوارع، إن والده ليس ضد (السلعة) - أو ضد (الآلة) - لكنه ضد تحويلها إلى إله، إلى وثن من تلك الأوثان التي يعبدها الناس في المدينة..

قلت له وقتها، إن ذلك يبدو بعيداً، فانا لم أرَ أحداً يسجد لما يشتريه من بضائع أو سلع، أو يصلي لها.. أيدني بعض الصبيان أيضاً في ذلك، قال لنا ابن السيد نوح: "إن عبادة الأوثان لا تقتصر على الصلاة لها أو السجود لها، بل تكون احياناً بشكل آخر من اشكال التعلق.. ليس بالضرورة ان تسجد لها حرفياً، احياناً يمكن أن يكون كل قلبك مشدوداً لها لكنك تسجد لوثن آخر.."

لم افهم بالضبط. سالته مجدداً: "كيف يمكن أن نميز ذلك، كيف نفهم ما هو مجرد شراء لسلعة جديدة، وبين ما تقول عنه إنه عبادة للسلع؟.."

قال:" تميز ذلك بسهولة. عندما تكون السلعة لخدمتك، فإن اقتناءها لا يكون عبادة لها.. أما عندما تكون أنت لخدمتها، فانت عبدٌ لها."



لم أفهم في البداية كيف يكون الإنسان خادماً لشيء يشتريه.. عندما عدت إلى البيت وجدت أمي منهمكة في إفراغ غرفة كاملة جديدة تجعلها مخزناً

لما اشترته في الأسبوعين الماضيين. قلت لها إنها لن تجد وقتاً لاستعمال كل هذه الأشياء، فطلبت مني ألا أعطلها إذ إنها مشغولة جداً، فبعد دقائق ستمر عليها السيدة غلاظة والسيدة نميمة للذهاب إلى "القليس ٢" الذي أعلن عن تنزيلات في أسعاره.

قلت لها:"القليس ٢؟..ما معنى هذا؟ "

قالت بفرح: "القليس صار له فرع جديد في المدينة! ألم تسمع بذلك؟ وأسموه القليس ٢.. ويخططون الآن لبناء قليس ٣ و ٤ أيضاً.."

وفي المساء راقبتها وهي تخرج ما اشترته من الأكياس وتتاملها بوله وسعادة شبيهة بوله أبي عندما يصلي لود أو لسواع أو لباقي آلهة السد.

صرت أراقب ذلك دوماً، وصرت أجده دوماً أيضاً، كانت السلع تشترى من أجل أن تخدمهم، أن ترفههم، لكنهم مع الوقت، صاروا ينفقون الوقت من أجلها.. صاروا يشعرون بالسعادة عبر تكديسها، على الأقل يشعرون بذلك لحظة شرائها ولساعات قليلة بعدها، أو على الأقل هكذا قالت لي أمي عندما سألتها عن السبب في كل

ذلك؟ قالت لي: "كلما شعرت بالضيق والتوتر منكم أو من ابيكم او من نفسي، اخفف من ذلك بالتسوق."

سألتها عن العلاقة بين هذا وذاك؟.. كنت مستغرباً فعلاً!..

قالت لي:" لا اعرف. عندما اشتري شيئاً احس اني افضل قليلاً. عندما اقيس شيئاً جديداً لأتأكد إن كان مناسباً اشعر اني (جديدة) مثله، وعندما احمل تلك الأكياس واخرج بها من القليس، اشعر اني أولد من جديد.. وقد نسيت كل ضيقي."

لم أكن أشعر أبداً أن أمي جديدة. ولم أكن واثقاً أني أريد أماً جديدة، كنت أحبها كما هي، أمي القديمة التي أعرفها منذ أن ولدت.

قلت لها: "كم يستمر هذا الشعور، بأنك جديدة؟"

قطبت جبينها وقالت:" للأسف، لا يستمر اكثر مما تستمر فقاعات الكولا لولا، تفور سريعاً ثم تخبو سريعاً. وبعدها أعود للضيق من نفسي ومنكم ومن أبيكم ومن كل شيء.. فأذهب مجدداً إلى القليس لأتسوق."

"إذن، من يستفيد من كل هذا هو السيد أبرهة!" قلت بمكر.

"لا تتغالظ الآن يا نور، اذهب واطلب من أبيك بعض النقود لي لأني أريد أن أتسوق وقد طلبت منه مرتين اليوم، ولا أريد أن أطلب الثالثة. قل له إنك سمعت أن التسوق يزيد من الطول وإنك تحتاج إلى التسوق لكي تطول".

"لكنني أطول فعلاً يا أمي. ألم تلاحظي ذلك؟".

في غمرة انشغالها بالتسوق كانت قد كفت عن الانتباه لكل شيء. التفتت إلي وأشرق وجهها، وصارت تبدو جديدة فعلاً ولكن بشكل غير الذي قالته، قالت لي:" صحيح. لأني أراك كل يوم لم أنتبه.. كم هذا جميل ومؤثر.. أسرعت تقول وهي تحتضنني: لا شك أنها الكولا لولا.. لاشك أنها الكولا لولا.."

ثم همست في أذني: "اذهب إلى أبيك واطلب منه النقود بهذه المناسبة. ستمر غلاظة ونميمة وتفاهة بعد قليل لكي نذهب إلى القليس٢. يقولون إن التنزيلات لا تفوّت!.. و البضاعة الجديدة كذلك!"



لم يكن أبي أقل انغماساً من أمي بهذا الأمر لكنه كان أقل إظهاراً له. بل إنه كان يتنادر عليها وعلى هوايتها الجديدة في التسوق، ويعتبرها دليلاً على "سخف النسوان" - كما كان يقول - لكنه من ناحية أخرى، كان يفعل الشيء ذاته، لكن لا يتحدث عن ذلك طوال الوقت، لاحظت مثلاً اهتمامه بعربته الجديدة منذ أن بدأت موجة شراء العربات في المدينة أي عندما افتتح السيد أبرهة معرضاً كبيراً للعربات، ولاحظت بالذات أنه كان حريصاً على أن يستلم العربة التي ابتاعها قبل أن يفعل جارنا، ولاحظت خيبته الكبيرة وحزنه العظيم، عندما تبين أن عربة جارنا أكبر من عربتنا، الأمر الذي دفع والدي إلى أن يحاول أن يشتري عربة أكبر، ويقول إنها للبيت، ولكن هذه المرة حرص ألَّا تكون في المدينة كلها عربة أكبر، ولا حتى عربة مماثلة، وذلك عبر إرسال طلب خاص إلى المصنع في مدينة الرجل الأبيض، بمواصفات خاصة من ناحية الحجم واللون، بحيث يضمن عدم وجود عربة أخرى مماثلة. وكان والدي يشعر بعدم الارتياح طوال فترة الانتظار، كما لو أنه قد هزم هزيمة شنعاء على يد خصمه،

وصار لابد له من أن يثأر لكرامته.. ولم يزل هذا الشعور عاماً إلا بعد أن استلم والدي العربة، كما لو أن إكليل النصر قد وضِع على جبينه..

لاحظت طبعاً أن والدي لم يكن وحده في هذا الاهتمام، فكل واحد من أصدقائه صار يحرص على أن تظهر العربة مقدار وجاهته وثروته.. بل إن أحدهم قال في المجلس، إن كل عربة تعبر عن شخصية صاحبها، فكلما كانت العربة فارهة وقوية، و تحتاج إلى خيول أكثر دلَّ ذلك على قوة صاحبها، وعلى تمكنه. وكلما كانت العربة عادية وصغيرة، و تحتاج إلى عدد قليل من الخيول، دلَّ ذلك على انه شخص عادي، لا يملك مميزات عن الآخرين، كما انه بخيل على الأغلب!..

قال هذا في معرض الحديث عن عربة لا تستطيع من فرط ضخامتها المرور في بعض الأزقة "كما لو ان عربات البعض مصممة للعيش في الأزقة".

ذكرني ذلك كله بما نقله لنا ابن السيد نوح عن والده.. وفهمت بالتدريج ما كان يقصده، من أن هذه السلع، ستتحول لتصير إلهاً آخر من آلهة المدينة.

تذكرت ذلك أيضاً عندما رأيت الناس يتجمعون أمام القليس في انتظار افتتاحه على أول يوم في التنزيلات التي أعلنها (بنسبة ٥١٪ على بعض السلع).

تذكرت تلك الملصقات الموجودة في كل مكان، وتلك الدعايات التي تظهر في (المشهاد) تذكرت جملة كتبت على أنها فلسفة العصر، فلسفة الكولا لولا كما قيل: "أنا أتسوق، إذن أنا موجود".

انتبهت من أفكاري على صوت الباب وهو يدق، كانت السيدات غلاظة ونميمة وتفاهة وهن يطلبن من أمي أن تسرع، كنَّ متحمسات للذهاب إلى القليس كما لو كنّ أطفالاً في مدينة الألعاب..

سمعت صوت السيدة تفاهة تقول لأمي: "اسرعي نحقق ذاتنا، التسوق يحقق لي ذاتي.."

ردت عليها السيدة نميمة: "بالتأكيد. اسأليني أنا عن تحقيق الذات!".



في واحدة من حملات التسوق التي قامت بها أمي، حدث خطأ غير مقصود ناتج عن جهل الحمالين

بمحتوى العلب الضخمة التي يحملونها، وأيضاً عن جهل أمي بما اشترته، والغرض من استخدامه..

كانت أمي قد اشترت أجهزة كهربائية هذه المرة، احتفاءً بدخول الكهرباء إلى المدينة على يد شركة أبرهة للكهرباء الوطنية، لم تكن الكهرباء قد وصلت بعد إلى بيتنا، لكن أمي استبقت الأحداث، وابتاعت كل ما يمكن تشغيله بالكهرباء، بالضبط كما فعلت كل صديقاتها وكل جاراتنا..

وفي حملة تسوق واحدة، جاءت أمي بشاحنة محملة بكل ما أسمته (أدوات التقدم) التي ستجعلنا نعيش عصر الكولا لولا حقاً، كان هناك المنياع، والمشهاد، وغاسلة الملابس، ومجففة الشعر، ومكيف الهواء، وغاسلة الصحون، والفرن الكهربائي، وفرن آخر قالت أمي إنه أسرع، ولم أحفظ اسمه، بالإضافة إلى برّاد عملاق تصورته خزانة في البداية، وبراد عملاق آخر قالت والدتي شارحة لنا الفرق بينه وبين الآخر: هذا يجمد، وذاك يبرد فقط.. وكانت والدتي قد اشترت من بعض هذه الأشياء زوجاً وأكثر احتياطاً خوفاً من عطل ما،

كما فسرت، أو ربما غيرة من السيدة تفاهة التي فعلت ذلك كما أفسر أنا.

كانت والدتي تعلق - مع كل صندوق يفتح - تعليقاً واحداً يتكرر: "غاسلة الملابس!.. كيف كنا سنعيش من دونها؟ المذياع، كيف كنا سنعيش من دونه؟ المشهاد، كيف كانت حياتنا من دونه؟.."

كل ذلك وليس هناك جهاز واحد قد بدأ بالعمل لأن الكهرباء لم تصل بعد.. كما لو أننا لم نعش قبل مجفف الشعر الكهربائي، ولم نأكل قبل ذلك الفرن السريع الذي لم أحفظ اسمه..

المهم أن الحمالين - كسلاً أو جهلاً - وضعوا الغسالة الكهربائية في صدر غرفة الجلوس بدلاً عن المشهاد، ووضعوا المشهاد مكان الغاسلة قرب المطبخ، ولما لم يكن هناك كهرباء بكل الأحوال، فلم يختلف الأمر كثيراً ولم نعرف أصلاً أن هناك خللاً ما - وكانت والدتي تتباهى أمام الضيوف بالمشهاد الجديد، وقال بعضهم إن المشهاد الذي ابتاعوه يختلف قليلاً عن هذا، فأكدت والدتي أن ذلك يعود إلى أن هذا هو النمط

الأحدث والأغلى..، مما يعني أنه أفضل طبعاً، دون الحاجة للقول.



استمر الأمر إلى أن جاءت السيدة تفاهة التي التفتت إلى أمي وهي تسألها باستغراب شديد: **"ما الذي تفعله الغاسلة في غرفة الجلوس؟"**

عندها أدركت أمي الخطأ، وارتبكت قليلاً قبل أن تتدارك الأمر وتقول إنها لم تجد مكاناً آخرَ لهذه الغاسلة، لأن الأخرى كبيرة جداً ولم يبق مكان لهذه الصغيرة، لم يكن هناك غاسلة أخرى، ولم تكن هذه صغيرة، لكن أمي حاولت التعويض عن الإحراج بالتباهي بما عندها، لكن الأمر لم يمر تماماً إذ قالت السيدة تفاهة: "غاسلة في غرفة الجلوس! يا للعار يا للفضيحة، ليتك مت ودفنت قبل هذا"، بينما أسرعت أمي تغير الموضوع تخبرها عما سمعته عن المول الجديد الذي ينوي السيد عبد المال افتتاحه، بالشراكة والدعم من السيد أبرهة.

ما إن خرجت السيدة تفاهة، حتى أسرعت أمي تأمر الخدم بتغيير مكان المشهاد الذي اتضح أنه غاسلة وهي

تلقي باللوم عليهم في وضعها هنا، وأيضاً على المصنع الذي جعل من المشهاد يشبه الغسالة دون أن يهتم لما قد يثيره ذلك من مشاكل.

تم إصلاح الخطأ - وعادت الغاسلة الحقيقية إلى المطبخ - وصار المشهاد في صدر غرفة الجلوس، متوسطاً الإله وداً، والإله سواع، فيما بدا انه محض مصادفة من ترتيب امي، ثم فهمت لاحقاً، ان الأمر لم يكن مصادفة، حتى وإن كانت امي لم تقصد أكثر من مجرد (التنسيق)..

❖ ❖ ❖

بعد أن جاءت الكهرباء، بدأت أسرتي تتحلق حول المشهاد، فهمت أن مكانه بين الآلهة هو بالضبط موقعه الحقيقي..

فهمت أكثر كيف تتخذ العبادة أشكالاً مختلفة، لا تكون بالضرورة تشبه الصلوات التقليدية. صار أفراد أسرتي يقضون الساعات مسمّرين أمام المشهاد، في خشوع يذكرني بصلاة والدي أمام ود في الرخاء وأمام يغوث في الشدة.. حتى والدي صار يستعجل في

صلاته، لكي لا يفوته شيء من تعليمات هذا الإله الجديد.. المشهاد.. كان إلهاً ناطقاً على الأقل، في حين كانت كل أوثان والدي الأخرى مستمعة فحسب (أو هكذا كان يتصور..!)..

يوماً بعد آخر، رأيتهم يخضعون أكثر فاكثر لهذا الوثن، يبكون إذا أراد إبكاءهم، ويضحكون إذا أراد إضحاكهم. يمتنعون عن طعام معين إذا قال لهم إنه مضر، بل إن أمي قامت بإعداد وصفات غريبة من الطعام، تحتوي على حشائش تشبه البرسيم - لمجرد أن هذا الإله الجديد قد قال إنها ستكون وجبة شهية وصحية. ولدهشتي، فقد كانت أمي تحاول مغالبة تقززها الشديد، مما أعرف قطعاً أنها لا تستجيد مذاقه، لكنها كانت تحاول إقناع نفسها بأن الاكلة شهية جداً ما دام المشهاد قد قال ذلك..

ومع مرور المزيد من الوقت، أيقنت أيضاً أن ذلك الخطأ غير المقصود في وضع الغاسلة مكان المشهاد لم يكن خطأ كبيراً بعد كل شيء..

كان المشهاد (غاسلة) أيضاً بطريقة ما، غاسلة أكثر

كفاءة من كل الغاسلات الأخرى. لكن استخدامه لم يكن من أجل غسل الملابس والأغطية التي يمكن غسلها يدوياً دونما كبير مشقة، كان (المشهاد) يقوم بغسيل من نوع آخر.. غسيل لا تستطيع أي غاسلة مهما كانت متطورة.. أن تفعله كما يفعل المشهاد.

كان المشهاد.. هو ذلك الوثن الذي يغسل أدمغة أتباعه. لا أعرف وثناً آخرَ - أو آلة أخرى - كان يمكنه أو يمكنها أن تفعل ما يفعله المشهاد من غسيل لأدمغة أسرتي.. ربما لم تكن الأمور التي في رؤوسهم جيدة أصلاً، ربما كانت تستحق أن تمحى، لكن المشهاد كان يضع مكانها أموراً لم تكن أفضل بالتأكيد.. كان (يفرك) أدمغتهم حتى يكاد يمحي تلافيفها.. وكان يبدو متعاوناً جداً مع السيد أبرهة، والقليس الكبير الذي يمتلكه، إذ إن كل ما كان يقدمه كان يؤدي إلى القليس بأرقامه المتعددة، بطريقة أو باخرى..

لذلك كله، لم أشعر بالدهشة أبداً، عندما علمت أن المحطة الوحيدة التي تبث على المشهاد، كان يملكها السيد أبرهة أيضاً.. أليس من الطبيعي بعدها أن يكون

هو من يملك ذلك المتجر الكبير، وهو من يبيع المشهاد- الغاسلة.. وهو أيضاً من يبيع الغاسلة الحقيقية؟!..



قال النورس للأفق: ألم يكن ذلك مباشراً جداً؟

قال الأفق: ما هو؟

قال النورس: كل هذا الكلام عن السلع والتسوق وتحولها إلى آلهة..كان مباشراً أكثر مما يجب..

قال الأفق: هل تقصد إنه كان واضحاً جداً؟

قال النورس: نعم!

قال الأفق: وهل كان يجب أن يكون غامضاً إذن؟

قال النورس: هكذا يكون أقل مباشرة!

قال الأفق: ولا يفهمه أحد! ما فائدته إذن؟

قال النورس: يكون فنّاً..

قال الأفق: اسمع يا صديق..ليكن ما يكون..بعض الأمور يجب أن تكون واضحة حتى لو كان فيها

مباشرة..بعض حوارات الناس العادية تكون مباشرة جداً، هل علينا أن نلغيها لأنها كذلك؟



حدث أول اصطدام واضح بين السيد نوح، و"الأوضاع الجديدة" في حفل افتتاح متجر السيد عبد المال، الذي أسموه قليس ٣..

كان السيد نوح يتحدث لأتباعه وتلامذته - وكذلك كان ابنه يفعل - عن كون هذه السلع التي تجتاح المدينة والتعلق بها شكل من أشكال عبادة الأوثان.. لكن كان من الواضح أن ذلك لم يكن ينفع كثيراً في مواجهة ذلك الطوفان، بل حتى أتباع السيد نوح، وتلامذته، وجدوا أنفسهم منساقين إلى شراء تلك السلع كما هو حال أهل المدينة كلها. كانوا مقتنعين تماماً بما يقول السيد نوح عن هذا كله، لكنهم وللمرة الأولى وجدوا قناعتهم في مكان، عند السيد نوح، وسلوكهم في مكان آخر: عند "المول.."

كان معظمهم يحاول إخفاء ذلك كله عن السيد نوح، وكان البعض الآخر يحاول أن يبرر ما يفعل

بالقول إنه يوازن الأمر وإنه يستعمل السلعة، ولا يكون عبداً لها.. بعضهم كان صادقاً بذلك فعلاً، ولكن بعضهم الآخر كان يقول ذلك ليبرر فقط ما يفعله.. لم يكن لديهم هذه المشكلة قط مع كل الأوثان السابقة، أما هذا الوثن الجديد، متعدد الأشكال والأحجام والألوان، فإنه مختلف عن كل ما سبق.. كانوا يحتقرون بقية الأوثان.. يعتبرون الخضوع لها سخفاً ما بعده سخف. لكن هذا الوثن الجديد كان يوقعهم في حبائله.. كانوا يجدونه جذاباً مع رفضهم القاطع له.

كان السيد نوح أمام تحدٍّ جديد إذن. كان يعي ذلك، وكان يفهم تماماً أن الأمر يتطلب نوعاً جديداً من المواجهة..

لذلك، وفي يوم افتتاح القليس ٣، وقبل أن يبدأ الحفل الكبير الذي أشرفت السيدة حيزبونة على الإعداد الباذخ له، بدأ السيد نوح خطته: جلب معه تماثيلَ للأوثان التي يعبدها سكان المدينة، بالذات لكبار الأوثان، ووضعها جميعاً في وضع منحن كما لو

كانت راكعة، ووضع أمامهم الكولا لولا وعلامتها التجارية، وبعض الصور والملصقات الدعائية عن سلع أخرى. كان نوح يصيح بأعلى صوته: **"كنتم تعبدون أوثاناً لا تنفع ولا تضر، والآن أوثانكم تعبد أوثاناً تضر فقط. وفي الحالتين أنتم تتركون الإله الواحد الحق الذي خلقكم.. تتركون عبوديته التي من أجلها خلقتم، وتصيرون عبيداً لمجرد سلع.. وكل هذا من اجل أن تزيد ارباح أولئك الذين يستغلونكم ويدفعونكم نحو عبادة هذه السلع.."**

في البدء جاء حراس المول ببدلاتهم الأنيقة وطلبوا بتهذيب من السيد نوح أن يبتعد، لكنه لم يبتعد، بل استمر. بعد قليل سقط قناع التهذيب وأمروه بوقاحة وفظاظة أن يبتعد، بل أخذوا يسحبونه بقوة، خاصة مع اقتراب موعد وصول السيد أبرهة. قاومهم السيد نوح بعناد وهو يشرح للناس (وإن لم يكونوا يصغون حقاً) كيف أن الحراس يحاولون إخفاء الحقيقة بإبعادها فقط، تدافع نوح والحراس، حاول الحراس حمل الأوثان بعيداً وانتهى الأمر بتحطمها جميعاً وبقاء قنينة الكولا لولا في مكانها، وهو الأمر الذي دفع نوحاً إلى القول: "أرأيتم؟..

الآن تثبتون أنكم استبدلتم الوثن الجديد بأوثانكم القديمة.. ألا ترون أنكم مخطئون في الحالتين؟.."

كان من الممكن أن يستمر الأمر إلى نهاية الحفل لو كان هناك توازن في العدد، لكن نوحاً كان معه ابنه، واثنان من تلامذته فقط. وتمكن الحراس - خصوصاً بعد وصول الحراس الشخصيين للسيدة حيزبونة - من تقييد السيد نوح ومن معه واحتجازهم في مكان بعيد، إلى حين انتهاء حفل الافتتاح، لكن ذلك كله أدى إلى تعكير حفل الافتتاح، وأدى تحطم الأوثان إلى أن يشعر السيد عبد المال بالتشاؤم، أما السيدة حيزبونة فقد انتبهت إلى ما لم يكن في حسبانها من معارضة كامنة من قبل نوح.. أقلقها جداً موقفه، وخاصة أنه كان يتحدث عن الأرباح والاستغلال و"كلام كبير" من هذا القبيل.

ما إن انتهى الاحتفال - الذي أفشله السيد نوح بما فعله - حتى أسرعت إلى مكتبها وأوصت مساعديها بإعداد تقرير عاجل عن السيد نوح وعن كل أتباعه. "أريد كل شيء عن هذا الرجل. كل معلومة يمكن

جمعها عنه، وعن أتباعه أيضاً، أسمائهم، عناوينهم، انتمائهم الطبقي ودوافعهم لاتباعه. كل شيء.. غداً قبل المساء أريد هذا التقرير على مكتبي" قالت بلهجة حاسمة.



"لابد أن السيد نوحاً قد جنّ، هل رأيتن ما فعله أمس في الافتتاح؟". قالت السيدة تفاهة بسرعة عندما دخلت على السيدات اللائي صرن يجتمعن في كافتيريا فندق الحياة السعيدة الذي افتتحه السيد أبرهة قبل أسابيع.

ردت السيدة غلاظة: "لا جديد مع السيد نوح. إنه دوماً هكذا. لكننا نرى أنك أنت جننت يا تفاهة. أين غطاء شعرك يا امرأة؟".

"أوه غطاء شعري! هل رأيتن غطاء شعري الجديد؟ أليس جميلاً؟!" قالت السيدة تفاهة وهي تربت بيديها على شعرها.

"لا. لا نرى أي غطاء شعر. نرى شعراً فقط، وبتسريحة جديدة وبلون لم نرَه من قبل على شعرك.

هل صبغته؟ وكيف تخرجين بلا غطاء يا تفاهة؟"
قالت أمي.

"هذا هو غطاء الشعر الجديد. إنه باروكة، شعر مستعار يغطي الشعر الأصلي فيجمع بين المحافظة على تعاليم الأجداد، أي ما يسمونه الآن (الأصالة) و بين مواكبة الذوق الحديث، أي (المعاصرة)..

قالت السيدة نميمة بحيرة: "لا أعرف من معاصرة. أما أصالة فأعرفها منذ أن كانت تلعب حافية في الأزقة. أعرف كل شيء عنها. اسأليني أنا عنها، أما معاصرة فلا أعرفها".

قالت غلاظة: "لا أصالة ولا معاصرة يا تفاهة. لم يفعلها أحد قبلك، ولا أظن الأمر سيكون مقبولاً البتة".
أيّدتها أمي وهي تسأل تفاهة عما قاله زوجها عن الأمر.

"لا يهمني رأي زوجي. أنا حرّة. وقد أكد لي الكاهن عصفور التقيته في مكتب السيدة حيزبونة صواب ما أقول. قال لي: إن الأجداد لم يقصدوا غير الاحتشام لا أكثر. وقال إن واحدة من زوجات الإله سواع - وبناته - كن يضعن الشعر المستعار على رؤوسهن

بدلاً من الغطاء، أي إن الأمر - كما قال لي - ما فيه من خطأ".

"الكاهن عصفور، ما أجمل كلامه، إنه يصعد بسرعة الصاروخ بين الكهنة.. وتستطيعين أن تكوني واثقة أنه سيصير كبيرهم في غضون فترة قصيرة.. " قالت نميمة.

"الكهنة أيضاً منزعجون من السيد نوح. لم يكن لائقاً أبداً أن يفعل هذا ويؤدي إلى تحطيم الآلهة. أن تتحدث عنها بسوء شيء، ولكن أن تضعها وهي راكعة أمام الكولا لولا شيء آخر تماماً!" قالت السيدة غلاظة..

"وكل هذا لا يقارن بإفساد الحفل!" قالت السيدة تفاهة.

"لا أعرف ما الذي يريده نوح بالضبط من كل هذا.. إنه يتحدث عن إصلاح العالم... وعن بناء عالم جيد.. أليس هذا هو ما يفعله السيد أبرهة والسيدة حيزبونة؟ ألا يفترض به أن يكون معهما بدلاً من هنا" قالت أمي.

"أحسنت، العالم الأفضل الذي كان السيد نوح يوجع رأسنا بالحديث عنه منذ أن كنا صغاراً يقدمه لنا الآن السيد أبرهة. وبدلاً من أن يشكره السيد نوح يشاغب عليه بتصرفات مسيئة كهذه." قالت السيدة تفاهة.

"إذن العالم الأفضل الذي كان السيد نوح يتحدث عنه هو المول؟ كيف لم أربط ذلك من قبل؟" قالت السيدة تفاهة.

"والسيد نوح يتصرف كأي فاشل قضى حياته في الكلام فقط، وعندما يرى شخصاً ناجحاً يكون عدواً له" قالت تفاهة بثقة.

"نادراً ما يبدر منك استنتاج مهم كهذا يا تفاهة. من أين جئت به؟" قالت السيدة غلاظة.

"من السيدة حيزبونة. قالت لي إنها أخذت أمر السيد نوح بشكل جاد لأنه يسيء إلى سمعة المدينة جداً. فبعد كل ما فعله السيد أبرهة للمدينة يظهر من بين أبنائها من يتهمه هكذا..".

"دعينا الآن من نوح ومن سيرته.. أخبريني يا تفاهة، من أين جئت بغطاء شعرك الجديد هذا، لم أره في

القليس، مع أني أحفظ كل جناح من أجنحته؟" قالت نميمة باهتمام.

"هذه بضاعة من تحت الطاولة" قالت تفاهة وهي تربت على الشعر المستعار، وهي سعيدة باهتمام السيدات، وسعيدة أكثر بأن نميمة أسمته غطاء الشعر "لكنه سينزل قريباً كما أخبروني، وبالوان مختلفة"..

سالت السيدة غلاظة: "أيوجد غطاء شعر مثل هذا! ولكنه أصفر؟ أريد أن أستعيد شكلي الأصلي.. إذ إن أمي رحمتها الآلهة أخبرتني أني كنت قد ولدت بشعر أشقر تماماً"..وكانت كل السيدات يعلمن أن شعر السيدة غلاظة أجعد وأسود، لذلك ضحكن جميعاً بصوت عال.

"لِمَ الضحك يا محترمات؟ هل تقصدن أن أمي تكذب؟ لقد صار شعري هكذا بعد أن نقرني ديك مصاب بالزكام، عسى أن ياكل وجوهكن ديك مثله" قالت السيدة غلاظة بحدة.

"لا تقلقي يا غلاظة، كل الألوان متوافرة، كل الألوان!" قالت تفاهة وهي لا تزال تضحك.



حدث كل شيء بسرعة. كنت عائداً لتوي من درس الحياة الذي يعطيه لنا ذو الرجولة المبكرة، عندما جاء الحرس فجأة من الخلف وأخذوني، لم أستطع أن أفعل شيئاً، لم أستطع أن أقاوم. في الحقيقة أدركت أن لا جدوى من المحاولة. فسكنت واستسلمت لهم. في البداية لم أدرك أنهم حرس أصلاً. لم أكن قد رأيتهم. وتصورت أنني أتعرض لخطف من عصابة من أجل أن أبي ثري، وسيضطر إلى دفع فدية. لكن تبدد ذلك التصور عندما رأيت أن من شدد قبضته علي - ووضع الأغلال في يدي من الخلف - كان يرتدي ملابس الحرس. تصورت عندها أن ثمة خطأ ما، وأنه سيتصحح فور أن يتبينوا ذلك. لكن عندما وصلت إلى مركز الحرس، رأيت كل أصدقائي الذين كانوا معي في الدرس. فهمت عندها أن الأمر ليس خطأ بالضبط.

أدخلونا جميعاً عدة مرات إلى شخص لم نرَ وجهه لأنه يختفي خلف ضوء ساطع يعمي أبصارنا. أحياناً كان يسألنا سؤالاً واحداً فقط، وأحياناً كان يظل صامتاً، أخذوا لنا عشرات الصور في مختلف الاتجاهات. وأخذوا بصمات أصابعنا العشر، بعد ذلك عزلوا كل

مجموعة منا على حدة، وليس من الصعب فهم الأساس الذي تم تقسيمنا عليه: كل أولاد الأغنياء والميسوري الحال - وأنا منهم - وضعوا في غرفة واحدة، بينما وضع أولاد الـفـقـراء - الأراذل - فـي غـرفـة أخـرى. قـبـل أن يقسمونا جعلونا نمر على الغرفة التي وضع فيها الفقراء. كانت سيئة جداً، بلا نوافذ.. وتفوح منها روائح مثيرة للتقزز، الأمر الذي جعل المكان الذي وضعنا فيه يبدو كالجنة مقارنة بالمكان الذي وضع فيه زملاؤنا. لم يكن هذا كل شيء، فقد كنا نسمع أصواتاً عالية كالصراخ تاتي من هناك.. كما لو أنهم كانوا يضربون، لم نتأكد من ذلك. ولكننا لم نمر بشيء مماثل. كانت معاملتنا - عموماً - جيدة، كما لو أن ثمة اعتباراً لخصوصية أننا أولاد أغنياء، كان الحراس يقولون لنا كل خمس دقائق، وهم يظهرون أسفهم علينا: "ما الذي جاء بكم إلى هنا؟.. أنتم أولاد ناس.." وكان ذلك يعني بالضبط أن الفرق بين الناس وبين غيرهم هو امتلاكهم للمال فقط. وكان ذلك يعني أيضاً أن الفقراء ليسوا أناساً أصلاً..

كل الأسئلة - في التحقيق - كانت تدور حول انتمائنا لما أسموه (التنظيم الفوضوي)، منذ متى وأنا أشعر بتعاطفي مع الفوضويين. هل هددوني لكي أنضم إليهم؟ ما الذي جعلني أميل إليهم؟ ما هي خططهم؟ هل شاركت في أي منها؟ هل ذكروا أسماءً معينة يجب التخلص منها؟ من الذي جعلك تنتمي إليهم؟ أين كنت تلتقي بهم؟ مع من؟ نريد أسماء. أسماء. أسماء. وأخيراً، "هل لديك أقوال أخرى؟" وبعدها، وقع على أقوالك.

لم أفهم في البدء ما المقصود بالتنظيم الفوضوي، ولم أفهم أصلاً كيف يكون التنظيم فوضوياً، لكن مسار الأسئلة كله كان يقصد السيد نوحاً وأتباعه، وكان الإصرار على تكرار كلمة (فوضويين) له المفعول نفسه الذي يقوم به المشهاد.. لم أفهم أبداً كيف أن نوحاً - الذي يقوم بتنظيف الشوارع وتعليم الأطفال الكتابة - يوصف بأنه فوضوي؟ من هو المنظم إذن؟..

لم يستغرق الأمر طويلاً على أي حال. فبعد نحو ساعتين جاء والدي وقام باستلامي كما قالوا. كما لو كنت شيئاً، طرداً أو سلعة، كما لو أن الإنسان في ظل

عصر الكولا لولا ليسَ أكثر من شيء، كما لو أنه فعلاً كذلك.

توقعت فوراً أني ساضرب من قبل والدي، لم يكن والدي يهتم إن كان نوح فوضوياً أم لا، لكنه كان يعرف تماماً أن نوحاً يكفر بالآلهة، وأن أتباعه كذلك مثله، لا يؤمنون بأي من الآلهة التي يخلص لها والدي، بالإضافة إلى أن موضوع جمع النفايات من الشارع أمر لم يكن لوالدي أن يتحمل فكرته أصلاً، كيف يفعل ابنه سليل الحسب والنسب ذلك؟.

لدهشتي لم ينبس والدي بكلمة، طوال الطريق ظل صامتاً، ومتجهماً في الوقت ذاته. توقعت أن يكون قد قرّر تأجيل الضرب لحين الوصول إلى البيت، لذلك أسرعت فور وصولنا إلى الاحتماء بأمي، التي أسرعت بدورها إلى احتضاني بينما كان أبي يقترب والشرر يتطاير من عينيه. رفع والدي يده عالياً ورأيته يهوي بها بقوة،أغلقت عيني وزدت اختباءً خلف أمي. سمعت صوت يده وهي تهوي ضرباً، لم أشعر بالضرب. سمعت صوت أمي، كانت يده تهوي عليها، للوهلة الأولى ظننت أن يده سقطت عليها عن طريق الخطأ، لكنه انهال

عليها ضرباً، كانت أول مرة أرى فيها والدي يضرب أمي. كان الشرر يتطاير من عينه، أمسك بها من شعرها وهو يقول:

"كان يجب أن أعرف عندما أتزوج واحدة مثلك أن واحداً من أولادي قد يصبح كما كنت".

قالت له وهي تصرخ من الألم: "ماذا تقصد؟ ما الذي حدث؟".

قال لها وأسنانه تكاد تصطك: "ابنك نور، ها هو ذا قد كبر ليصير كما كنت، ها هو ذا يتبع الصابئ نوحاً، كما كنت أنت قبل الزواج".

أمي، كانت من أتباع نوح؟..

لم أعد أسمع. دارت الأرض بي. أحسست أن ضربات أبي كلها لم تكن تعدل قوة هذه الجملة التي هوت على رأسه بأقوى مما كانت ستفعل كل ضرباته لو كان وجهها لي.

لم أشعر بعدها بشيء.

  

في صباح اليوم التالي، ذهبت لأمي، كانت تجلس في غرفة منعزلة، كما لو أن والدي قد فرض عليها ذلك، كان واضحاً أنها لم تنم. وأنها قضت الليل في البكاء. كانت والدتي تبدو ضعيفة وبحاجة للحماية. في هذه المرة شعرت أني أنا القادر على حمايتها، وليس هي كما كل مرة. شعرت أن صلتي بها صارت أقوى. شعرت أنها أقرب إلي من قبل.

احتضنتها.. شعرت أني أحتضن رفيقاً قديماً بالإضافة إلى أمي. همست في أذنها: "أخبريني.."

قالت من بين دموعها: "كنت لا أزال صغيرة، وكنت أؤمن بان بالإمكان صنع عالم أفضل. لم أهتم حقاً للأوثان منذ أن كنت صغيرة. لم أشعر بشيء قط تجاهها. لكن كلام السيد نوح شدَّني. كان يتحدث عن إله واحد حقيقي. عن عالم آخر نصنعه بأنفسنا. آمنت بما قال. آمنت بالإله الواحد. آمنت بضرورة أن نبني عالماً آخرَ..".

"ما الذي حدث؟"

"صرت أشارك في دروس السيد نوح، وأخرج مع

تلامذته لمساعدة الفقراء وتعليمهم. كنت الأكثر نشاطاً في المجموعة. كنت شعلة من الحيوية. لم أتخلف مرة عن حضور درس أو مساعدة أحد".

"ما الذي حدث؟".

"لم يحدث شيء. هذه هي المشكلة، لم يحدث أي شيء مما كنت أريده. العالم الذي كنت أنتظره لم يأت أبداً. لكن الذي أتى هو والدك، أتى ليخطبني، وكان فرصة لا تعوض لأي بنت، ثري ووسيم من عائلة، وتجارته ناجحة. كان لديه شرط واحد، أن أنسى أمر نوح وإلهه الواحد".

"ما الذي حدث؟".

"قلت لنفسي أني لن أنسى أمر نوح والإله الواحد.. لكني ساوازن بين الأمور، سأتزوج والدك وأحاول إقناعه بالتدريج"..

"ما الذي حدث؟".

"أخذتني الحياة، أخذتني حياتي الجديدة، كما يأخذ مجرى النهر القشة الصغيرة. حاولت أن أوقف الأمر،

لكن مع ولاداتي، ومع تفاصيل حياتي الجديدة، حياة الثراء والجلسات النسوية، فقدت القدرة على كل شيء. لن أقول إني آمنت بالآلهة أبداً. بقيت لا أهتم لها، لكن كل تلك الشعائر والأعياد والعلاقات التي تحيط بها، صارت تحيط بي مثل خيوط عنكبوت تحيط بحشرة، لم أستطع الخروج منها"..

".. ونوح؟.. والإله الواحد؟..".

"لن أقول أبداً إني تركت إيماني بالإله الواحد، لكني كلما فكرت به كنت أخجل من نفسي.. لقد تركته، وتركت نوحاً. تركت تلك الفكرة عن ذلك العالم الجديد الأفضل، وانغمست في العالم الذي كنت أحلم بتغييره، بل صرت سيدة من سيدات ذلك العالم. كيف يمكن لي أن أواجه نوحاً.. أو ذلك الإله الواحد.. أو حتى أواجه تلك الفتاة التي كنتها.. دون أن أغرق في خجلي. لذلك فضلت أن أنسى. أن أتناسى. أن أحاول نسيان كل ذلك الماضي، كما لو أنه لم يكن.." قالت ومسحت دمعة من عينها، ثم صمتت قليلاً وأكملت بصوت مختنق..

"عندما رأيت نوحاً بعد كل تلك السنين، يوم أخذتك معي، استيقظت تلك الفتاة في داخلي، كنت أظنها قد ماتت، كنت أظن أنها تغيرت، لكنها استيقظت، وأخذت أشعر بحنين لكل ذلك، لذلك الصدق، لتلك الحماسة، أخذت أشعر بالحنين لما كنت عليه.."

"وما الذي حدث؟.."

"لم يحدث غير أن تلك الفتاة حاولت أن تغير حياتي، لكنها لم تستطع أن تغير شيئاً، من الصعب جداً أن أترك كل ما أنا فيه اليوم لأركض وراء كلام السيد نوح مهما كان كلامه مقنعاً وصادقاً".

ثم التفتت بحدة "قل لي أنت، ما الذي يريده السيد نوح الآن؟ طوال سنين مضت كان يتحدث عن عالم آخر، عن عالم أكثر جمالاً، وها هو ذا الآن هذا العالم قد جاء مع السيد أبرهة، فلماذا يقاومه؟ لماذا لا ينضم إلى هذا العالم الجديد ويساهم فيه؟ لماذا يعرضكم - أنت ورفاقك وعوائلكم - إلى كل هذا؟".

"من قال إن عالم السيد أبرهة أفضل؟" قلت لها..

"إنه عالم مختلف فحسب، عالم أكثر بهرجة، ومليء بالسلع، لكن من قال إنه أكثر عدالة وإنه أفضل، ربما يكون مجرد عالم آخر مليء بالظلم والسلع؟"

"وإن يكن، إنه أفضل من اللاشيء الذي انتظرناه مع السيد نوح! لا يمكنك أن تجادل في هذا"؟. قالت أمي بنبرة كما لو كانت تتوسل إلي.

" لماذا هو أفضل؟ لأن فيه قليساً وكولا لولا وسلعاً عشت حياتك السابقة كلها دون أن تتصوري حاجتها؟ ماذا عن العدل بين الناس؟ ماذا عن تحقيق ما خلقنا من أجله؟ ماذا عما أمرنا به الله الواحد الحق؟".

"كنت أؤمن بهذا الكلام مثلك الآن.. كنت أقوله للجميع. أنام وأصحو عليه.. لكن قل لي كيف يمكن تحويله إلى حقيقة؟ هل يمكن أن يبني بيتاً؟ أو يشتري حليباً لطفل جائع؟ أو دواء لمريض؟".

"لكن هذا لا يجعل من عالم السيد أبرهة أفضل من عالم السيد نوح، عالم السيد نوح لم يحدث بعد، لذلك لا يمكنك المقارنة أصلاً." قلت وأنا أكاد أتوسل إليها أيضاً.

"وهذا ما يجعل عالم أبرهة أقوى. إنه موجود. إنه هناك في المول وعلى الرفوف وخلف الواجهات الزجاجية، مبهرج وملون ومغلف ومكتوب عليه ثمنه الذي عليك أن تدفعه لتحصل عليه. أما عالم السيد نوح فهو مجرد كلمات.. مجرد أحلام..".

كانت محقة، عالم السيد أبرهة كان هناك. يمكن أن تلمسه بيدك حتى لو كان مليئاً بالظلم والاستغلال.. أما عالم السيد نوح فهو لم يأت بعد. كيف يمكن أصلاً أن يصمد؟ ملأني الغم فجأة من إقراري الداخلي لما قالته أمي. تلفت ورأيت قنديل ضوء من بعيد أعادني نوره إلى مكاني. فهمت فجأة الخطأ فيما قالته أمي. الخطأ في فهمها.. في فهمي أنا أيضاً.. في فهم الكثيرين من أتباع السيد نوح الذين كانوا على خطر الارتداد عنه إذا بقوا هكذا..

قلت لها: "هذا هو الخطأ.. لقد حلمت بعالم السيد نوح، وانتظرت أن يأتي. وهذا هو الخطأ، لن يأتي أبداً عالم السيد نوح إذا كان كل ما تفعلينه - أو كل ما نفعله - هو أن نحلم به، وأن ننتظره، علينا أن نساهم في مجيئه.. علينا ان نبنيه.. علينا ان نجعله ياتي".

قلت وشعرت أنني أزداد طولاً من جديد.. شعرت أن الضوء يتدفق من مسامي.. من أنفاسي بينما كنت أنطق تلك الكلمات..

صمت وأحسست أنها على وشك أن تقول أني محق.. لكنها مسحت دمعة أخرى وهي تقول: "ربما كنت على صواب.. وربما كنت على خطأ.. لم أعد واثقة من شيء".

كان عندي أمل، فكرت أن كل شيء سيكون أسهل لو أن أمي رجعت وانضمت إلينا، نحن تلامذة نوح.. أسهل على الأقل بالنسبة إلي..

"أمي، لم لا ترجعين؟.. لم لا تعودين لذلك الحلم الذي علينا أن نحققه؟.. مالك وللسيدة تفاهة ولحيزبونة وللكولا لولا؟ ما الذي يمكن أن يحققوه لك غير فقاعة عابرة؟".

تنهدت أمي وقالت وهي.. "ليس الأمر بتلك السهولة يا نور، الناس يتغيرون، أحياناً أكثر مما خططوا للأمر، أقول لك الآن ما لا يفترض أن أقوله، وما سيغضب والدك مني أكثر مما هو غاضب الآن، أقول لك: إذا كنت

مؤمناً بالسيد نوح حقاً، وبإلهه الواحد الحق، فإياك ان تتركه لأي سبب، لا تهادن في ذلك، لا تقبل بأنصاف الحلول، إذا قبلت، فلا تتخيل ابداً انك ستغلب مجرى النهر، سترى أن المياه اخذتك بعيداً، ستلتفت ذات يوم، وتحاول أن تعود، لكن سترى أن النهر اقوى من ذراعيك.. ولن تستطيع.. هذا إذا استطعت ان تلتفت اصلاً."

انهمرت دموعها بعدها بغزارة، وسكتت، كانت تتحدث عن نفسها، في لحظة ما، أرادت أمي أن تعود، التفتت إلى نوح وإلى تلك الفتاة التي كانتها، ربما عندما رأت نوحاً، ربما عندما علمت أني أتبعه..

شعرت أن ما قالته مهم لي.. مهم لذي الرجولة المبكرة.. مهم لابن نوح.. مهم لنا جميعاً... حتى لا يأخذنا التيار بعيداً..



قال النورس للأفق: يعجبني ذلك..مباشر نعم و لكن حقيقي!

قال الأفق: إنه شيء محزن.. ما الذي يعجبك فيه؟..

قال النورس: الذي يعجبني فيه أنه حقيقي، الكافر هنا ليس شخصاً مسطحاً بلا أبعاد، إنه ليس كافراً فحسب، بل هو كافر مرّ بالإيمان، لكن تراجع عنه بعد أن حاول أن يتصالح مع الواقع، وهو يحسب أنه سيتمكن من فرض شروطه على الواقع لاحقاً.. لكن الواقع هو الذي استفاد من التصالح.

قال الأفق: هذا صحيح.. لكنه مؤلم..

قال النورس: ربما الشفاء أحياناً يكون جزءاً من الألم، لا يمكن لأحد أن يطلب الشفاء ويتذمر من الألم الذي يصاحب الالتئام.



٧

كانت السيدة حيزبونة تراقب ما يفعله ويقوله السيد نوح بقلق بالغ.. كانت تعتقد أن التوقيت الذي بدأ فيه السيد نوح حملته ضارٍ جداً لخططها. كان السيد نوح قد وجَّه نداءً لأُتباعه بالامتناع عن الذهاب إلى القليس، وقد وجدت السيدة حيزبونة في تقارير المبيعات انخفاضاً لا تقل نسبته عن عشرة إلى عشرين في المئة، لم يكن الأمر ليقلق في الأحوال العادية، لكن السيدة حيزبونة كانت تعلم أن أموال أهل المدينة أوشكت على النفاد، وذلك أنهم لم يتعودوا الانغماس في حمى الشراء ولم يحسبوا نتائجها حقاً.. إذا استمر نوح في حديثه عن الاستغلال وبهذا الشكل، وتزامن ذلك مع نفاد الأموال عند معظم سكان المدينة،

فإن نسبة من يسمعه ستزيد، حتى لو كانوا لا يؤمنون بإلهه الواحد، أو به عموماً.. بل ربما سيلفت هذا النظر إلى دعوته أكثر من قبل، وهو ما لا تريده السيدة حيزبونة ولا السيد أبرهة.

اضطرت السيدة حيزبونة، في مواجهة حملة السيد نوح، أن تغير من خططها، وأن تؤجل بعضاً مما كانت تنوي فعله، من أجل تقديم صورة إنسانية للسيد أبرهة، لتكذّب حملة السيد نوح وتجهضها وتجعله يبدو بمظهر الأفّاق الدعي في الوقت نفسه.

في مكالمة بجهاز التحاكي عن بعد، طمأنت السيدة حيزبونة السيد أبرهة الذي كان في مدينة الرجل الأبيض، طمأنته أن بعض النفقات الإضافية لن تؤثر في حجم الأرباح الهائل المتوقع على المدى البعيد.

"لن تكون هذه النفقات أكثر من رذاذ مقارنة بالكنز الذي سنحصل عليه يا سيدي، أنا واثقة من ذلك، وفي المقابل، فإن التأخر عن هذه الخطوة حالياً، قد يجعل الناس يصدقون ما يقول لهم نوح، وهذا قد

يؤدي إلى أن يحدث ما لا تحمد عقباه، ويضيع الكنز من أيدينا..".. "لكني يا سيدي مضطرة أن أطلب منك أن تأتي في الأسبوع القادم لتفتتح بعض المشاريع وتلتقط بعض الصور وأنت تفعل ذلك. الصور ربما تكون أهم من المشروع نفسه. إذا لم تجد الوقت اللازم فاستطيع استخدام الشبيه، مع النظارة السوداء لن يتمكن أحد من اكتشاف ذلك" أغلقت جهاز التحاكي عن بعد وهي تتمنى ألَّا يتمكن من الحضور شخصياً فالشبيه أقل تطلباً وتسلطاً وأكثر دماثة..

في الأسبوع التالي، شهدت المدينة افتتاح عشرات الجمعيات الخيرية، كلها برعاية السيد أبرهة ودعمه وإنفاقه، جمعية لرعاية الفقراء، جمعية لمساعدة ذوي الاحتياجات الخاصة، أي المعاقين، جمعية العوائل المتعففة، جمعية لرعاية الأيتام، جمعية لإيواء الأطفال المشردين، جمعية لمساعدة الموهوبين الفقراء.. كلها دفعة واحدة، وكلها يقص شريطها رجل البر والخير السيد أبرهة، وسط احتفال يحضره وجوه المدينة، ثم يسرع بعدها ليقص شريطاً آخر، وتركض خلفه وجوه المدينة نفسها، لتحتفل أيضاً، وتتناول مرة أخرى المزيد

من الكعك وتشرب المزيد من الكولا لولا. كانت كل تلك الجمعيات - جمعية واحدة بأسماء متعددة، ولا تملك غير مركز واحد عليه عدة (قوائم) بعدد الجمعيات التي أعلنت، وكانت السيدة حيزبونة هي رئيسة مجلس الإدارة لكل تلك الجمعيات، ولم يكن غيرها هناك أيضاً، في كل تلك المجالس، بالأحرى لم تكن قد قررت بعد من سيكون معها في الإدارة.. ولم يكن ذلك ليقلقها، إذ كانت تعلم أن تلك الجمعيات ليس لها حالياً أي دور أو وظيفة غير أن يكون لها اسم من أجل تلميع صورة السيد أبرهة.

ومن أجل ذلك أيضاً، وضع السيد أبرهة (أو شبيهه، لم يكن أحد يعلم) حجر الأساس لبناء مشفى للأطفال المصابين بالأمراض المستعصية. وظهرت له صور وهو يربت على أكتاف بعض الأطفال المرضى، والأيتام في ملجأ الأيتام، ولم تكن هذه الصور حقيقة، إذ إن المدينة لم يكن بها ملجأ للأيتام، لكن تم توليف صورة له تجمع بين صورته وهو يربت على كلبه المدلل، وصورة أخرى لبعض الأيتام في ملجأ في مدينة أخرى..

كذلك تم الإعلان عن منح دراسية مجانية يقدمها السيد أبرهة للفقراء من طلاب المدينة، ويرسلهم للدراسة في أرقى جامعات مدينة الرجل الأبيض، وتم في الوقت نفسه تنظيم قوائم بالمحتاجين من سكان المدينة، حيث سيقدم لهم السيد أبرهة (حصة) شهرية من الاحتياجات الضرورية مثل السكر والشاي والعدس و القمح و ٤ قنان من الكولا لولا للفرد الواحد، حيث تم اعتبار الكولا لولا حاجة غذائية أساسية مثل الخبز والعدس وهو الغذاء الرئيسي لعموم السكان في مدينتنا.

ولم ينس رجل الخير والبر السيد أبرهة المعبد والكهنة من أياديه البيضاء، فقد قدم لهم تبرعات ضخمة يتصرفون فيها كما يشاؤون، وأخرى خصصها لتخريج كهنة شباب وتدريبهم على مواكبة روح العصر، وتم تعيين الكاهن عصفور للإشراف عليهم شخصياً.. وهكذا، وخلال فترة وجيزة بدا السيد أبرهة كما لو كان أكثر من يحب الخير للناس من بين كل من شهدتهم المدينة خلال تاريخها.. وبدا أي كلام يقوله السيد نوح عن استغلال أبرهة للناس في المدينة

من قبيل الظلم والافتراء على الرجل صاحب الأيادي البيضاء..



قال السيد عبد المال للسيد جشع والسيد إمّعة، إنهم يعيشون حتماً "آخر زمن"، ما دام صار على التجار أن يذهبوا لافتتاح الجمعيات الخيرية، أيّده السيد إمّعة طبعاً، أما السيد جشع فقد قال إن ذلك أصبح ضرورة بما أن السيد أبرهة يفعل كل الذي يفعله..فالناس صارت تقول إن الآلهة تبارك في ثروة السيد أبرهة لأنه يساعد الفقراء والمحتاجين.. ولذلك أصبح على ما هو عليه من الثراء.. أيده السيد إمعة أيضاً.

ردّ السيد عبد المال متبرماً: "ومتى كانت آلهتنا أصلاً تهتم للفقراء؟ لم أعرفها إلا غير مكترثة بهم، بل إننا نعبدها أصلاً من أجل ذلك، أم أنكم نسيتم؟ كل هذا الأمر لا يدخل في رأسي إلا كتاجر: الناس تذهب لتشتري من الشخص الذي يعرف عنه أنه يساعد الناس، وهذا وحده يفسر لي سلوك السيد أبرهة مؤخراً.. الربح ثم الربح.. وعلينا أن نفعل هذا أيضاً ما دام هو يفعله.."

أيَّد السيد إمعة ذلك مجدداً، بينما حث السيد جشع على الإسراع.. "علينا أن نكون موجودين في الافتتاح يا جماعة، لا تنسوا الصور لحظة قص الشريط".



"لا أفهم لماذا يهاجم السيد نوح السيد أبرهة هكذا، لم تعرف مدينتنا من هو أكثر طيبة منه، حتى إني أعتقد أنه يساعد الفقراء الذين لا يستحقون المساعدة، إنه طيب أكثر من اللازم".. قالت السيدة تفاهة.. "تخيلوا يا سيدات أني اضطررت أمس لإعداد القهوة بنفسي، لأن كل الخدم ذهبوا مرة واحدة لاستلام الحصة الشهرية، مع أني لم أقصر معهم مرة، إنهم يأخذون كل الفضلات ومع ذلك يذهبون لاستلام حصة السيد أبرهة!، ويتركونني وحدي لأعد القهوة بنفسي، هل هناك جحود أكثر من هذا؟.. هل يستحق أشخاص كهؤلاء المساعدة؟!"..

"ذهبت أم صابر أيضاً أمس لتسجل ابنها في قوائم المنح الدراسية، عادت ورأسها مرفوع شبرين وهي تقول: إن ابنها سيدرس في الخارج، كما لو أنها تعيرني بأن أولادي لم يدرسوا في الخارج" قالت أمي..

"إنهم مشكلة هؤلاء الفقراء، قليلاً من المال فقط ويلتهموننا التهاماً، ألا ترون حكمة الآلهة في إبقائهم كما هم؟" قالت السيدة غلاظة..

"صرت اعتبر أن طيبة السيد أبرهة الزائدة عن حدها هي خطوه الوحيد.. حقاً لا يوجد إنسان كامل، حتى السيد أبرهة نفسه!" قالت السيدة تفاهة..

"سمعت أنه يبرر ذلك بالقول إن الفقراء لو شبعوا لتحسنت أخلاقهم، ولكفوا عن السرقة" قالت نميمة.

"أتصور العكس!" قالت غلاظة.. "أتصور أنهم كلما شبعوا زادت سرقاتهم وزادت عيونهم فراغاً.. من الأفضل إبقاؤهم على القليل من الجوع..".

"بكل الأحوال.. ربما كانت الطيبة الزائدة خطأً من أبرهة، لكن لا أفهم كيف يمكن للسيد نوح أن يتهمه بكل ما يتهمه به من ظلم واستغلال "قالت السيدة تفاهة..

"صحيح، لا يمكنني أن أتخيل ظلماً وغلاظة أكثر من هذا!.. شيء لا يعقل" قالت السيدة غلاظة..

هزت السيدة نميمة رأسها بتفهم: "موقف السيد نوح مفهوم تماماً.. إنه يغار من السيد أبرهة.. الغيرة!، اسألوني أنا عنها!"..

❖ ❖ ❖

حدث انحسار حقيقي في أفراد مجموعتنا، ليس لأن الشوارع صارت نظيفة فجاة، ولا لأن الأمية انتهت من المدينة، ولا لأن الفقراء تحسّنت أوضاعهم فجاة، ولكن لأن عدداً كبيراً من أفراد المجموعة قد حصلوا على وظائف بدوام كامل، حدث ذلك فجاة وفي خلال أيام، ثم تبين أن وظائفهم هذه قد توزعت في مول السيد أبرهة.. وفي فندق السيد أبرهة، وفي مشهاد السيد أبرهة.. وحصل بعض منهم على وظيفة في مكتب السيدة حيزبونة، التي أخبرتهم أنهم سيحصلون على دورات في مدينة الرجل الأبيض في شؤون المصارف من أجل التمهيد لافتتاح أول مصرف في المدينة والذي يملكه السيد أبرهة طبعاً..

تبين لاحقاً أن هؤلاء جميعهم قد عرض عليهم العمل بشكل مباشر، ولم يتقدموا هم أصلاً، بل قيل إن

السيدة حيزبونة قابلت مجموعة منهم، وقالت لهم من ضمن ما قالته أن السيد أبرهة يفضل العمل مع الشباب وخصوصاً مع شباب أمثالهم، لديهم الحيوية والحرص على المدينة "سيكون مثل دم جديد في عروق المدينة"، لم تقل لهم طبعاً أن أسماءهم أخذت من قوائم الحرس لأتباع السيد نوح، بل إنها لم تقل لهم شيئاً على الإطلاق، ولا حتى كلمة بخصوص أنهم من أتباع السيد نوح، بل قالت كلمة عامة، فيها إشارة ضمنية إلى وضعهم، حيث قالت إن السيد أبرهة يحترم المعتقدات كافة، وكذلك سياسة شركته في جميع فروعها "نحن لا نتدخل بحرية المعتقد لأي موظف من موظفينا، نحترمها جميعاً ما دامت لا تتعارض مع الالتزام بالعمل"..

بدت السيدة حيزبونة في منتهى اللطف ليس بالمقارنة فقط مع حدث في مركز الحرس بل بالمطلق أيضاً.. لم يكن يبدو عليها أنها هي التي طلبت من الحرس أن يفعلوا ما فعلوه، كي يبدو خيار السيد ابرهة في أحسن حالاته، قبل معظم الشباب عرض السيدة حيزبونة، لم ير أي منهم مانعاً لئلا يوافق على العمل

وسط كل ما أبدته السيدة حيزبونة من تأكيدات على عدم تدخلها ولا تدخل السيد أبرهة في (حرية المعتقد) كما أسمته السيدة حيزبونة وهو ما بدا للشباب أنه اسم آخر لما كانوا يسمونه الإيمان أو الكفر..

لم يكن أحد منهم قد اعتبر أن عمله في مول السيد أبرهة أو حتى في مكتب السيدة حيزبونة ارتداد عن إيمانه بدعوة نوح، لكنهم رأوا جميعاً إمكانية التوفيق بين الأمرين، بل إن بعضهم أكدوا إمكانية أن يصير عملهم لمصلحة دعوة السيد نوح "فكروا فقط كم من الناس يمكننا أن نلتقي بهم ونؤثر فيهم داخل المول، فكروا فقط كيف سنصبح مؤثرين حتى في خارج المول لمجرد أن يعرف الناس أننا نعمل هناك.."هكذا كان بعضهم يقول..

لم يحاول السيد نوح إثناءهم مباشرة، لم يتهمهم بشيء، كان يقول باستمرار إن في كل طريق مفترقات طرق واضحة، وإن علينا أن نتخذ القرار في كل مفترق، وأن نتحمل نتائج قرارنا.. وعندما كان يسمع منهم ذلك الكلام المتفائل عن إمكانية استثمار

ذلك لصالح الدعوة، كان يقول لهم إننا إذا ركبنا سفينة الغير، فعلينا ألّا نتوقع أبداً أن نصل إلى مكان آخر غير الذي يقصدونه.. بالضبط كما سيحدث إذا لعبت لعبة جديدة ولكن حسب قوانينها.. لا يمكنك أن تصل أبداً إلى تغيير القواعد ما دمت قد دخلت وأنت موافق على شروطها.

لم يقنع ذلك معظم الشباب، مع أنهم لم يعترضوا علانية أمام نوح، كانوا يرون أنه لا ضرر من المحاولة على الأقل، أو هذا ما كانوا يقولونه بألسنتهم، وربما كانت قلوبهم تداري شيئاً آخر.. لم تكن أجورهم عالية جداً بالمناسبة، كانت أجوراً معقولة بالمقارنة مع أوقات عملهم الطويلة، وهذا ما جعلهم يقولون إنه ليس ثمة مؤامرة في الموضوع، وإن السيدة حيزبونة لا تريد سوى الإفادة منهم، وليس إبعادَهم عن نوح، "لأنه لو كانت نيتها هكذا، لكانت قدمت أجوراً أعلى"..

أما نوح فقد قال إن بعض الفخاخ تكون متقنة بحيث لا تبدو من الخارج فخاخاً.. وفسر ذلك بأن السيدة

حيزبونة لو عرضت أجوراً عالية جداً لكان ذلك سبباً في أن يشك الشباب في الأمر ويعرضوا عنه، لكنها فعلت ذلك إمعاناً في الإخفاء..

والحقيقة أن العمل في القليس كان يجذب الجميع حتى لو كان الأجر أقل.. كانت تلك (البزة) الأنيقة، الزي الرسمي لموظفي المول، وحدها كافية حتى لو كان الأمر دون نقود.. كان ذلك الزي الرسمي، وربطة العنق المصاحبة له، يعني الانتماء لذلك العالم الجديد بكل أضوائه وبريقه..

كنت أراهم ينسحبون من نور السيد نوح، إلى ذلك البريق المبهرج المزيف.. وكنت أرى انسحابهم في عيون السيد نوح مثل دمعة ترفض الهبوط، وتتعلق بأهدابه..

أما أنا فقد قاومت البكاء قليلاً ثم بكيت عندما علمت أن ذا الرجولة المبكرة قد انضم للعمل في المول..

حاولت أن أراه لأتأكد.. رأيته ولم أره.. أقصد أني رأيته لكن وجدته قد تغير..كان يتحاشى النظر في

عيني مباشرة بينما كانت كلماته من قبل تنطلق من عينيه قبل أن تكون على لسانه. قال إنه مشغول بعمله الجديد وسيحاول أن يراني عما قريب، ثم مضى كما لو أنه لا يريد أن يأخذ مني العدوى، أو ربما لا يريد أن ينقل لي العدوى..

انكسرت.. بكيت سراً قبل أن أنام.. تذكرت أمي وما مرت به.. تذكرت ما قالته لي من أن مجرى النهر يمكن أن يأخذنا أبعد مما نقدر عندما نقرر أن نلقي بأنفسنا في النهر.. وعندما استيقظت، أحسست أني قد انكمشت.. أني صغرت في الحجم.. لم أفاجأ عندما وقفت لأقيس طولي على ذلك الحائط.. ووجدت أني قد قصرت بعد ذلك..



قالت السيدة تفاهة وهي تعدل غطاء شعرها الجديد، الذي هو شعر مستعار بلون نبيذي صارخ" إن الشخص الذي يحب مدينته عليه أن يستبدل أغراض البيت مرة واحدة كل سنة على الأقل.. أو يشتري بدلاً عنها حتى لو لم يستبدلها.."

سألتها أمي: "ما دخل هذا بذاك؟ حمى الشراء التي تعانين منها يا تفاهة، والتي نعاني منها جميعاً، لها علاقة بأي شيء غير حب الوطن!"

التفتت غلاظة فوراً لتفاهة وهي تقول: "صحيح يا تفاهة! ما دخل حب الوطن بعودتك محملة بالمشتريات من القليس ثلاث مرات كل أسبوع؟!".

ردّت تفاهة بازدراء: "ثلاثة فقط؟ لا.. أنا أحب الوطن أكثر من ذلك بكثير، أنا أحب الوطن كل يوم.. في الحقيقة أنا أحبه كلما استطعت ذلك!"..

قالت السيدة نميمة وهي تغمز: "نعم، إنها تحب الوطن جداً، اسألوني أنا عن ذلك.."

قالت أمي: " لا أدري كيف يكون لذلك علاقة بما نفعله في المول، وأنتن تعرفن أني لا أقصر أبداً في الذهاب، لكني أعتقد أن لذهابي إلى هناك حب آخر ليس حب الوطن"..

"حب آخر؟ هل تعتقدين أن هذا كلام يليق بسيدة متزوجة؟" قالت غلاظة على الفور..

"دعيها تحكِ يا غلاظة" قالت نميمة بسرعة وقد تصورت أنها وجدت سراً لتنفرد بنشره حصرياً في كل مكان.. وهو ما تتصور أنه سيعزز مكانتها مصدراً أساسياً للأخبار في المدينة، خاصة بعد أن تدهورت مكانتها بعد طغيان المشهاد وأخباره عليها..

"عن أي حب تتحدثين يا عزيزتي.. سرك في بئر، اطمئني" قالت نميمة بتودد وهي تقترب من أمي، أما أمي فقد أبعدتها وهي تبتسم.." ليس ما تفهمينه من ذلك.. أتحدث عن حب النفس.. كلما ذهبت لأتسوق، حتى لو كنت أشتري أشياء لغيري، للأولاد أو لزوجي أو حتى هدايا للآخرين.. اكتشفت أني أفعل ذلك بدافع حبي لنفسي. كلما اشتريت شيئاً كنت أشعر بزهو الذات؛ حتى لو كان الشيء لغيري، أشعر أني أفضل فقط لقدرتي على الشراء".

ابتعدت نميمة وخيبة الأمل تكسو وجهها، لم يكن حب الذات موضوعاً مثيراً ليكون خبراً على الإطلاق.. "حب النفس؟! يا لثقل دمك!"..

قالت السيدة غلاظة: "أظن أن اعترافاً كهذا غليظ

جداً ..تحبين نفسك حتى وأنت تشترين الأغراض للغير؟ لا يتوقع أحد منك هذا أبداً، إذن كل هذه الطيبة مجرد قناع، لقد حزرت ذلك دوماً" قالت غلاظة باشمئزاز.

"نعم، لعل القول يبدو ملائماً أكثر لك يا غلاظة" قالت نميمة.

قاطعتها السيدة تفاهة بصوت عال:" وما العيب في أن يحب الإنسان نفسه؟.. على العكس، أهم حب في حياة الإنسان هو حبه لنفسه.."

قالت نميمة:" يا لثقل دمك أنت أيضاً يا تفاهة.."

قالت تفاهة: "وهل السيدة حيزبونة ثقيلة دم؟ أهم شخص في حياة كل إنسان هو الشخص نفسه.." قالت تفاهة بثقة وهي تتحدى السيدات بكون السيدة حيزبونة نفسها قد قالت هذا الشيء..

"ما علاقة هذا كله بكون التسوق من حب الوطن يا تفاهة؟" قالت أمي لتغير الموضوع..

"آه، نعم، هذا ما شرحته السيدة حيزبونة أيضاً، قالت إنه كلما تسوقنا أكثر زادت أرباح المصانع أكثر، وكلما زاد الإنتاج، ومن ثمَّ زاد الدخل القومي للوطن"..

"الدخل القومي؟ ألم أقل لك إن دمك صار ثقيلاً يا تفاهة!" قالت نميمة.

"إذن التسوق يزيد إنتاج المصانع، وإنتاج المصانع يزيد الدخل القومي، وهكذا يكون التسوق من حب الوطن" رددت أمي وهي تفكر. "لم أحسبها هكذا أبداً". ثم قالت بصوت عال وكأنها تذكرت شيئاً؛ "ولكن هذه المصانع التي نشتري منتجاتها، أليست موجودة في مدينة الرجل الأبيض يا تفاهة؟"..

"نعم، ومن أين سيكون لدينا مصانع مثلها ونحن على ما نحن عليه من تخلف؟" ردت تفاهة بحسرة مصطنعة..

"إذن، الدخل القومي يزيد هناك، في مدينة الرجل الأبيض، وليس عندنا، هل تقصدين أن التسوق دليل على حب وطننا أم على حب وطن الرجل الأبيض؟" سألت أمي بمكر.. كانت تحب التسوق أيضاً.. لكنها على ما يبدو لم تكن تخلطه مع حب الوطن..

نظرت السيدة تفاهة والحيرة تبدو على وجهها "لم أسأل هذا السؤال، لا أدري من أين تأتين بهذه الأمثال،

سأتصل بالسيدة حيزبونة بجهازي الجديد فقد أعطتني رقمها وقالت لي أن أتصل بها متى أحببت، وأرجوكن لا تحرجنني وتطلبن مني الرقم.. إنه خاص جداً ولقد أوصتني ألَّا أعطيه لأحد، أياً كان"..

كتمت السيدة غلاظة غيظها بصعوبة ثم قالت: "أنا أيضاً أوصيك يا تفاهة ألَّا تعطي رقمي لأحد مهما كانت الأسباب، حتى لو كانت السيدة حيزبونة نفسها"..

أخرجت السيدة تفاهة جهاز "التحاكي عن بعد" الجديد من حقيبتها، الجديد دوماً لأنها تستبدله كل شهر تقريباً، وكانت قد علقت عليه حجاباً من صنع الكهنة لمنع الحسد، وقلادة لجلب الحظ، وقالت بينما هي تدق الرقم، وتداري الرقم كي لا تنتبه له السيدات: "عسى ألَّا تكون قد اغلقته لأنها في اجتماع!"

"غير مغلق!" صاحت السيدة تفاهة بفرح، ثم خفضت صوتها "أمرٌ نادر مع السيدة حيزبونة لكثرة مشاغلها، اعذرنني..علي أن أقوم بالمكالمة خارج الغرفة لأسباب أمنية" قالت وهي تخرج مسرعة.

"أقوم بالمكالمة في الخارج لأسباب أمنية؟! اسمي

ليس غلاظة إن لم يكن الهاتف مغلقاً أو أن تكون السيدة حيزبونة قد أغلقته في وجهها، هذا إن كان ثمة رقم خاص أسرت به السيدة حيزبونة إلى تفاهة أصلاً.." قالت غلاظة بحدة..

"ولا يهمكن يا نساء.." قالت نميمة بصوت خفيض "غداً قبل الظهر على أبعد تقدير، سأحصل على هذا الرقم الخاص، ونتكلم معها جميعاً أمام تفاهة، نكاية بها".

عادت السيدة تفاهة وعلى وجهها ابتسامة محرجة..

"ماذا قالت السيدة حيزبونة يا تفاهة؟ " بادرتها أمي..

"قالت إن العالم كله أصبح قرية صغيرة، وإن زيادة الدخل في أي جزء من أجزاء القرية سيعود بالخير العميم على كل أرجائها" قالت تفاهة كأنها تردد ما قالته السيدة حيزبونة وعلامات عدم الفهم بادية على وجهها.

"العالم قرية صغيرة؟ ألم تكوني قد قلت إن مدينة الرجل الأبيض مدينة عملاقة وإن أصغر حي أكبر من مدينتنا كلها؟" قالت أمي.

"نعم، صحيح، ولكن هذا ما قالته السيدة حيزبونة، هل تريدين أن تعترضي على كلامها؟.. أليست هي الأكثر تقدماً؟ هل هذا جزاؤها هي والسيد أبرهة وهما يسهران على تقدم مدينتنا وجعلها جزءاً من العالم الجديد؟".. قالت تفاهة وصوتها يتهدج تأثراً..

"العالم الجديد الذي تقولين إنه قرية صغيرة؟" قالت غلاظة مستهزئة..

"لا تكبري الموضوع يا تفاهة، لا أحد يقلل من دور السيدة حيزبونة والسيد أبرهة، فقط اشرحي لنا كيف يكون التسوق حباً لوطننا إذا كان يزيد الدخل القومي في وطن آخر؟" سألت أمي..

"قلت لكن إن العالم الجديد صار وطناً واحداً.. ولم يعد مثل ذلك العالم القديم الذي فيه عدة أوطان، وعندما يزيد الدخل القومي في مكان ما، فإن ذلك سيعود بالخير للجميع في كل مكان" قالت تفاهة..

"نعم، اشرحي لنا كيف" قالت أمي بإصرار..

"ربما يعود ذلك لأن العالم الجديد، عالم السيد أبرهة، كلما زاد فيه الأغنياء غنى، قل فيه فقر الفقراء، خلافاً

للعالم القديم الذي كان فيه الأغنياء يزدادون ثروة والفقراء يزدادون فقراً.."

"نعم، كان نوح يصدع رؤوسنا بذلك طوال الوقت، كما لو أن الفقراء كانوا من بقية أهله" قالت غلاظة ورمقتها أمي شزراً وهي تسأل: "وكيف تغيرت هذه المعادلة..؟"

قالت تفاهة وهي سعيدة باهتمام السيدات: "في العالم الجديد، كلما زادت ثروة الأغنياء، أنفقوا أكثر، بنوا بيوتاً أكبر، وسافروا أكثر، وذهبوا إلى المطاعم أكثر، واشتروا أشياء أكثر.."

"وكيف يجعل ذلك الفقراء أقل فقراً؟ " تساءلت أمي..

"كنت أحسبك أذكى من هذا يا أم نور.. كلما بنوا بيوتاً أكبر، احتاجوا عمالاً أكثر للبناء، والعمال ممن هم، من الفقراء طبعاً، وهكذا سيأخذون أجوراً، وكلما سكنوا بيوتاً أكبر، احتاجوا خدماً أكثر، والخدم ممن؟ من الفقراء أيضاً.. وكلما سافروا أكثر احتاجوا إلى سواق أكثر، وخدم أكثر، وكلما دخلوا مطاعم أكثر أعطوا إكراميات أكثر للنُّدل وخدم

المطاعم، ومن هم هؤلاء؟ إنهم الفقراء الذين سيقل فقرهم. وكلما اشتروا أشياء أكثر ألقوا بأشياء أخرى في القمامة، واحتاجوا إلى عمال أكثر لرفع هذه القمامة.. ومن أين سيأتون بهؤلاء؟ من الفقراء طبعاً.. وهكذا كلما زادت ثروة الأغنياء، اشتغل الفقراء أكثر، وقلوا فقراً، وعاش الجميع في ثبات ونبات، وسعادة وهناء، وخلفوا المزيد من الصبيان والبنات، الذين سيشترون المزيد من الأشياء، وسيزيدون الدخل القومي، وهكذا.." ختمت السيدة تفاهة حديثها بابتسامة مماثلة لابتسامة السيدة حيزبونة عندما ختمت هذا الحديث الذي حفظته تفاهة عن ظهر قلب.

"هكذا إذن!" علقت أمي بسخرية..

أما السيدة غلاظة فقد قالت: " أعرف شيئاً واحداً عن هذا، كلما ازداد الأغنياء غنى، ازدادوا بخلاً وشحاً ونتانة"..

أيدتها السيدة نميمة، وأكدت أنها مستعدة لتعد أسماء كل الذين ازدادوا بخلاً مع ازدياد ثروتهم، وقالت طبعاً "اسألوني أنا عنهم".

نهضت السيدة تفاهة وهي تقول: "كان هذا في العالم القديم.. عالم يقول إن التوفير هو الأصح، أما الآن فكل شيء تغير في العالم الجديد، ولم يعد ممكناً لشخص ثري إلا أن يثبت أنه ثري عبر شرائه وإنفاقه في كل خطوة، وهكذا يفيد ويستفيد، هل تعرفن أن الكاهن عصفوراً لديه كتاب جديد عن هذا، عنوانه حب التسوق من الإيمان؟ والآن اعذرنني جميعاً، لقد تأخرت عن موعد التسوق، علي أن أثبت أني أحب الوطن جداً.. من منكن تريد أن تثبت ذلك؟"



عندما أعلن مصرف المدينة عن البدء باستخدام (بطاقات حجرية خاصة) بدلاً عن القطع النقدية، ثارت ثائرة التجار في المدينة، خاصة أولئك الذين لم يتمكنوا من أن يشاركوا في مول ما، أو أن يؤسسوا مولاً جديداً كما فعل السيد عبد المال..

"ما الذي يفعله بالضبط السيد أبرهة؟ ما الذي يريده بالضبط؟ كيف يمكن لنا أن نتنازل عن حقنا في أخذ النقود من الزبون. كيف ندعه يمضي ومعه

مشترياته - بمجرد أن تمرر تلك البطاقة الحجرية اللعينة - من دون أن يفتح جيبه، ويخرج النقود منه، ومن أن تدخل النقود في جيوبنا نحن، أو في الدرج أمامنا، أو في الخزينة خلفنا؟"..

كان هذا هو رأي السيد جشع، ومعظم التجار الصغار وكذلك أصحاب الدكاكين الصغيرة الذين كانوا يقولون إنه لولا أن بعض السيدات يتكاسلن عن الذهاب إلى المول طوال الوقت، وأنهن ينسين شراء بعض الأشياء عندما يذهبن، لما وجدنا أحداً يدخل علينا أصلاً..

"صرنا نعتمد على ضعف ذاكرة الزبائن، أحدهم نسي شراء علبة كبريت، والأخرى نسيت شراء الملح، وهكذا ياتون إلينا ".

لم يكن السيد عبد المال أقل صدمة من باقي التجار. لكنه كان، كما وصفته السيدة حيزبونة "الأكثر مرونة". كان قد تربى على الشكل التقليدي للنقود، قطع معدنية، يجمعها منذ طفولته، أو أوراق بألوان معينة وقيمة معروفة ومعلومة، لكن "هذه

البطاقة الجديدة" كانت غريبة عنه، وكان هو غريباً عنها، ومع ذلك، فقد كانت الكولا لولا غريبة أول الأمر، وكان "عرق السوس" هو الشراب المفضل لدى أهل المدينة منذ قرون، ولكن وخلال أشهر، اكتسحت الكولا لولا كل شيء، وصار عرق السوس وبائعه، مثل تذكار عن زمن قديم، وصار رمزاً لكل ما هو قديم وبالٍ، ولا يتناوله غير الذين لديهم متاعب في المعدة.

كذلك "المول" كان غريباً جداً بالمقارنة مع السوق الشعبي ذي الدكاكين المتقابلة والزقاق المسقوف الذي كان الناس يقصدونه منذ قرون، والآن جاء المول وأطاح بالسوق الذي هجره الناس، وصارت لافتة "للإيجار" أو "للبيع"، على معظم الدكاكين التي اضطر أصحابها إلى الهجرة إلى المول عبر المشاركة فيه.. أو استئجار زوايا خاصة فيه ونقل بضائعهم وتجارتهم من السوق الشعبي المهجور، الذي صار خلفية لبطاقات المعايدة، إلى المول الحديث المزود بأجهزة التكييف العملاقة..

كذلك كان السيد عبد المال يتصور أن الأمر سيكون مع هذه البطاقة الغريبة بالمقارنة مع النقود،

كان السيد عبد المال، عبداً للمال طبعاً، وكان ولاؤه الأول والأخير هو للمال، لكنه كان يدرك أن المال قد يكون مرة ذهباً، ومرة فضة، ومرة عملة معدنية، أو ورقية، وقد يكون أيضاً تلك البطاقة الجديدة...

بالإضافة إلى هذا، كان السيد عبد المال يعرف تماماً، أن السيدة حيزبونة ومن بعدها السيد أبرهة، لم يكونا ليقدما على العمل بهذه البطاقة لولا أن فيها المزيد من الربح، كان عبد المال يعرف تماماً، أنهما مثله، يعبدان المال أيضاً، بمختلف أشكاله، وبغض النظر عن الإله - أو الآلهة - الذي يقولان إنهما يدينان بديانته كان السيد عبد المال واثقاً من ذلك. وكانت ثقته بهذا أكثر من ثقته بالشكل التقليدي للمال الذي تربى عليه..

لم يكن قد فهم بالضبط كيف سيكون الربح أكثر.. لكنه كان واثقاً أنه سيفهم ذلك لاحقاً.



شرحت السيدة حيزبونة الأمر للسيد عبد المال بينما هي توضح له كيفية استخدام البطاقة، قالت له

إن الناس عموماً تشعر بالضيق عندما تنفق النقود، ذلك أن النقود تنقص من المحفظة، وهذا يجعلهم يشعرون بالضيق وقد يجعلهم ينفقون أقل..

"لذلك فقد كنا نبحث عن طريقة تجعلهم يشترون أكثر، وبالوقت نفسه، لا يشعرون أن أموالهم تنقص، لا يشعرون بهذا الضيق الذي يعرقل ازدهارنا" قالت حيزبونة وهي تضيق عينيها كما لو كانت تبحث الآن فعلاً..

"ولقد توصل خبراؤنا إلى الحل: البطاقة! أنيقة وخفيفة وحديثة، وترجع إلى المحفظة كما هي، دون أن يبدو عليها أنها نقصت حتى لو اشترى أحدهم المتجر كله، ليس كما النقود التي ستنقص فوراً وتنغص بنقصانها على صاحبها.." قالت حيزبونة بلهجة منتصرة.

فكر السيد عبد المال بعمق وقال لها: "أيشبه الأمر البيع بالآجل؟.. أو ما كنا نفعله مع زبائننا الذين نعرفهم، حيث نسجل عليهم في الدفتر، ويكون الدفع لاحقاً؟"

"بالضبط يا عبد المال، ألم تكن تلاحظ أنهم يشترون أكثر مما كان موعد التسديد أبعد؟ الأمر يشبه هذا قليلاً لكنه أفضل، لأن التسديد سيبدو بعيداً جداً ومن تلك البطاقة التي لا تنقص، كما أنهم سيشعرون أنهم يستخدمون شيئاً حديثاً وأنيقاً وأفضل من تلك النقود التي ستصير موضتها قديمة.. وسيصير استعمال البطاقة دليلاً على انتمائهم للعالم الجديد، ولذلك لن يوفروا فرصة لإثبات ذلك.. وسيستخدمون البطاقة في كل مكان، يبرزونها بفخر واعتزاز، وكل هذا سيؤدي إلى شرائهم المزيد من السلع والحاجيات، وينفقون أكثر دون أن يشعروا بالضيق، وهذا كله سيصب في جيوبنا ..**المزيد من الشراء يقومون به، والمزيد من الربح لنا**".. قالت وأتبعت قولها هذا بابتسامة وهي تعلم أن كلمة "المزيد من الربح" هي مفتاح السيد عبد المال.

"ولكن أولئك الذين كنا نسجل الديون عليهم في الدفتر، كنا نعرفهم، كانوا معارف وما كانوا سيهربون لأسباب عديدة، ولذا كنا ضامنين أموالنا.. كيف مع هذه البطاقة التي يحملها شخص قد لا نعرفه؟.."..

"هذه البطاقة تعتمد على امتلاكهم لشيء ما.. الذي يسكنون فيه غالباً، مثل رهن.. وإذا لم يدفعوا، سنملك الحق في إخراجهم منه، في امتلاك البيت".. التمعت عينها وهي تقول ذلك وقد خفضت صوتها قليلاً..

"يا لها من فكرة!" قال السيد عبد المال وضربَ السيدة حيزبونة بكتفها "الشيطان نفسه ما كان ليفكر بها".

رمقته السيدة حيزبونة ببرود وهي تزيح يده من على كتفها بقرف "الشيطان؟.. أظنه كان يتدرب عندي هنا في المكتب يا سيد عبد المال".

وقالت في سرها: "لن يتمدنوا أبداً! سيبقون متخلفين مهما حاولنا تمدينهم.."



قال النورس للأفق: أشم رائحة ما، هل تشمها أنت أيضاً؟..

قال الأفق: رائحة فخ مثلاً؟..

قال النورس: يبدو ذلك متوقعاً جداً، ألم يكن الطريق من بدايته أصلاً، فخاً بطريقة ما..

قال النورس: أشعر أني رأيت هذا كله من قبل. هل تشعر بهذا أيضاً؟..

قال الأفق: نعم.

قال النورس: هل كان هذا حلماً رأيناه من قبل؟..

رد الأفق: ربما..

قال النورس: هل نحن نحلم الآن؟..

قال الأفق: لا أدري!..



٨

عندما نادتني والدتي لتقول لي إن أحدهم يطلبني تخيلت أي أحد إلا هو.. ذو الرجولة المبكرة، بعد أشهر من ذلك الانكسار الذي سكن عينيه وجعلني أنكمش في حجمي وأزداد قصراً..

كان واقفاً عند الباب، لم يهرب بعينيه هذه المرة، كما كان يفعل كل مرة عندما أصادفه وهو في طريقه إلى المول أو راجعاً منه..

في عينيه كان الحزن، لكن ليس الانكسار، وكان إلى جانب ذلك، ظلال من ظلال ذلك البريق القديم الذي عرفت، أو هكذا خيل إلي..

قال لي دون مقدمات: "كان السيد نوح على حق.. لقد تركت العمل في القليس، ذهبت لأخبره، ومررت

على كل الزملاء لأخبرهم أيضاً واحداً واحداً.. أريد أن أتمكن من النظر في أعينكم جميعاً دون أن أختنق بها أو أهرب منها.."

"ما الذي حدث؟.. هل تعرضوا لك؟" قلت على الفور.

"أبداً.. كانوا كما وعدوا، لم يتعرضوا بكلمة لما أؤمن به، أو للسيد نوح.. أو لله الواحد الحق.." قال ذو الرجولة المبكرة..

"إذن ما الذي حدث؟.."..

"لو أنهم تعرضوا لإيماني أو للسيد نوح لكان ذلك أفضل، لأن ذلك كان سيكشفهم.. كان سيجعلهم واضحين، وكان ذلك سيكون كافياً لي، أو للزملاء، الذين عملوا معهم، لكي نتركهم.."..

"ما الذي حدث إذن؟.."..

"إنهم يتسللون ببطء، لا يذكرون كلمة سيئة واحدة ضد الله أو نوح، ولا حتى الأوثان الأخرى التي يعبدها قومنا، لكنهم يجعلونك بالتدريج، تتعلق بأوثانهم الجديدة، يجعلونك تحبها، وتحبها أكثر،

وبالتدريج، سيجعلونها محور حياتك، ستدور حولها كما يدور حول الأوثان عبّادها، وبالتدريج لن تعود عبادتك لإلهك - ولا عبادة قومنا لأوثانهم - بالحرارة نفسها.. شيء من طاقة التعلق سيتوجه إلى تلك الأوثان الجديدة، التي تتحرك بخبث ودون أن تقول إنها أوثان.."

"ما هذه الأوثان الجديدة بالضبط؟" سألت..

"بالضبط كما قال السيد نوح. إنها السلع.. كل سلعة جديدة يتعلق بها الناس، ويدمنون شراءها هي وثن جديد.. إنهم يتعلقون بالسلع لأنهم يتصورون أنها تجعلهم أكثر جمالاً وصحة وشباباً، كانوا يلجؤون قبل لأوثانهم لكي ترجع لهم شبابهم وتزيد لهم جمالهم، الآن..، إنهم يتصورون أن السلع تقدم لهم ذلك، كما أن الزوجة التي يهجرها زوجها كانت تذهب إلى الكاهن كي يتوسط لدى الآلهة لترجع إليها زوجها، الآن صارت تذهب إلى تلك الأوثان الجديدة، فتشتري المساحيق والملابس وأحذية بكعب عالٍ كي ترجع لها زوجها، الناس الذين كانوا يشعرون بالتعاسة كانوا يذهبون إلى الآلهة كي تخفف عنهم من شعورهم... والآن صاروا يذهبون إلى المول

لكي يخفف التسوق منها.." كان البريق يزيد مع كل كلمة يقولها، سكت قليلاً وقال: "كل سلعة تصير وثناً بالتدريج، ثم تحل محلها سلعة أخرى، أحدث، أكثر بريقاً، وتصير وثناً آخرَ.. وهكذا..".

"الأمر الأخطر أن كل هذه الأوثان،... كما الأوثان التي يعبدها قومنا، مجرد واجهة، لا وجود لها في الحقيقة... كما كهنة المدينة وعشائرها يتخفون خلف ودّ وسواع ويعوق، فإن السيد أبرهة والسيدة حيزبونة، يتخفون خلف هذه الأوثان الجديدة، في المعبد القديم تقدم القرابين للآلهة ولكن الكهنة هم الذين يأكلونها.. هنا، تقدم ثمن السلع قرباناً، وتصب كلها في جيب السيد أبرهة.."

تخيلت السيد أبرهة والسيدة حيزبونة وهما يحسبان ثروتهما التي تزداد مع كل سلعة جديدة..

قال لي: "تذكرت ما قاله لنا السيد نوح عن ذلك الخيط الرفيع بين أن تستعمل الآلة لتساهم في صنع عالم أفضل، وبين أن تستعملك الآلة لتصير مجرد عبدٍ لها.. تضخ المزيد من الأرباح في جيوبهم.. إنه خيط

رفيع فعلاً، آه ليس رفيعاً فقط، بل إنه خيط شفاف كذلك، غير مرئي، ولذلك فالناس يتجاوزونه دون أن يدركوا ذلك أصلاً.."..

"وماذا فعلت أنت؟" سألته..

"حاولت أن أسير على هذا الخط، مع صعوبة ذلك"..

"وهل سقطت؟.. هل السير على ذلك الخيط أمر مستحيل؟"..

"لا، ليس مستحيلاً.. ولا أظنني سقطت"..

"إذن لماذا رحلت؟ لم تمكث في العمل؟"..

"لأني شعرت أني أعمل سادناً في معبد آلهة لا أؤمن بها... بعض من يعملون هناك لا يدركون ذلك، لذلك فهم لا يحملون عبء الأمر، أما أنا فقد أدركت، وصار الأمر ثقيلاً جداً، أثقل مما يمكنني احتماله.."

انصرف بعدها، قال لي إنه سيمر على كل الزملاء، ليخبرهم.. انصرف، ولكن شعرت أنه ترك خيطاً من الضوء.. تذكرت ما قالته والدتي عن التيار الذي يجرف الإنسان، وفهمت أن التيار - مع قوته - ربما لا يكون

أحياناً أقوى من بعض الناس.. لقد تمكن ذو الرجولة المبكرة، من السباحة عكس التيار، ووصل مجدداً إلى الضفة الأخرى، بينما أخذ التيار الآخرين وهم مستسلمون وغير مبالين أصلاً..

إنه التيار ذاته الذي اخذ امي.. إذن هو لا ياخذ الجميع، لا ياخذ من يريد أن يقاومه، ويسبح عكس اتجاهه..

كنت واثقاً أنه لم يستخدم ذراعيه فحسب، بل تعلق بشيء كان مجذافه في ذلك.. شيء جعله يتمكن من أن يقتحم التيار..

إنها تلك الكلمة، تلك الكلمة التي قالها يوم أضاء القنديل..

«لا إله إلا الله»..



قال الأفق للنورس: هل فهمت الآن لم اسم المتجر "القليس"..

قال النورس: لأنه يحاول أن يكون معبداً "بديلاً"؟

قال الأفق: بالضبط..بشكل مختلف ربما..لكنه معبد بديل..

قال النورس: فهمت! وفهمت أيضاً دور أبرهة..يبدو أن هذا أهم بكثير من كونه أبيض أو أسود..



غرقت المدينة بالتدريج في طوفان السلع والبضائع.. كان لهذا الطوفان مصبان نهائيان، وليس مصب واحد، المصب الأول، كان في جيب السيد أبرهة، المستفيد النهائي من كل سلعة تباع في المول، أما المصب الثاني فقد كان أخطر.. وكان في نفوس أهل المدينة، الذين غيرهم طوفان السلع، وبدّل ملامحهم.. أعاد تشكيلهم من جديد..

لم يكن أهل مدينتنا بالضبط باحسن حالاً قبل ذلك الطوفان، قبل الكولا لولا، والسيد أبرهة، والعالم الجديد الذي اسمه المول.

كانوا يعبدون الأوثان.. وكانوا يظلمون بعضهم بعضاً.. وكانوا عاطلين عن العمل، متخلفين.. ولكن

كان هناك بعض من بقايا طيبة فيهم، كانت طيبة معطلة، مكبلة بالأوثان وبالكهنة وبكل شيء.. لكنها كانت موجودة لا تزال، يمكن أن تستخدم لو أن أحداً فكّ أسرها..

ثم جاء الطوفان، زادت الأوثان وما نقصت، وزاد الكهنة وما قلوا، وتقنعت العطالة عن العمل بقناع مزيف من عمل بلا معنى، وزاد الظلم.. زاد حتى صار الظلم السابق رحمة وعدلاً بالمقارنة، ولكن تلك الطيبة، أو بقاياها على الأقل، تعرضت مع الطوفان إلى التدمير، حتى لم يعد لها أثر..

انغمس أهل مدينتنا في طوفان السلع والحاجات، وكان طوفاناً يملك دوامة هائلة في داخله، دوامة تسحبك دوماً إلى المزيد، فلا تشعر أبداً بالاكتفاء، تشتري سلعة وأنت تتصور أنها ستسعدك وسترضيك وستكفيك، لكن هذا لا يكون إلا لفترة قصيرة، إذ إنك بعدها ستريد المزيد، سلعة أخرى، أحدث وربما أغلى، وستتصور مجدداً أنها ستسعدك وترضيك وتكفيك.. وكانت تلك البطاقة التي ابتدعتها السيدة حيزبونة،

جزءاً من تلك الدوامة، بالضبط كما خططت السيدة لها..

لم يكن أهل مدينتنا قبل ذلك الطوفان، يملكون ما يعيشون من أجله.. كانوا يعيشون فحسب، كانوا يجدون أنفسهم، وقد ولدوا وجاؤوا إلى هذا العالم، لذا كانوا يستمرون بالعيش كيفما كان..

بعد الكولا لولا، صار أهل المدينة يمتلكون ما يعيشون من أجله. صار عندهم هدف للحياة.. لكن ليس ذلك أفضل بالضرورة.. أحياناً إذا كان الهدف خاطئاً، فهو ليسَ أفضل على الإطلاق من اللاهدف. وكان هذا ما حدث مع أهل مدينتي.. إذ إنهم كانوا بلا هدف، فصار لديهم هدف سخيف، لا يفيد أحداً غير السيد أبرهة وجيبه ورصيده في المصرف (الذي يملكه أصلاً..).

صار هدفهم أن يتسوقوا فحسب، أن يجمعوا المزيد من الأغراض والحاجيات، لم تعد تلك الأغراض والسلع لغرض جلب الراحة، أو لتوفير الوقت، بل صارت هدفاً بحد ذاتها، صار التسوق هو الهدف بحد ذاته. الهدف الذي يعيش من أجله الناس في مدينتي..

صار الناس يعتبرون أنفسهم مثل أكياس فارغة..أكياس فارغة يجب أن تملأ بالمشتريات، ولكنها لا تمتلئ أبداً كما لو أنها مثقوبة من الأسفل، بحيث تتسرب كل الأشياء، ويظل الكيس الفارغ ينادي: هل من مزيد؟..



تغير الناس كثيراً في مدينتنا بعد أن اجتاحها طوفان الكولا لولا.. وتستطيعون أن تسألوا السيدة نميمة عن ذلك.. لكن ليس مجرد قول تتفاخر به، بل حقيقة، فقد تغيرت طبيعة (النميمة)، والأخبار التي تتداولها كثيراً.. فقبل الطوفان، كانت جل أخبار السيدة نميمة تتركز حول ماذا طبخت فلانة عندما أقامت دعوتها، وكيف أن زوج السيدة علانة قد أصابه تلبك في معدته من رداءة طبخ زوجته، وكيف أن فلانة الأخرى قد ارتدت ثوباً غير متناسق الألوان في مناسبة ما..

أما بعد الطوفان، فقد صارت أخبار النميمة تتضمن ما لم يسمع في مدينتنا من قبل، مثل أن فلانة طلقت

زوجها لأنه لم يستبدل لها (غاسلة الصحون) - مع من أن لديها أطفالاً - وأن زواجهما كان مستمراً منذ عشر سنوات..

صرنا نسمع عن أم ضربها ابنها لأنها رفضت إعطاءه مالاً لشراء بنطال يسمونه بنطال رعاة البقر.. وأخرى ضربها ابنها الذي تجاوز سن اللعب لكي يشتري بالمال لعبة مربوطة بجهاز المشهاد.

أكثر من هذا وذاك، كان بعض (الأراذل) يسرقون من أجل أن يسدوا جوعهم، كانوا يسرقون جزءاً من المؤونة، أو جزءاً من حمولة فاكهة، قليلاً من العدس أو الأرز، أو قليلاً من المال لشراء القليل من العدس والرز.. لكنهم تغيروا الآن، كانت متطلبات الحياة قبلها لا تتضمن أكثر من سد حاجة الطعام، لكن معنى الحياة تغير بعد مجيء الكولا لولا.. صارت الحياة تعني شراء ذلك الفرن العجيب الذي يقولون عنه في الإعلان إن الطعام فيه مختلف مثل حياة في عالم آخر، أو ذلك البراد الشاسع الذي يكاد يكون بحجم بيوتهم الفقيرة الآيلة للسقوط.. كان حرمانهم من هذه السلع يعني

حرمانهم من الحياة، الحياة بمعناها الجديد الموجود على كل ملصق دعائي..

لم يكن هؤلاء يستطيعون - حتماً مع جرائمهم - أن يحصلوا على تلك الحياة، بل إنهم يكادون لا يحصلون على القليل منها، القليل الذي يدفعهم إلى التطلع للمزيد، والمزيد الذي يكون دافعاً للمزيد.

كانت جرائمهم تحمل أيضاً طابعاً عنيفاً لم يكن موجوداً من قبل، كانوا سابقاً يكتفون بخفة اليد وسرعة الحركة في تدبر أمورهم، صاروا الآن يفعلون ذلك بمنتهى العنف، ولا يكتفون بالسرقة فحسب، بل صاروا يوسعون من يسرقونه ضرباً، أحياناً يدمونه.. **كما لو كانوا ينتقمون منه لامتلاكه الحياة التي لا يتمكنون من امتلاكها..**

"ثلاث طعنات بالسكين من أجل جهاز التحاكي عن بعد؟ لِمَ لم يعطهم إياه على الفور ويشتري أحدث منه؟" سألت تفاهة موجهة حديثها إلى السيدة نميمة التي كانت تحكي عما أصاب ابنها الذي تعرَّض لحادث سرقة وطعن قبل أسبوع.

"لقد منحهم إياه على الفور، ودون أن يقول شيئاً، كان يريد شراء غيره بكل الأحوال و كنت قد وعدته بذلك، لكنهم مع ذلك طعنوه بكل حقد ووحشية.. لم أفهم أبداً السر في ذلك" قالت نميمة وهي تمسح دموعها.

"آه، لعل هذا ما قصدته السيدة حيزبونة بما أسمته الحقد الطبقي الذي تكلمت عنه قبل أيام عندما كانت تفسر لي أمر هذه الحوادث، لم أفهم ما المقصود بالضبط لكن الاسم أعجبني وعلق في بالي، حتى إني قررت أن أسمي كلبي الجديد الذي ابتعته بنفس الاسم (الحقد الطبقي)". قالت السيدة تفاهة.

"هل ابتعت كلباً؟ لماذا؟ وبكم؟ وهل تشعرين بالحاجة إلى الحراسة؟ هل حاول أحدهم سرقتك؟" سألت السيدة نميمة وقد جذبها الخبر وأنساها أمر إصابة ابنها.

"أبداً، (الحقد الطبقي) ليس للحراسة. إنه كلب (زينة) لطيف جداً، وأفكر بشراء كلب حراسة له، أو ربما شراء (إنسان) حراسة من أجله، فذلك أرخص.. لقد كلفني ثروة. لكني أفعل ذلك لأن كل الناس

المتحضرين في مدينة الرجل الأبيض يقتنون كلاباً ليرفهوا عنها، أو لترفه عنهم.. نسيت..المهم إنهم يقتنونها دلالة على تحضرهم"

"ماذا عن الحقد الطبقي؟" سالت أمي..

" إنه أبيض اللون ولكني صبغت شعره بلون قرمزي راق جداً..".

"لا أسال عن الكلب يا تفاهة.. أسال عما قالته السيدة حيزبونة عن حوادث العنف" قالت أمي بنفاد صبر.

"آه، قالت شيئاً لم أفهمه بالضبط عن كون ذلك عرضاً جانبياً لعملية التحول التي نعيشها باتجاه التقدم المقدس، قالت إنه مثل دواء نأخذه لكي نشفى من مرض، لكن معدتنا قد تتلبك قليلاً.. إنه ثمن معقول للتقدم، وعندما سيعم الرخاء على الجميع، سيختفي ذلك كله كانه لم يكن.. وعندها ربما ساغير اسم كلبي حبيبي وأطلق عليه (التقدم)" قالت تفاهة..

"أين أيام زمان، لم نكن نسمع فيها لا بالحقد الطبقي و لا بالكلاب الراقية، رحمتها الآلهة من أيام" قالت السيدة غلاظة..

"بل لا أعادتها الآلهة من أيام. كانت حياة كلاب تلك التي كنا نعيشها. لكن كلاب أخرى من نوعية أخرى غير الحقد الطبقي. هل نسيتن؟ كان السوق مكاناً للخضراوات والبهارات فقط، وكانت حياتنا مملة كأننا لم نكن نعيش، أفضل أن يُطعَن ابنك يا نميمة مئة طعنة، وليس ثلاثاً فقط.. ولكن لا نعود لتلك الحياة المملة.. والآن أستأذن منكن يا سيدات فأنا مشغولة جداً اليوم، علي أن أذهب لشراء معدات الرشاقة من القليس، فكما تعرفن المرأة في مدينة الرجل الأبيض تحافظ على رشاقتها، ولكي نتحضر علينا أن نفعل مثلها.. كذلك علي أن أشتري طعاماً خاصاً للحمية، هل تعرفن أنه أغلى من الطعام العادي الذي تتناوله؟ طبعاً السعر ليس مشكلة، فكما كانت تقول أمي الغالي ليس غالياً.. يجب ألَّا أنسى أن أشتري طعاماً خاصاً للحقد الطبقي، فهو أيضاً لا يحب الأكل العادي، ويفضل علامة تجارية معينة خاصة بطعام الكلاب، أكلها زوجي أمس عن طريق الخطأ، وقال عنها إنها لذيذة جداً، لكن لا تقولوا لأحد.."



كانوا يتحدثون عن موعدٍ ما دوماً..

موعد لنزول سلعة جديدة.. وموعد للبدء بالتنزيلات، موعد لقسط ما، موسم لموسم تسوق. موعد لافتتاح مول جديد.. موعد لتحديد الموعد.. قال لهم نوح: ثمة موعد ما، أهم من كل تلك المواعيد.. وإذا كانت كل المواعيد الأخرى، يمكن أن تقدم، أو تؤخر.. فإن هذا الموعد يتربص لهم، بلا تقديم ولا تأخير..

قالوا له: أي موعد تقصد؟..

قال لهم: موعدكم مع الله، الذي سيحاسبكم على كل ما فعلتموه في هذه الدنيا، هل ستأخذون معكم أكياس السلع آنذاك؟..

قالوا له: صدَّعت رؤوسنا يا نوح بإلهك هذا.. ما الذي يفعله بالضبط، وما الحاجة إليه أصلاً ما دام كل شيء موجوداً في القليس، ويأتي به السيد أبرهة من مدينة الرجل الأبيض؟..

قال لهم نوح: إن كل ما ينتجه الرجل الأبيض، يجب أن يكون مصنوعاً في النهاية من شيء خلقه الله..

تحداهم أن يأتوا بشيء واحد ليس مصنوعاً مما خلقه الله، حاولوا أن يردوا، بحثوا عن شيء واحد "خلقه" الرجل الأبيض وحده، لكنهم فشلوا.. وسكتوا، قالوا له وقد أعيتهم الحيلة: ماذا تريد يا نوح؟ ما الذي كنا نفعله بالمواد الأولية التي تقول إن إلهك خلقها؟ المهم هو من حولها إلى شيء نشتريه، كما فعل الرجل الأبيض.

قال لهم: الأشياء المهمة في الحياة ليست من صنع الرجل الأبيض ولو قالت الإعلانات غير ذلك.. ذكَّرهم بأن الله هو الذي يجعلهم يرزقون بالأولاد والبنات وأن كل إمكانات الرجل الأبيض ستقف عاجزة أمام ذلك..

ذكرهم أن الله هو الذي خلق الماء، مرة بشكل مطر نازل، ومرة بشكل نهر دافق، ومرة بشكل نبع أو عين أو بئر.. هل يمكن للرجل الأبيض أن يصنع الماء؟.. هل يمكن للحياة أن تستمر بلا الماء؟..

قال لهم إن الإنسان مثل النبتة، ليس فقط لأنه يحتاج إلى الماء لينمو، لكنه أيضاً يجب أن يكون مثمراً كما النبتة.. الإنسان الذي لا يثمر مثل نبتة

عقيمة، لا أهمية لوجودها، ولن تحدث فرقاً.. وثمرة الإنسان هي أن يساهم في جعل العالم، أكثر عدالة، وأكثر توازناً... جعل العالم عالماً أفضل.. لا أن يكون كل هدفه هو إنفاق ما صنع من الطبيعة..

قالوا له: "شمس وقمر ونبات وماء وها أنت ذا تحكي عنا وعن أولادنا، ما الرابط في ذلك كله؟.. هل جننت وصرت تحكي عن أمور غير مترابطة؟.."

قال لهم: إن العالم كله، بل الكون كله مترابط، قال لهم إنهم إذا انشغلوا بتفاصيل صغيرة لن يدركوا ذلك، لكنهم كلما حاولوا أن ينظروا إلى الصورة من بعيد، فهموا ذلك الترابط.. قال لهم إن انغماسهم بالتفاصيل الصغيرة... بالسلع.. وبالمزيد من السلع، يعطل عندهم ذلك ويمنعهم من رؤية أن للإنسان مهمة خلق من أجلها.. كما خلق الماء من أجل مهمة.. وكما خلق القمر والشمس من أجل مهمة..

قالوا له: "كفاك فلسفةً، إنما تقول ذلك لأنك لم تحقق شيئاً، كلامك هذا لا يصرَف في المول ولا يمكن أن ياتي لنا بسلعة نشتريها.."

قال لهم ما قال بكل الأساليب، قالها مرة بصوت عال، وأخرى بهمس حميم، قالها مرة كما لو كانت رسالة حب لقومه الذين يحبهم على الرغم من كل شيء، وقالها مرة أخرى كما لو كانت تهديداً أخيراً..

كانوا هم أيضاً يصدّون بأساليب مختلفة، مرة كانوا يستهزئون، ومرة كانوا يتظاهرون بالتصديق فقط لكي يكف عن الكلام، ومرة رفعوا أصواتهم عالياً بالكلام كي لا يسمعوه، ومرة وضعوا القطن في آذانهم، وأخرى وضعوا أصابعهم، وأخيراً وضعوا سمّاعات صغيرة في الأذن تجعلهم يسمعون ما يشاؤون من الأغاني.. أو من كلام أنفسهم.. أو من الإعلانات التي تروج للمزيد من السلع والحياة الجديدة والمزيد من التقدم إلى الأمام.. المهم أن يعزلوا أنفسهم عن كل ما يقوله نوح، أن يكونوا في **معزل** من كل ما يمكن أن يعزلهم عن تلك الحياة..

لم يكف نوح عن الإصرار..

ولكنهم لم يكفوا أيضاً عن الصدود..



قال النورس للأفق: لقد رأيت هذا من قبل، أنا واثق من ذلك، لست أصلاً في حاجة للتأكد منك.

قال الأفق: نعم.. أنت محق.. هذا لا ينسى.. لا يمكن أن ينسى.

قال النورس: شيء آخر لا يمكن أن ينسى، لكني لا أراه هنا..

قال الأفق: هل تقصد عندما دعا عليهم..؟

ردّ النورس بسرعة: نعم، في النهاية عندما كان نوح يحدث الله..

قال الأفق: ربما علينا أن ننتظر..

قال النورس: يبدو ذلك، أنا بالذات انتظرت منذ مدة طويلة.. عليّ أن أقف على السارية كما تعلم..

قال الأفق: لست وحدك تنتظر.. عليّ أنا أيضاً أن أفعل شيئاً عندما يحين دوري..



أعلن مكتب السيد أبرهة، فجاة وبلا سابق إنذار، وعبر بيان مقتضب، صحة الشائعات التي انطلقت في المدينة

قبل مدة، من أن ديون أهل المدينة - عبر البطاقات والبيع الآجل والتقسيط - قد تجاوزت كل الضمانات المعطاة من قبل أهل المدينة، ولأن هناك فوائد بنسب معينة على كل (دَيْن)، فإن المبالغ المستوجب دفعها تصاعدت بسرعة، بل إنها تضاعفت فعلاً..

كان السيدة حيزبونة نفسها هي التي سرّبت هذه الشائعات، عندما ذهبت لزيارة السيدة تفاهة في المستشفى التي دخلتها لإزالة أثر التشويه الذي حدث نتيجة عملية التجميل التي كانت قد أجرتها لشفتيها، وهي العملية التي كان من المفترض أن تكون سرية ولا تستغرق أكثر من دقائق، لكن إصرارها على المزيد من النفخ، والمزيد من المزيد مع أن الطبيب حذرها، أدى إلى انفجار شفتيها، والخضوع لعملية جراحية أكثر تعقيداً، بل والرقود في المشفى، ومن ثمّ انكشاف الأمر، مع أن السيدة تفاهة قالت وأكدت مراراً أن الأمر لا يعدو أن يكون تحسساً من أحمر شفاه جديد، يبدو أنه لم يناسب شفتها الرقيقة، وقد تظاهرت كل السيدات بالتصديق وسألن باهتمام عن نوع أحمر الشفاه كي لا يتورطن بشرائه.

قالت السيدة غلاظة بلؤم: "هل تعتقدين أنك ستتمكنين من الحضور إلى حفلة عيد ميلادي بعد شهرين ومنظرك مؤسف بهذا الشكل؟"

ردت تفاهة بلؤم مماثل مع أن الضمادات كانت على شفتيها: "شفتاي ستتحملان الأمر، لكن لا أدري إن كانت رئتاي ستفعل الشيء نفسه؟".

"ما بال رئتيك؟ هل وضعت عليهما أحمر شفاه أيضاً؟" قالت غلاظة..

ردت تفاهة فوراً:" لا، لكن عيد ميلادك يجب أن يضم عدداً هائلاً من الشموع، بقدر عمرك.. وسيكون الدخان كثيفاً حتماً!".

هنا قالت السيدة حيزبونة: "لا أدري إن كان من المناسب أن تتابعن ياسيدات بالإنفاق بهذا الشكل، ومن ثمَّ لا أعرف إن كان من الحكمة أن تقيمي حفلة عيد ميلادك يا سيدة غلاظة"..

كان هذا صاعقاً للسيدات جميعاً، فقد كانت السيدة حيزبونة تحثهن دوماً على المزيد من الإنفاق، وكانت تعد ذلك أساساً وشرطاً من شروط التحضر

والتقدم التي تروج لها. شرحت السيدة حيزبونة لهن باختصار أيضاً، أن الديون التي ترتبت على معظم سكان المدينة، من جراء تبضعهم المستمر في (المول) تجاوز بكثير الضمانات التي قدموها "أي إنكن يا سيدات اشتريتن أشياء بأكثر من أسعار بيوتكن"..

انتشر الخبر كالنار في الهشيم، تكفلت بذلك، ليست السيدة نميمة، بل كل واحدة من السيدات التي نقلت الخبر المهم، فقد كان ملائماً لهن ألّا يشعرن أنهن وحيدات في هذه المصيبة، قلن لأزواجهن، ولكل من قابلنه في الطريق، وأزواجهن قالوا للجميع أيضاً، وهكذا لم يمض يومان إلا وكانت المدينة بأسرها تتحدث عن تلك الديون التي تراكمت بين من يحاول التضخيم من شأن ما قالته السيدة حيزبونة وبين من يحاول التقليل من الأمر، بل مع من يقول إن الأمر كله ليس سوى مزحة من حيزبونة..

وحسم الأمر ذلك البيان المقتضب، الذي أكّد الأمر دون أن يعطي ولو إشارة واحدة إلى ما يجب فعله من قبل سكان المدينة..



مضت أيام والناس مترددة، هل سيقبل (القليس) الشراء عبر البطاقات التي لم تعد ضماناتها كافية، أم سيرفض ذلك.. أصبح (المول) مقفراً تماماً، في اليوم التالي لتأكيد الخبر، إلا من بعض الأفراد الذين استخدموا العملة التقليدية للشراء المباشر..

لكن بعض الأمهات، أرسلن أولادهن، مع البطاقة تلك، في محاولة استطلاع خجولة أولاً، ولدهشتهن، وجدن أن البطاقة لا تزال تعمل، مع كل ما قيل، وهكذا دبّت الحياة في المول مجدداً، وتعالت أصوات المديح بأخلاق الرجل الأبيض، الذي، مع كل الديون المترتبة على أهل المدينة، استمر يبيعهم كل ما يريدون، وببطاقة لم تعد تساوي شيئاً.. وجرى الحديث عن هذا وعن الأمر بأن يكمل الرجل الأبيض جميله، ويلغي الديون باكملها، وقد قدّم بعض السكان التماساً بهذا الشان إلى مكتب السيدة حيزبونة، وهو الالتماس الذي استلمته حاجبتها ذات الشفتين المنفوختين، وقالت لهن إن السيدة حيزبونة ستتابع الموضوع بنفسها..

بعد بضعة أيام من الانتظار، أصدر مكتب السيدة حيزبونة بياناً يقول فيه إن على من يرغب في معرفة حجم الدين المترتب عليه أن يقدم طلباً بذلك إلى مكتب السيدة حيزبونة، وسيأتيه الرد لاحقاً.. وقفت المدينة كلها تقريباًباستثناء فقرائها طبعاً الذين لم يمتلكوا ما يرهنوه ليحصلوا على بطاقة الشراء تلك، وبعد بضعة أيام، وقفوا مرة أخرى صفاً آخرَ.. ليكتشفوا لاحقاً أن أقل واحد فيهم، قد تجاوز بالشراء سعر منزله مرتين على الأقل، بناءً على الأرقام التي قدمها مكتب السيدة حيزبونة.



انفجرت السيدة تفاهة بالبكاء عندما علمت أنها لم تكن الأولى في حجم الدين المترتب عليها، بل حلَّت في المركز الثالث بعد عمتي السيدة فهيمة، التي جاءت في المركز الأول، وبعد سيدة أخرى لم تكن منافسة حد متوقعة أصلاً..

بالنسبة إلى السيدة تفاهة، ومع أن زوجها قد هددها بالطلاق إذا ثبت أنها السيدة الأكثر (تبذيراً) - على حد

تعبيره - إلا أن الأمر كان بالنسبة إليها مثل سباق لإثبات من هي السيدة الأكثر ثراءً والأكثر تحضراً والأكثر حرصاً على متابعة الموضة..

"فهيمة تغلبني أنا؟ فهيمة أكثر حرصاً على الموضة مني؟.. إن ذلك لا يصدق، وتلك السيدة الأخرى؟ ما كنت لأشغلها عندي يا سيدة حيزبونة.. لو أنك رأيتها لعرفت ما أعني، إنها لا تزال ترتدي أشياء الموسم السابق يا عزيزتي. لابد أن خطأ ما قد حدث، وقد يكون في الأمر تحيز.. لا بد أنهن يعرفن أحداً في المكتب.. أرجوك يا سيدة حيزبونة حاولي مراجعة الأرقام، إن مكانتي في المدينة صارت في خطر، لم أعد قادرة على مواجهة الناس. أرجوك افعلي شيئاً ".. قالت السيدة تفاهة وهي تبكي.

سحبت السيدة حيزبونة نفساً وهي لا تكاد تصدق ما تقوله السيدة تفاهة.. هل يعقل أنها صدقت الدور وانسجمت فيه لهذه الدرجة..

زجرتها بشدة وهي تقول: "تفاهة هل جننت؟ الناس تتدخل إذا تدخلت لكي تقلل من حجم الدَّين وليس

لتزيده. أمرك عجيب فعلاً، كلكم أمركم عجيب.."
ثم تنحنحت وهي تقول بحزم: "ثم انسَي تماماً موضوع الرشاوى الذي تلمحين إليه، نحن من مدينة الرجل الأبيض ولا نعرف هذه الأمور مثلكم "..

" لم أقصد السوء أبداً يا سيدة حيزبونة، لكن تعرفين كم أشعر بالغبن ".

"أي غبن؟! أنت مجنونة تماماً، هل هناك من يتضايق لأن دينَه أقل من ديون الآخرين؟".

"نعم، لأن هذا يعني أنهن أفضل مني، وهذا يقتلني. ألم تقولي إن حب التسوق دليل على التحضر، وعلى حب الوطن، وعلى الإيمان.. وعلى التقدم، كيف يمكن إذن ألّا أتضايق ما دمت لست الأولى..؟"..

انتبهت حيزبونة إلى ضرورة ألا تبدو متناقضة فعدلت من لهجتها "نعم، لكن مركزك جيد أيضاً يا تفاهة، أنت الثالثة، العشرة الأوائل كلهم ممتازون. بل أخبرك شيئاً، العشرون الأوائل كلهم سيحصلون على مكافآت تقديرية. قولي ماذا كنت تفعلين لو كنت مكان السيدة غلاظة، إنها في المركز السابع والخمسين؟!.."..

"غلاظة كانت بخيلة دوماً، ومجرد المقارنة بها تجعلني أشعر بأني سيئة جداً.. ربما حدث خطأ في الحسابات يا سيدة حيزبونة، فقط عديني أنك ستدققين الأرقام.." قالت السيدة تفاهة وهي تتوسل.

" نخطئ في أي شيء، لكن ليس في الحسابات. هل تعتقدين أن حساباتنا تجري في دفتر عتيق كما يفعل العطارون في السوق القديم عندكم؟ حساباتنا تجري بأجهزة لا يمكن أن تخطئ. على العموم أعدك بشيء، إذا كانت الفروق بينكن أنتن الثلاثة طفيفة، فإننا سنعلنكن أنتن الثلاثة أوائلَ، يعني تكونين (أولى مكرر) ما رأيك بهذا؟"..

انفرجت أسارير السيدة تفاهة للمرة الأولى وأخذت تشكر السيدة حيزبونة وتقول إنها ستنقذ بهذا مكانتها في المدينة، وتعدها بأنها ستحفظ لها هذا الجميل طوال العمر. لم تكن السيدة حيزبونة جادة طبعاً. لكنها كانت تريد أن تغلق هذا الأمر، وتنتقل إلى أمر أهم، وهو جعل السيدة تفاهة تنقل للناس، بالذات للطبقة الغنية في المدينة أن السيد أبرهة، لا يرغب في إلحاق الأذى بأهل المدينة، وصحيح أنه

ليس جمعية خيرية ليتنازل عن كل مستحقاته، لكنه في الوقت نفسه يملك الكثير من الأموال، التي لن يؤثر عليها تسوية أمر الديون، ولكن من خلال وسيلة واحدة فقط"..



"حكومة يختارها الناس؟" قال السيد جشع مستنكراً.

"ما معنى هذا بالضبط؟"..

"لا أدري!" قال السيد عبد المال.. "ولكن هذا ما أكدته السيدة حيزبونة لي ولغيري..قالت إن أمر تسوية الديون، وإلغاءها لن يتم إلا عن طريق حكومة يختارها الناس"

"ما بال حاكمنا الحالي، لم لا يتم الاتفاق معه ونخلص؟" قال السيد جشع.

"تقول السيدة حيزبونة إن الناس لم تختر هذا الحاكم. ولذا فقد يتمردون لاحقاً على أي اتفاق يحدث معه، بحجة أنهم لم يوكلوه أصلاً ولم يختاروه، أما إذا اختار الناس (مجلس إدارة المدينة) بأنفسهم، وعقد هذا

المجلس الاتفاقية مع السيد أبرهة فإن أحداً لن يجرؤ بعدها على رفض الاتفاقية."

" ولماذا يرفض أي أحد اتفاقية أسقطت ديونه، إلا إذا كان مجنوناً؟" سأل السيد جشع.

"لا أدري. هذا ما قالته السيدة حيزبونة.. ربما يكون ثمة دين آخر مثلاً في اتفاق إسقاط الديون؟!".



"مجلس إدارة يختاره أهل المدينة؟ كيف يحصل ذلك؟" سألت السيدة نميمة.

ربتت السيدة تفاهة على غطاء شعرها الجديد وقالت، "أخبرتني السيدة حيزبونة أن ذلك يتم عبر صندوق مغلق سيجلب خصيصاً من مدينة الرجل الأبيض اسمه صندوق الاقتراع أو التقريع لست متأكدة، وسنضع فيه من نريد أن يكون في مجلس الإدارة"..

"صندوق مغلق نضع فيه من نريد أن يكون في مجلس الإدارة؟ ألن يموت إذا وضعناه في صندوق؟" سألت أمي بحيرة.

"لا أدري. لم أفكر بالأمر حقيقة، لا أدري لم تشغلون أنفسكن بالتفاصيل، ما أهمية أن يموت من يموت، أو أن يموت الجميع، إذا كان ذلك في سبيل التقدم، في سبيل التسوق والمزيد من المولات والحاجيات والتنزيلات؟" قالت السيدة تفاهة بحدة.

"إنه صندوق لطيف" قالت غلاظة "أعتقد أني سأرشحك يا تفاهة،..سنضعك في الصندوق في سبيل التقدم".



كان السيد (إمَّعة) زوج عمتي فهيمة، هو عملياً المرشح الوحيد، مع أن ثلاثة مرشحين آخرين أعلنت أسماؤهم. واحد منهم كان قد توفي قبل عشر سنوات. وآخر كان مجنوناً يدور في الطرقات وطالما أثار الفزع لأنه كان يهدد بخلع ملابسه (وإن لم يفعل ذلك للإنصاف). وقيل إن سبب ترشيحه أنه كان يقول - فعلاً وقبل أن يأتي موضوع الصندوق وكل ما له علاقة به - إنه هو الحاكم!.

أما الثالث فقد كان رجلاً أعمى فقد بصره وذاكرته وعقله، ولم يكن يتدبر أمره وحده أبداً، إذن

كان السيد (إمّعة) هو المرشح الوحيد عملياً، ومع ذلك فقد كان المشهاد يتحدث عن منافسة ضارية خاضها السيد إمّعة، دون أن يذكر أصلاً أسماء المتنافسين، وطبعاً كانت الإعلانات كلها مجندة للترويج للسيد (إمّعة) "الذي هو مع الجميع في كل ما يقولونه، ولذلك فالجميع معه" كما قال أحد الملصقات الفخمة.

وكان فوز السيد (إمّعة) تحصيلاً حاصلاً إذن، مع ذلك فقد أوصى المشهاد الجميع بالترقب وشوّقهم لمعرفة النتيجة، ولذلك انساقوا تماماً للأمر، كما لو أن ثمة أي فرصة لأن يفوز أي أحد غيره.. وقبل أن تعلن النتيجة، كان السيد إمعة يتظاهر بقلق الواثق من نفسه كما علمته السيدة حيزبونة، لكنه لم يستطع أن يجمع بين الاثنين، أما عمتي فهيمة، فقد انسجمت مع الدور لدرجة أن ضغطها ارتفع في أثناء فرز الأصوات، وأغمي عليها لاحقاً من شدة الفرحة عندما أعلنت النتيجة..



كان اختيار السيد إمعة ليكون رئيساً لمجلس إدارة المدينة، يتعلق بسبب آخر غير طاعته المطلقة، أو هذا

على الأقل ما قالته السيدة حيزبونة للسيدة تفاهة وهي تحاول تهدئتها والتخفيف من بكائها، لأن السيد إمّعة وليس زوجها هو الذي اختير ليكون المرشح الذي تدعمه حيزبونة.

"من قال لك إن الأمر يتعلق بكفاءة أو حتى طاعة السيد إمّعة؟! هل تعتقدين أني أفتقد الناس المطيعين؟ أبداً، السر هو في حبه للظهور، السيد عبد المال، أو زوجك ليسا مهتمين بذلك لأنهما يحبان المال أكثر من الظهور، السيد إمّعة يحب المال طبعاً أيضاً، ومن لا يحبه؟ لكنه يحب الظهور، وهذه صفة مهمة جداً لمن يجب أن يكون رئيساً لمجلس إدارة المدينة..".

لم تقتنع السيدة تفاهة بذلك، فقد كانت تحب الظهور بقدر ما تحب المال والتسوق وكل شيء، ولم تعتقد أبداً أن ثمة فصلاً بين كل هذه الأشياء، لكنها تظاهرت بأنها تؤيد السيدة حيزبونة التي سرعان ما قالت لها: "مع ذلك، أعدك أنك ستحصلين على مكافأة، أنت وصديقاتك، مكافأة لم تكن تحلمن بها..".



"وزيرات؟" صاحت السيدة نميمة وقد فتحت فمها من الدهشة..

"وزيرات وحق آلهة السد، وحق الكولا لولا والمول و السيد أبرهة ". قالت السيدة تفاهة بثقة وقد تهيأت للأمر بإعداد تسريحة جديدة ووضع غطاء من الأصباغ لوجهها، مع أنها تظاهرت أنها قد جاءت على عجل فور علمها بالأمر.. قائلة إن السيدة حيزبونة قد طلبت منها ألا تخبر أحداً "لكني لا أستطيع أن أخفي عنكن الخبر المهم". قالت لهن أيضاً إن السيدة حيزبونة ارتأت أن تحتوي التشكيلة الوزارية على نساء "أسوة" بمدينة الرجل الأبيض.. لا أعرف ما معنى أسوة لكن ما من مشكلة ما دمنا سنكون وزيرات" قالت تفاهة.

"وزيرات؟.. أخيراً تحققت نبوءة أمي" قالت السيدة غلاظة بفرح "كنت كلما بطشت بإخوتي وضربتهن بالعصا تقول لي إني أنفع وزيرة للشرطة"..

"ليس بالضبط.. قالت السيدة حيزبونة إنك ستكونين وزيرة الإنسانية.. ولما سألتها عن معنى ذلك، قالت: إن مهامك ستشمل الاهتمام والرفق بالحيوان، ولن

أوصيك بكلبي حبيبي الحقد الطبقي" قالت تفاهة.

"وأنا، أي وزارة سآخذ؟ "قالت نميمة باهتمام.

"وزارة الأخبار الصحيحة! قالت السيدة حيزبونة إنك ولدت لهذا المنصب، ومنذ أن شاهدتك وهي تراك مناسبة لهذا".

"الأخبار؟" اتسعت عينا السيدة نميمة بفرح غامر.. "أين أنت يا أمي؟ كانت تقول لي دوماً أن لساني سيأخذني إلى مصير سيئ، ها هو ذا يأخذني إلى الوزارة.. " و فوراً بدأت نميمة بمهمتها فسألت السيدة تفاهة عن الوزارة التي أسندت إليها..

قالت تفاهة "الثقافة! قالت إني خير من يمثل الثقافة " ثم أردفت بتردد "لكني لم أعرف ما هي الثقافة وخجلت أن أسألها عن ذلك. هل منكن من يعرف معنى الثقافة؟!".

قالت غلاظة على الفور بخبث: "الثقافة هي طبق رز بلحم.. ويسمونها الكبسة أيضاً. وكانت والدتي لها وصفة خاصة لبهاراتها، يمكنني أن أمدك بها مع أنها استحلفتني أيضاً ألا أخبر أحداً بها ".

"رز بلحم؟! " قالت السيدة تفاهة بخيبة أمل. كانت تتوقع أن تختارها السيدة حيزبونة لأي شيء باستثناء الطبخ. وزارة الأناقة، أو التسوق، أو الموضة، أو شيء تشعر أنه راق ويليق بها.. " وزارة للرز بلحم،هل رأتني مرة في المطبخ؟".

قالت غلاظة بجدية، "لعلها اشتمت شيئاً في ثيابك يا تفاهة، شيئاً أوحى لها أنك لا تغادرين المطبخ!".

ردت نميمة "دعك منها يا تفاهة، أنت وزيرة ثقافة ممتازة.. اسألوني أنا عن الرز بلحم".



لم يكن استبعاد أمي من التشكيلة الوزارية ليمر من دون شعورها بالغيظ، حاولت السيدة تفاهة أن تقنع والدتي أن العدد المحدد للنساء كان ثلاثة مقاعد فقط، وأن حيزبونة كانت تود إشراكها إلا أن ذلك لم يحدث بسبب عدد المقاعد.

لم تقتنع أمي، إلا أنها تصنعت عدم الاهتمام، "وهل كنت سأقبل أصلاً بوزارات سخيفة كهذه؟ وزارة للرز وأخرى للإنسانية وأخرى للأخبار؟ كيف

تقبلن أصلاً بهذه الوزارات؟. ما كنت لأرضى بمثلها ولو اجتمعت معاً، أنت بالذات يا تفاهة، وأنت التي تقول أنها صديقة حيزبونة المقربة التي لا ترفض لها طلباً، كيف تقبلين بمنصب كهذا؟ لمن وزارة الخزينة إذن؟.. لمن وزارة الأمان و الشرطة؟ هذه هي الوزارات المهمة؟" قالت أمي بحسم لتغيظهن.. وتبادلت السيدات النظرات أحست السيدة تفاهة أن الكرة في ملعبها وعليها أن ترد: "على ذكر وزارة الأمان، قالت السيدة حيزبونة أيضاً إن الموافقة الأمنية على ترشيحك لم تحصل بسبب من ماضيك.. وبسبب من حاضر ابنك أيضاً ".

ردت أمي وقد بوغتت: "ماضي وحاضر ابني؟ ماذا تقصدين؟"..

"تعلمين طبعاً.. السيد نوح"..

قالت أمي أي شيء عن الأمر، مثل: "ما علاقة هذا بذاك؟ ومن هم أصلاً هؤلاء لكي يقيمونا نحن؟" ثم أكدت عدم اهتمامها بالأمر كله لكن وجهها كان يقول شيئاً آخر..كانت لا تزال تعاني من مقاطعة أبي لها

بسبب الموضوع كله، وكانت تعلم أنه سيغضب جداً لو تسرب له هذا التلميح..



ما إن انتهى الاحتفال بإعلان تشكيلة الوزراء حتى عقدت السيدة حيزبونة اجتماعاً مع الوزراء، كانت السيدة غلاظة قد ارتدت غطاء شعر جديداً على شكل شعرٍ مستعار أصفر اللون، بناء على فتوى الكاهن عصفور، الذي عين وزيراً للديانة، وباعتبار أنها فقط تريد أن تعيد لشعرها لونه الذي فقدته إثر نقرة الديك..

أما السيدة نميمة فقد كانت قد زادت على غطاء الشعر الجديد، بنفخ شفتيها حسب الموضة الرائجة في مدينة الرجل الأبيض.. أما السيدة تفاهة فلم يحالفها الحظ مع أنها أجرت استعدادات للظهور بمظهر لائق في الاجتماع، وقد اتهمت أمي بأنها حسدتها وربما كتبت لها سحراً لأنها مغتاظة لعدم تعيينها وزيرة..

كانت السيدة تفاهة قد وضعت عدستين ملونتين في عينيها، لتبدوا زرقاوين، لكنها ما إن دخلت قاعة الاجتماعات، حتى قفزت واحدة من العدستين وسقطت

على الأرض، وبينما كانت السيدة تفاهة تبحث عنها، انكسر كعب حذائها الزجاجي، ولم تجد العدسة، واكتشفت أنها أضاعت حقيبتها، وجهاز التحاكي عن بعد الثمين الذي فيها، علماً أن وزير الخزينة، السيد سلّاب النهاب، المعروف بتاريخ طويل في خفة اليد، كان يساعد السيدة تفاهة في البحث عن العدسة. أحدث كل ذلك ضجة في قاعة الاجتماعات وتوترت السيدة تفاهة وذكرت سعر العدسة اللاصقة وسعر حذائها وسعر جهاز التحاكي عن بعد.. وكان يمكن لها أن تستمر لولا أن السيدة حيزبونة أوقفت الأمر كله بحدة وصرخت - تقريباً - في السادة الوزراء والسيدات الوزيرات أن يكفوا عن الهذر لأن "وقت الجد قد حان".

قالت السيدة حيزبونة للجميع إن السيد أبرهة قد اختارهم لكي يختارهم الشعب ويقدم أسماءهم في الصندوق، وذلك من أجل أن يقوموا أولاً بمهمة واضحة ومحددة، وبعدها يفعلون ما يستطيعون أن يفعلوه مما يحلو لهم..

"هل يستطيع أي منكم أن يخبرني ما هي هذه المهمة؟" سألت السيدة حيزبونة كما لو كانت معلمة تدرس تلاميذ صغاراً..

رفع إمّعة - رئيس المجلس - أصبعه وقال بتذاك: "خدمة الشعب؟".

رمقته حيزبونة بنظرة معناها "اسكت أنت!" ولكمته من تحت الطاولة زوجته السيدة فهيمة التي أصرت على الحضور وهي تقول له بصوت منخفض: "قلت لك ألا تتدخل فيما لا يعنيك. ما دخلك أنت لكي ترد؟"

التفتت حيزبونة إلى الآخرين وقالت: " أي جواب آخر؟"

كل الأجوبة كانت تشبه جواب إمّعة.. ‹إسعاد الناس› ‹نشر العدالة› ‹رفع مستوى المواطن›.

"كفى!" ضربت حيزبونة الطاولة بيدها وقالت: "هذا الكلام تقولونه في خارج هذه القاعة. كلام تقولونه أمام الناس الذين اختاروكم بعد أن جعلناهم يختارونكم. أي إنكم تقولونه للتصريف الداخلي، لكن هنا، بيننا، في هذه القاعة المغلقة، نقول الحقيقة..".

ضربت مرة أخرى بيديها على الطاولة لتلفت انتباههم، والتمعت عيناها بشدة وهي تقول: "أنتم هنا فقط من أجل.." وسكتت قليلاً لتجعلهم يترقبون.. ثم قالت: "المعاهدة!!".

"لم يختركم السيد أبرهة إلا من أجل المعاهدة.. كل الكلام الباقي مجرد تفاصيل..".

"المعاهدة، عندما توقعونها، نيابة عن الناس الذين اخترناهم ليختاروكم، ستكونون قد أنجزتم ما نريده منكم، وتستطيعون بعدها أن تفعلوا ما شئتم.."

سكتت قليلاً ثم أكملت: "المعاهدة في حقيقتها (عقد بيع)، لكنكم أنتم الرابحون فيه..".

"عقد بيع؟ بيع ماذا؟" قالت نميمة التي لم يفارقها فضولها عندما صارت وزيرة..

"وهل بقي لنا شيء نملكه بعد أن أصبحنا مدينين بكل شيء؟" قالت غلاظة.

ابتسمت السيدة حيزبونة بغموض، والتمعت عيناها مجدداً وقالت: "بلى، بقي شيء واحد.. شيء واحد فقط تبيعونه لنا وننتهي من الأمر كله..".

قال الجميع: "ما هو هذا الشيء؟"..

بدت أسنان السيدة حيزبونة أطول من المعتاد، والتمعت أيضاً.. وهي تقول: "ليس الآن.. عندما نعلن نص عقد البيع، عفواً، أقصد المعاهدة..".



نص المعاهدة

اتفق الطرف الأول، أعضاؤه مجلس إدارة المدينة الموقرة، الذين تم اختيارهم طوعاً من قبل سكان المدينة جميعاً، أصالة عن أنفسهم و نيابة عن أهل المدينة الذين اختاروهم، **ببيع ارواحهم بيعاً قطعياً، ونهائياً، غير قابل للتراجع او الاستئناف، إلى الطرف الثاني..**

واتفق الطرف الثاني، وهم السيد أبرهة وأعضاء شركته، وورثته، وكل وكلائه باختلاف مجالاتهم، على شراء أرواح الطرف الأول مقابل التنازل عن خمسين في المئة من الديون وتقسيط الباقي على مدة آجلة، بفوائد يتفق عليها لاحقاً..

ملحوظة أولى: عند إقرار المعاهدة، لا يحق للطرف

الأول اتخاذ أي قرار من دون الرجوع إلى مالك روحه الطرفِ الثاني.

ملحوظة ثانية: عند إقرار المعاهدة، يصبح مقياس الصواب والخطأ، وما هو مشروع وغير مشروع - عرفاً، وقانوناً - راجع للطرف الثاني.

ملحوظة ثالثة: يتعهد الطرف الثاني، منةً منه وفضلاً، بتنظيف وترقية وتمدين الطرف الأول، فيحسن مظهره، ويشرف على تعليم أبنائه، ويمده بما يبيض بشرته ليبدو أكثر شبهاً بالطرف الثاني، ويجلب المصانع إلى بلده لتكون قريبة منه.

ملحوظة رابعة: ليس للطرف الأول التراجع عن أي بند فور الاتفاق على بيع روحه للطرف الثاني.



٩

قال الكاهن عصفور، وزير الديانة، لبقية زملائه: "هل تخيلتم في حياتكم كلها، أنه يوجد معاهدة منصفة وعادلة أكثر من هذه؟ هل هناك - في هذا الوجود كله - من هو أكثر عدلاً من السيد أبرهة، لا بل، إنه يتجاوز العدل إلى رحمة لا مثيل لها، لو كان عادلاً فقط لكان من حقه أن يطالب بديونه، لكنه تنازل عن نصفها، وأجّل تسديد الباقي، ووعد بتنظيفنا وتمدييننا وتغيير لون بشرتنا.. كل هذا الإحسان، لا يفعله أحد من البشر العاديين، إلا من بلغ الكمال كما فعل الرجل الأبيض، أي درس تربوي للأجيال كلها سيكون هنا..؟".

قالت السيدة تفاهة: "تخيلوا أني لم أكن أعرف بوجود شيء اسمه الروح فضلاً عن امتلاكي لها. لقد

عشت طوال حياتي بشكل جيد دون روح، وهذا يدل على أنها غير مهمة. والآن أبيع هذا الشيء غير المهم مقابل نصف ديوني وكل هذه الفوائد، بصفتي وزيرة للثقافة أعلن أن الصفقة رابحة جداً.."

قال السيد سلّاب النهاب: "بصراحة لقد كنت أعتقد أن السيد أبرهة زميل قديم في المهنة، وأنه يأخذ أكثر مما يعطي. الآن أعترف أن الأمر مختلف، لا أفهمه ولكنه مختلف. ليس هناك (حرامي) يمكن أن يقبل بصفقة كهذه، لكن هل هناك من يخبرني ما هذه الروح..؟.." قالت السيدة نميمة:" سيكون خبراً صاعقاً، سينتشر بأسرع من أي خبر زواج أو طلاق، خمسون في المئة من الديون؟ كم يعني هذا؟ النصف أو أكثر قليلاً؟".

قالت السيدة غلاظة: "بصفتي وزيرة الإنسانية أعلن أن المعاهدة أكثر إنسانية مما يجب.. وأن هذه الرقة ستفسد سكان المدينة أكثر مما هم الآن، يجب إضافة بند تهديدي قليلاً، وأتحفظ أيضاً على موضوع تغيير لون البشرة، المفروض أن يقال إعادة لون البشرة

إلى اللون الطبيعي، فقد كان لون بشرتي أبيض كما تعلمون..".

قال السيد إمعة: "أحبائي، كأنكم في قلبي جميعاً، إنكم تقولون ما أريد قوله حرفياً، لكن سؤالي هو: متى سنوقع العقد؟".



انتشر نص المعاهدة في المدينة بفضل نشاط وكفاءة وزيرة الأخبار الصحيحة السيدة نميمة، التي عممت النص، وعممت معه القول: الصفقة رابحة لدرجة لا تصدق، ولدرجة أنه يجب الإسراع في ابرامها قبل أن يتراجع السيد أبرهة ويزيد من الثمن المطلوب..

كان موضوع الروح بالذات موضوع تنادر الأخبار التي روجتها السيدة نميمة، فقد ركزت على من قال أن الروح هي شيء لا يمكن أن يرى أو يحس أو يوزن، وهذا يجعله (عديم القيمة) لذا فإن تبادل الروح مقابل التنازل عن نصف الديون، هو أمر في مصلحة سكان المدينة..

"تبادل شيء لا يذكر مقابل كل تلك الأمور.. تنظيفنا وتمدينيننا وجعلنا نشبههم؟.. أتمنى أن يكون لدي سبع أرواح كما القطط لكي أبيعها جميعاً للسيد أبرهة ".

"تخيل أنه سيجعل زوجاتنا يشبهن نساء الرجل الأبيض. مستعد أن أدفع عمري كله مقابل ذلك، وليس روحي فقط"..

"نعم، وروح زوجتي أيضاً.."..

"كم هو محسن، السيد أبرهة، إنه محسن أكثر مما ينبغي لتاجر..".

"ولذلك نخشى أن يتراجع عن وعوده.. لذا يجب أن نغتنم هذه الفرصة بأقصى ما يجب.. علينا أن نتنازل عن أرواحنا بأسرع مما يجب.. نعم، نبيعه أرواحنا، مقابل أن ينظفنا ويمدننا ويمدنا بالسلع والمشتريات ويفتح لنا المزيد من المولات ويتنازل عن ديوننا.. ونحن الرابحون بالتأكيد.."



قال النورس للأفق، لم يحدث ذلك بالضبط..

قال الأفق، طبعاً..

قال النورس، لكنه يحدث دوماً، أيضاً..

قال الأفق، بالتاكيد.. دوماً.. القصة قديمة قدم الشيطان نفسه..

قال النورس، نعم، لقد ذكرتني الآن ماذا كان اسمه هذا الذي باع روحه للشيطان مقابل أن يحصل على الحقيقة في تلك الأسطورة الغربية؟

قال الأفق، ما الفرق؟.. إنه ابن آدم آخر، كان اسمه فاوست تلك المرة.. ولكن تتعدد الأسباب والبيع واحد.. أحياناً يكون المشتري اسمه الشيطان صراحة.. وأخرى يكون اسمه أبرهة. وتتغير الأسماء لكن عقد البيع يكاد يكون واحداً..

قال النورس، لكن لاحظ أن البضاعة في تلك الأسطورة كان ثمنها الحقيقة، والآن صار" المزيد من السلع" وتغيير لون البشرة...!

رد الأفق، نعم، هذا صحيح، لقد هبط المستوى

كثيراً، لكنك تعلم طبعاً أن النتيجة واحدة..



قال لهم نوح، وهو يراهم لاهثين لعقد الصفقة: إنكم تبيعون أثمن ما لديكم لقاء ثمن بخس.. أنتم الخاسرون في هذه الصفقة، لأنها صفقة لا يربح فيها من يبيع روحه مهما كان المقابل..

ضحكوا منه، بل أغرقوا في الضحك. سألوه عن أي شيء يتحدث، وكيف تكون الروح، التي لا ترى ولا توزن ولا تقاس، أثمن ما يملكون؟ هل هي أثمن من بيوتهم، أو من العربات التي جلبها السيد أبرهة لهم، أو من أجهزة المشهاد التي تسليهم كل ليلة بدلاً من النوم مبكراً.

قال لهم نوح: إن هذه الروح هي أثمن ما لديهم لأنها نفخة من روح الله نفخها فيهم كي يكون لهم ما يميزهم عن الحيوانات، كي يكون لديهم تلك الصلة به..

ضجوا بالضحك مجدداً، قالوا له هازئين: إنهم لا يرون إلهه هذا، فكيف يرون ما نفخه فيهم..

قال لهم إن بعض أهم الأشياء في الحياة لا ترى ولا يمكن أن تقاس أو توزن.. لكن هذا لا يقلل من أهميتها، سألهم إن كانوا يرون الهواء الذين يتنفسونه.. أو إن كان يمكن لهم أن يضعوه في الميزان، أو يصرفوه في المول، لكن هل يمكن لهم أن يتخلوا عنه.. هل يمكن لهم الا يتنفسوا؟؟

وضعوا أصابعهم في آذانهم. قالوا له إنه يجادل جدلاً لا فائدة منه. وإنه يجب ألا يعطل الصفقة بهذا الكلام الفضفاض، لأنه إن كان يحب مدينته فعليه أن يروج لهذه الصفقة التي ستجلب الخير والرخاء بلا خسارة تذكر..

قال لهم نوح إنهم يخسرون إرادتهم الحرة عندما يقدمون على بيع أرواحهم، يخسرون إنسانيتهم، يختارون أن يصيروا عبيداً للرجل الأبيض، وهم إنما خلقوا من أجل أن يكونوا عبيداً لله.

ضجوا بالضحك مرة أخرى، بل استلقى بعضهم على ظهره من شدة الضحك، قالوا له أن يكف عن إدخال إلهه في كل صغيرة وكبيرة، وطلبوا منه أيضاً أن يكف عن الافتراء على السيد أبرهة.

"أين هي سلاسله يا نوح؟ أين هي قيود السيد أبرهة التي سيجعلنا بها عبيداً له؟.. أليس عيباً عليك وأنت الذي كنت محترماً صادقاً أن تفتري على الرجل الصالح الذي جاء ليجعلنا متطورين ومتقدمين؟"..

قال لهم نوح إن أخبث وأسوأ أنواع القيود والأغلال هي التي لا ترى، لأن العبد الذي يقيده سيده بالأغلال يعلم أنه عبد، لكن عندما تكون القيود غير مرئية، فإنه لا يعلم أنه عبد، سيظل يتصور نفسه حراً، بينما عقله وإرادته، مقيدة، ويجره بها سيده كما يجر الكلب.. بتلك الأغلال التي لا ترى..

ضربوا كفاً بكف وهم يضحكون.." أي أغلال هذه التي لا ترى، الرجل يريد أن يوظفنا ويبني لنا مصانع، ويجعلنا أحراراً مثله، وأنت تقول إنه جاء ليجرنا بالقيود التي لا ترى؟.."..

قال لهم نوح إن السيد أبرهة لا يهتم حقاً بأرواحهم إلا لواحد من ثلاثة أسباب، الأول أنه سيضمن أنهم سيشترون منتجاته كي تزيد أرباحه، وقد تحقق له ذلك إلى أن افلسهم. والثاني أنهم عندما سيفلسون سيقبلون على

العمل عنده في مصانعه التي سيبنيها قربهم، بأبخس الأجور وادناها، وهذا سيزيد من ارباحه ايضاً.. والثالث انهم ربما كانوا يمتلكون في باطن أرضهم كنزاً من المعادن التي يحتاجها السيد أبرهة لدوران مصانعه، وعندما يبيعون له أرواحهم، فإنهم سيكونون قد وافقوا على بيع ذلك الكنز بأي سعر يحدده أبرهة، وربما بلا سعر على الإطلاق، وهكذا يزيد ربحه ايضاً..

قال لهم ذلك مراراً وتكراراً. قالها بكل أسلوب، رافعاً صوته وخافضاً له.. قالها في الشوارع والأسواق، بل ذهب ليحملها لهم في البيوت، لكنهم أغلقوا الأبواب في وجهه، أغلقوا حتى الشبابيك، واستمروا بوضع أصابعهم في آذانهم، كي لا يسمعوا ما يقوله، كي لا يسمعوا غير ما يقوله لهم السيد أبرهة. كي لا يشوش عليهم قرارهم الذي اتخذوه بحسم..

سيبيعون أرواحهم له...



فوجئ العاملون في مكتب السيدة حيزبونة، بقناع التهذيب الراقي الذي تحرص على وضعه على وجهها

يسقط ويظهر وجهها الحقيقي الذي ينافس أولاد وبنات الشوارع في الوضاعة وقذارة اللسان.

حدث ذلك حين كانت تطلع على تقارير رفعها بعض مخبريها عما يقوله السيد نوح، وكانت السيدة حيزبونة تعلم طبعاً أن السيد نوحاً معارض للمعاهدة، لكن شيئاً جديداً مما يقوله السيد نوح، أثار غضبها فجاة، لا أحد يعرف بالضبط ما الذي قدح زناد الشتائم والسباب، لكن فجاة بدأت تقول من الكلام البذيء ما لا يقوله غير من هو أصيل في الوضاعة وسوء المنبت، سبت السيدة حيزبونة نوحاً طبعاً، وسبت الإله الواحد الحق - جل وعلا عن كل ما يسيء له - وسبت أهل المدينة الذين تركوا نوحاً يتمادى ليصل إلى هذه الدرجة دون أن يوقفوه من زمان، بل يقول بعض العاملين في المكتب، وهم يهمسون، إنها سبت السيد أبرهة أيضاً، لأنه كلفها بهذه المهمة، لكنهم يعودون فيقولون إن ذلك اختلط مع أصوات تحطيم الزجاج والأغراض الذي صدر من غرفة السيدة حيزبونة، لذلك فهم ليسوا متاكدين من أنها سبت السيد أبرهة.

الأغرب من كل هذا، أن السيدة حيزبونة، بدلاً من أن تحاول إيذاء السيد نوح، أو أن ترسل له من يصب غضبها عملياً عليه، طلبت من مساعديها باقة ورد كبيرة، وكتبت بطاقة رقيقة موجهة إلى السيد نوح، تطلب فيها بمنتهى التهذيب أن يشرفها بزيارته...

لم يتأخر السيد نوح، أعاد لها الزهور مرفقة ببطاقة يعتذر فيها عن الحضور بشكل رسمي ومهذب في الوقت نفسه، ويقول لها إن أرادت منه شيئاً أن تحضر هي بنفسها، انطلقت حيزبونة تسب وتشتم مجدداً، وقد ثبت هنا أنها سبت السيد أبرهة هنا بشهادة كل العاملين في المكتب، ذلك أنه وضعها في هذا الموضع.



لدهشة الجميع، ذهبت السيدة حيزبونة إلى بيت السيد نوح، لم يعرف الكثير عن الزيارة، ولا عن موعدها، ولا حتى عمن صاحبها فيها، حتى إن هناك من قال إن السيد أبرهة بنفسه قد ذهب معها، أو أنها ذهبت هي معه، لا فرق، لكن ذلك لم يتأكد قط.

لا يعرف الكثير عما جرى هناك، لكن تسربت

أخبار أن السيدة حيزبونة قد عرضت وظيفة مهمة جداً على السيد نوح، مديراً تنفيذياً لواحدة من أهم شركات السيد أبرهة بأجر خيالي، وذلك مقابل أن يكف نوح عن محاربته للمعاهدة، رفض السيد نوح، وحسب ما تناقلت الأخبار أنه قال لها ما معناه إنها لو وضعت الشمس عن يمينه، والقمر عن شماله، لما ترك ذلك..

الأمر المؤكد والثابت أن السيدة حيزبونة، عندما خرجت من بيت السيد نوح، كانت محمرة الوجه من الانفعال والغضب، وأنها التفتت ناحية بيت السيد نوح قبل أن تركب عربتها، وقالت بأعلى صوتها، جملة واحدة فقط: ستندم على ذلك يا نوح..



قال النورس للأفق: «الشمس على يميني، والقمر على شمالي»، كأني سمعت ذلك، لكن في مكان آخر تماماً، وعصر مختلف تماماً.. أين كان ذلك؟..

قال الأفق: هذا صحيح.. لقد حدث ذلك في مكة..

قال النورس: تماماً. لكن ما الذي جاء بهذه الجملة هنا؟..

قال الأفق: أعتقد أن شيئاً مشابهاً يحدث مع كل من يمتلك مبدأ وقضية، يأتي من يساومه عليها ربما يكون ذلك جزءاً من طبيعة الامتحان الذي لا بد منه.

قال النورس: نعم.. وثمة من ينجح في الامتحان، ويقول لو أن الشمس والقمر..

قال الأفق: وثمة من لا ينجح، ويسقط في التجربة، ويكون ذلك معناه أنه كان سيسقط بكل الأحوال..

قال النورس: نعم، أتذكر هنا..



لم يمض بضعة أسابيع على نشر نص المعاهدة التي سيبيع سكان المدينة بموجبها أرواحهم للسيد أبرهة وشركائه، حتى بدأت الاستعدادات تجري لإقامة حفلات ضخمة بمناسبة التوقيع على المعاهدة التي "ستضع المدينة على خطا التقدم والرقي".. كما كانت تقول السيدة نميمة - في كل مناسبة - بصفتها وزيرة الأخبار الصحيحة.

وضعت ملصقات الحفلة الكبرى في كل مكان... كانت حفلة فنية دعي إليها كل المغنين والمغنيات في المدينة، وضعت صورهم وأسماؤهم في الملصقات... باستثناء مطرب واحد، ركزت الدعاية عليه، دون أن تذكره بالاسم، بل قالت إنه سيكون المطرب المفاجأة، وإنه سيكون نجم الموسم، بل إنه سيكون نجم كل المواسم، لم توضع صورته أيضاً، بل وضعت له صورة ظل، إمعاناً في التشويق والإثارة..

كانت لعبة الشد هذه قد راقت للناس الذين غسل المشهاد عقولهم مرة بعد أخرى، وجعلها فارغة.. فانطلقوا يخمنون من سيكون النجم، بل إن أحد المرابين في المدينة، قام بفتح المراهنات على الأمر..

وهكذا راجت أخبار عن هذا النجم، فقيل مرة إنه مطرب أخرس تلقى علاجه في مدينة الرجل الأبيض وصار صوته كالكروان، وفي ذلك دليل على أن مدينة الرجل الأبيض لا تشفي الخرس وتنطقهم فحسب، بل تجعلهم يغنون أيضاً..

قيل أيضاً، ضمن ما قيل، إنه مطرب جديد لا يملك

صوتاً مميزاً لكن تقنيات الرجل الأبيض أخرجت حنجرة واحد من المطربين المشاهير من قبره، ووضعتها في المطرب الجديد، ليصبح هذا الأخير كما كان الميت يفعل في أثناء حياته..

قيلت أشياء أخرى، منها أن هذا النجم الجديد ليس إنسان أصلاً بل هو حيوان خاص درب ليغني، أو أنه دمية، أو آلة صنعتها مصانع الرجل الأبيض و قررت أن تطلقها في الاحتفال لتوقيع المعاهدة.

أما السيدة الأولى عمتي فهيمة، فقد أسرّت لأمي أنها لم تعد تنام الليل خوفاً من أن يكون هذا المطرب الجديد هو زوجها رئيس مجلس المدينة، السيد إمّعة، إذ إن أمنية عمره هي أن يغني، وأنه يفعل ذلك كلما أتيحت له الفرصة، لولا أنها منعته من ذلك، بحيث إنه لم يعد يغني إلا في الحمام. والآن، شيء ما في الدعاية لهذا المطرب الجديد يقلقها، لاسيما أن صوت السيد إمعة - كما أكدت عمتي - سيئ جداً، وسيؤثر في مكانته كرئيس..

طمأنتها والدتي أن الأمر مستبعد، لأن الظل الموجود

في الإعلانات، يبدو لشاب نحيل "وزوجك له جسم كجسم الثور"، بدا ذلك معقولاً لعمتي فهيمة، لكن وصف جسم زوجها بجسم الثور لم يعجبها، لاسيما أنها كانت تزيد عليه في الوزن..



مع اقتراب موعد الحفلة، كان التشوق لمعرفة النجم الجديد قد وصل حد الهوس. قيل إن ذلك كان مقصوداً لإلهاء الناس عن تفاصيل المعاهدة.. وأياً كان السبب، فقد انغمس الناس إلى أقصى حد في الأمر، إلى درجة أنهم لم يعودوا يفكرون أصلاً بالمعاهدة التي يقام من أجلها الاحتفال، وحتى عندما بدأ الاحتفال، لعب منظمو الحفل (يقال إنها السيدة حيزبونة) على وتر الإثارة، والتشويق، وتركوا أمر النجم المجهول لاختتام الحفل، الأمر الذي أفسد متابعة الجمهور لبقية المطربين، لأن الناس كانوا متوترين - بسبب المراهنات خاصة - وصاروابدلاً من التصفيق المعتاد للمطربين، يصرخون طالبين منهم الإسراع، للوصول إلى الختام..

وعندما جاءت لحظة الختام، وسط دهشة الجميع،

صعدت السيدة حيزبونة إلى المسرح، وقالت، وابتسامة عريضة على وجهها، إنها مسرورة جداً لتقديم نجم الجيل الجديد الذي يمثل خيارات الشباب وأحلامهم..

لم تقل اسمه، بل أشارت إلى فتحة صغيرة ركضت إليها بقعة الضوء، وساد الصمت وحبس جمهور المراهنات والتفاهة أنفاسهم.. بينما أخذت الطبول تدق كما لو أنها تضرب على أعصاب الجمهور..

من الفتحة برز "نجم الجيل"...

لم يميزه أحد في البداية، تقدم بخطوات مهزوزة، واحدة تلو الأخرى، وهو يتصنع ابتسامة لم تخف شعوره بالذل. كان يرتدي ملابسَ لماعة، وكشف عن ذراعيه، واحدة منهما موشومة بتنين، والأخرى بعلم الرجل الأبيض، وكان شعره مصففاً بطريقة غريبة كما لو كان سناماً لجمل كسيح.. كل شيء فيه كان مزيفاً ومستعاراً من الرجل الأبيض... حتى بدا كما لو أنه غراب ترك قبيلة الغربان وحاول بيأس أن يصبغ ريشه ليبدو كالطاووس.. فلم يصبح غير مسخ هجين، لا هو بقيَ غراباً، ولا صار طاووساً..

لم يعرفه أحد تقريباً إلا عندما وصل مقدمة المنصة، عندها سادت همهمات الاستغراب والدهشة ممزوجة بالصمت.

كان «نجم الشباب» هذا، الذي طبلت له ماكنة الدعاية طوال أسابيع، من أجل الاحتفال بمعاهدة بيع الروح إلى السيد أبرهة هو الانتقام الذي توعدت به السيدة حيزبونة من السيد نوح.

كان الانتقام مجسداً في شخص نجم الشباب هذا.. رفعت السيدة حيزبونة صوتها وابتسامة لئيمة تعلو وجهها، وهي تقول: "نقدم لكم النجم الجديد، ابن السيد نوح!".



١٠

قال النورس للأفق: لم يحدث ذلك حقاً..

قال الأفق: لا، لم يحدث طبعاً..

قال النورس: لم إذن قد حدث هنا؟..

قال الأفق: هل نسيت؟ نحن في حلم. وليس على النائم حرج..

قال النورس: ولو! يبدو ذلك أقوى مما يجب..

قال الأفق: لا تنس أنه قد كفر. وليس بعد الكفر ذنب...

قال النورس: لا أدري، منظره على المسرح يثير الحزن.

قال الأفق بحسم: ليس أكثر من منظره على الجبل، يوم سيكون ما يكون..



مرت على نوح لحظات عصيبة كثيرة شهدت بعضها، مثل تلك التي أحرقوا فيها مدرسته، أو تلك التي تعرض فيها للاستهزاء وإلقاء القاذورات عليه..شهدته عندما انفض عنه بعض أتباعه وذهبوا للعمل في المول. كانت كلها لحظات عصيبة، لكن هذه كانت أشدها.

قيلت أشياء كثيرة عنه في هذه اللحظة، قيل إنه ظل مطرقاً ولم يقل شيئاً، لكن كان ذلك الصمت يشبه صمت من أصابه خنجر في ظهره، وقيل أيضاً إنه انهار باكياً كما لم يفعل من قبل. وقيل إنه غضب جداً وأخذ يصرخ بأعلى صوته، من الألم..من الغضب، لا أحد يعلم..

كل ذلك لم يكن ليتضارب مع شيء. ويمكن أنه صمت أولاً، ثم غضب ثانياً، ثم بكى ثالثاً.. يمكن أن تكون كلها أطواراً مختلفة تدرج فيها رد فعله لما حدث. بعض أتباع السيد نوح استكثروا عليه أن

يبكي، واعتبروا ذلك ضعفاً لا يليق بقائدهم لكني وجدت أن ضعفه العابر لو كان حدث تأكيد لكونه إنساناً، هل يمكن لإنسان طبيعي ألا يضعف عندما يجد ابنه قد تخلى عنه واتبع أعداءه، بل صار سلاحاً لهم ضده...

ربما بكى نوح، وربما لم يبك، لكن ذلك لم يستمر طويلاً..

قيل أيضاً، إن تلك اللحظة العصيبة، هي التي التفت فيها نوح إلى السماء، داعياً الإله الواحد الحق ألا يترك على الأرض من الكافرين أحداً..



كانت السيدة حيزبونة قد أدركت من السيدة نميمة أن زوجة السيد نوح لم تكن متماشية مع مبادئه، وأنها كانت شديدة التذمر من انهماك نوح في دعوته، وإنفاق أمواله عليها، بدلاً من إنفاقه على بيته وعليها شخصياً..

دعت حيزبونة زوجة نوح لجلسات السيدات، فلبت الأخيرة الدعوة مسرورة، لم تتورط السيدة حيزبونة بأي

هدية غالية لزوجة نوح، حتى لا يكتشف نوح الأمر ويحبطه، بل إنها طلبت منها ألا تخبر زوجها كي لا تزعجه، لكنها جعلتها تكتشف نوعية الحياة المترفة المليئة بالسلع التي تعيشها كل السيدات الغنيات، وجعلتها أكثر فاكثر ترغب في أن تعيش مثل هذه الحياة، لكن دون أن تخبرها بذلك مباشرة..

وبالتدريج استطاعت أن تجذبها إلى فخها: "هل تريدين لابنك أن يعيش مثل حياتك؟ دعيه يكتشف العالم الآخر الذي يمنعه زوجك منه.."

وكانت زوجة نوح هي المدخل الذي دخلت منه حيزبونة لابن السيد نوح.. مرة بدموع الأم، مرة ببريق النجومية، مرة بالسلع، مرة بكل ذلك ممزوجاً..

وتدفق كل ذلك، ليحاصر ابن نوح..

كان واضحاً تماماً من وقفته على المسرح أنه لم يكن سعيداً بكل ذلك.. كان يتصبب عرقاً وكانت ابتسامته تبدو مثل تقلص مرَضي في عضلات الوجه..

كان واضحاً عليه أنه لم يذق طعم النوم لأيام..

لكن ذلك كله لم يكن ليواسي نوحاً..

لقد خذله ابنه.. فقده بطريقة تجعل من الصعب عودته إليه.. لو أن الأمر كان نزوة عابرة، لربما كان يمكن أن يكون هناك عودة.. لكن أحرق كل شيء عندما ظهر بذلك المظهر، وهو يتغنى بعقد بيع الأرواح للسيد أبرهة.

صباح اليوم التالي، ظهر السيد نوح، بعد أصعب ليلة مرت عليه في حياته، وهو يبدو أكثر قوة من قبل، ذهبت إليه وفي نيتي أن أواسيه، لكنه بدا كما لو أنه ليس بحاجة لذلك، صحيح أنه كان هناك خط جديد في جبينه، لكن كان هناك في عضلات فكيه المزيد من التصميم.

قلت ذلك - مستغرباً - لذي الرجولة المبكرة، قلت له إني سمعت أنه بكى وصرخ، والآن أراه متماسكاً قوياً كما لو أن شيئاً لم يكن..

هز رأسه وقال: هذا صحيح، ما لا يقتلك يزيدك قوة، وما حدث من ابن نوح كان مؤذياً جداً، مؤلماً جداً، لكنه لم يقتله ولهذا زاده قوة.. منحه المناعة.. إنه الآن أقوى من قبل، على كل الألم الذي مر به..

نظرت إلى نوح.. صحيح لم يكن الأمر كما لو أن شيئاً لم يكن، بل كان كأنه كان أشياء كثيرة، أشياء مؤلمة وصعبة وقاسية، لكنها لم تقتله، لم تنجح في قتله مع أنها حاولت ذلك - ولذلك فقد جعلته التجربة أقوى..

أحسست الآن أني صرت أقوى لمجرد أني عرفت ذلك.. كانت التجربة مؤلمة لي أيضاً، أن أرى ابن السيد نوح، القريب منه، وهو يخذله بالشكل الذي حصل.. لكن الآن، وأنا أرى السيد نوحاً بهذا الشكل وقد خرج من التجربة أقوى مما دخلها، أحسست أني صرت أقوى أيضاً.. بل إني شعرت أني قد ازددت طولاً، بعدما توقف نموي لفترة..

قلت لذي الرجولة المبكرة ذلك.. سألته إن كان السيد نوح قد ازداد طولاً هو الآخر..

نظر إلى السيد نوح طويلاً، ثم نظر إلى الأفق، ثم قال: نعم، بطريقة ما، نعم..



خلال أيام، فهمنا جميعاً، نحن المؤمنين بالسيد نوح، أنه يطلب منا أن نجمع كل ما يمكن جمعه من ألواح الكتابة، وألواح من أي حجم وأي نوع، المهم أن تكون ألواح كتابة قد استعملت في تعليم الأطفال، تعليمهم كيف يؤمنون بالإله الحق الواحد، تعليمهم الإيمان الذي يجعلهم يؤمنون بأنفسهم، بأنهم قادرون على أن يصنعوا عالماً أفضل..

الألواح الفارغة مرفوضة، الألواح التي كتب عليها كلام فارغ أيضاً مرفوضة، يجب أن تكون ألواحاً بكلمات تصب في الطريق الصحيح، ويجب أن تمر بالأطفال.. يجب أن يكون هناك على الأقل عشرة أطفال مرت بحياتهم كل لوحة قبل أن تقبل..

ماذا كان سيفعل نوح بتلك الألواح؟.. لا نعلم، على الأقل لم أكن أعلم أنا.. ليس في هذه المرحلة.. كل ما أعرفه أني أخذت أجمع الألواح، وأعلم كل من أعرف من الأطفال، ولو في السر، ولو مجرد كلمات، ولو أجزاء من الأبجدية التي علمنا إياها نوح، ولكن كل لوح كان يجب أن يمر بهذا بالأطفال وبأبجدية نوح..

وبعدها، كان يذهب إلى نوح..

لوح بعد لوح بعد لوح..



قالوا عنه إنه مجنون، بالطبع كانوا سيقولون هذا، قالوا إن صدمته بابنه أفقدته صوابه تماماً، وجعلته يطلب هذه الطلبات.. لكنهم كانوا دوماً يقولون ذلك..

قالوا عنه ذلك يوم حاول بناء مدرسته، ويوم كان يدرس الصغار الفقراء، ويوم أخذ ينظف الشوارع..

كل ما لا ينسجم مع ما يرون، مع ما يفعلون، سيبدو جنوناً بالنسبة إليهم..

قال هو، أخيراً، وباقتضاب، إنه آن له أن يبني مشروعه الجديد، وأن هذه الألواح هي ذلك المشروع..

سألناه ماذا يعني بالضبط، فقال إن بعض البيوت تكون آيلة للسقوط ولا ينفع معها ترميم، وإن مدينتنا مثل هذه البيوت، لم يعد ينفع معها ترميم، وإن هذه الألواح ستبني مدينة أخرى..

سألناه أيضاً: مدينة من خشب؟..

قال: إذا كان الخشب راسخاً في رؤوس الأطفال، مثل جذع شجرة مثمرة، ثمارها هي الأطفال.. فإن مدينة الخشب أقوى من مدينة حجر مبنية على الهاوية..

لم أفهم بالضبط ما الذي يعنيه هنا، لكني تخيلت مدينةً أخرى، مبنية من خشب الأشجار المثمرة، وبدا العالم كله كما لو كان أفضل فجأة.



لوح بعد لوح، كنت أزداد طولاً..

لم أعد أذهب إلى ذلك الحائط لأتأكد.. صرت أعلم ذلك، صرت أعلم أني أنمو حتى لو لم يزد طولي بالمعنى المباشر.. صرت أعلم أن مشاركتي في بناء ذلك العالم - بالألواح - تجعلني أكبر أكثر، حتى لو لم يزد طولي ولا قليلاً..



لوح بعد آخر.. كان نوح يجمعها.. ويجمع مع كل لوح رؤوس أولئك الأطفال.. لن أقول إنهم جميعاً قد آمنوا بكل ما نعلمه إياهم.. وكنا نقول ذلك لنوح،

لكنه قال إن بذرة ما قد نتركها فيهم، قد تكبر يوماً لاحقاً، قد يرويها ماء هائل بحجم طوفان، ويجعلها تنمو، لتصير شجرة مثمرة..

لوح بعد آخر، كان يصفها معاً، في إحدى ساحات المدينة، لم نكن نعرف ما الذي ينوي فعله.. لكننا كنا نؤمن أنه يريد صنع عالم آخر.. من الخشب المثمر..



قالت السيدة نميمة وهي تنظر من نافذة العربة، " أموت مقابل أن أعرف ما الذي ينوي السيد نوح فعله بكل هذه الألواح؟"..

قالت السيدة غلاظة فوراً: "تموتين لتعرفي أشياء كثيرة يا نميمة، كما لو أنك بسبع أرواح مثل القطط"..

قطبت نميمة جبينها: "هذا عملي! عليّ أن أعرف.."

رنّت السيدة تفاهة وهي تتأكد من أن حاجبيها مصبوغان بعناية في مرآة صغيرة أخرجتها من

حقيبتها: "هو نفسه لا يعرف يا نميمة، فلا تتعبي نفسك، بدلاً من أن يكون فخوراً بموهبة ابنه وأنه أصبح مشهوراً ونجماً، أصابه الجنون، هذه هي العقلية القديمة التي يجب أن تنتهي.."

قالت غلاظة ووجهها عابس: " لقد أضحكتني يا تفاهة، من هو الموهوب؟ ليس هناك صوت أردأ من صوت ابن السيد نوح.. لا أعرف ما الذي دهى الناس حتى صدقته وصفقت له.."

ردت تفاهة على الفور: " ما الذي تقولينه؟! صوته رائع.. وأغانيه أكثر روعة.. أولادي لا يملون من سماعها طوال الوقت.. وصوره في كل مكان."

قالت غلاظة " هنا هو، الناس صدقت أن صوته جميل بسبب صوره التي في كل مكان، إنها الدعاية التي نفذها مكتب السيدة حيزبونة.."

قالت نميمة مؤيدة: "نعم، الدعاية!.. اسالوني أنا عنها.."

وضعت السيدة تفاهة مرآتها في حقيبتها بعد أن تأكدت من أن كل الأصباغ متقنة وقالت:" ما علينا!..

علينا أن نذهب الآن لمؤتمر التسوق العالمي، أكدت السيدة حيزبونة أنها ستضع عقوبات على كل من يحاول عرقلة دخول البضائع والسلع إلى أي مدينة، كل شيء يجب أن يكون حراً في الدخول والخروج.."

علقت نميمة مرة أخرى وهي تنظر من العربة: "أموت مقابل أن أعرف ما الذي يفعله السيد نوح".



.. ثم إنه قال لنا أن نصنع مساميرَ من اجل ربط الألواح.. قال إننا يجب أن نصنعها..

قلنا:لم لا نجمع مالاً من الجميع ونشتريها جاهزة؟..

قال لنا: لا، لن ينفع الأمر، لن ينفع لأن تكون جاهزة، علينا أن نتعلم نحن صنعها..



وبدأنا نحاول صنع المسامير، تطلب ذلك الكثير، أن نأخذ المعدن الخام، نبحث عنه، نستخرجه، نصهره.. نصبه..

لم يكن ذلك سهلاً أبداً، وكنا نتذمر من طول الوقت في البداية، " لم لا يسمح لنا أن نجمع الأموال ونختصر الأمر بدل هذا التعب والوقت؟..".. لكن عندما أنهينا صنع المسمار الأول، بعد طول جهد، اكتشفنا الفرق، اكتشفنا أن المسمار - على صغر حجمه الذي سيبدو تافهاً- يمكن أن يكون وسيلة لاكتشاف العالم عندما نكون قد صنعناه بأنفسنا، وقد استخرجنا معدنه بأنفسنا، وصهرناه وصببناه..

ليسَ الأمر نفسه أبداً إذا كان المسمار نفسه قد جئنا به من السوق، أو من مدينة أخرى..

المسمار، عندما اكتشفنا كيف نصنعه، صار وسيلة للحفر في العالم.. لاكتشافه..

قال لنا نوح أن نصنعه، بمختلف الأشكال، بمختلف الأنواع..

قال لنا إنه لا مانع من أن نطلع على ما يفعله الآخرون عندما يصنعون مساميرهم.. بل إننا يجب أن نطلع على ذلك، لكنا يجب أن نصنع مساميرنا نحن، بأنفسنا..

قال لنا إننا يجب أن نفعل ذلك، حتى وإن صنعنا مسامير من خشب..



"مسامير؟! كل هذه الضجة من أجل مسامير؟!" ضرب السيد إمعة جبهته بكفه وهو يسمع ما يقوله السيد عبد المال: "لماذا لا يشترون المسامير من جناح العدد في "القليس " يا عبد المال؟ "

"لا أدري، يقولون شيئاً غريباً عن أنهم كي يتعلموا حقاً كيف يستعملون شيئاً عليهم ان يعرفوا كيف يصنعونه..". أغرق عبد المال في الضحك..

"إنهم مجانين طبعاً. كل ما في المول نستعمله ولم نصنعه، وما من مشكلة ما دمنا نقرأ كتيب الإرشادات، أو نجعل أحدهم يقرؤه لنا..."..

"دعهم يفعلوا ما يريدون.. ما همنا إذا كانوا لا يشترون المسامير منا؟.. هل سيؤثر ذلك على مبيعات المسامير مثلاً؟.. دعهم يلتهون بذلك بدلاً من توجيه الانتقادات على كل ما نفعله.."



مسمار بعد آخر، بدا العالم أكثر وضوحاً، بعض المسامير بدت كما لو أنها قادرة على أن تفجر عالماً منفوخاً بالهواء، وبعضها بدت كما لو أنها قادرة على ربط الجدران بعضها ببعض، وبعضها بدت كما لو أنها ستساهم في تهديم جدران يجب أن تهدم..

مسمار بعد آخر، بدا العالم كما لو أنه قابل للتغيير، كما لو أن المسامير أزالت عنه الصدأ، الزيف، كما لو أن هذه المسامير قد كشطت عنه أغطية وأقنعة ومساحيق..

فبدا العالم كما هو..

مسمار بعد آخر، اصطفت إلى جانب لوح بعد آخر، ولم أعد أدري بالضبط إن كنا نحن - الذين ساهمنا في جمع الألواح- قد تغيرنا.. أم أن العالم هو الذي تغيرا..



وقال لنا نوح إن هذه المسامير لم تعد مسامير، بل صارت (دُسُراً).

وسألنا عن الفرق، فقال إن المسامير هي مجرد مسامير، قد نشتريها من الدكان، أو من المول أو من أي مكان للعدد اليدوية.. لا جهد في صنعها.. لا جهد في التنقيب عنها، أو في صبها..

أما الدسر، فهي تلك المسامير التي نبذل الجهد في صنعها، التي تحمل معها عصارة جهدنا، جهد أفكار بعضنا، جهد عضلات البعض الآخر..

المهم أنها تحمل جهدنا مركزاً، فيما سيبدو أنه مجرد مسمار...



وقال لنا إن الألواح والدسر هي التي ستنقلنا إلى عالم آخر، عالم افضل، الشمس فيه أجمل، والهواء فيه اكثر إنعاشاً، والعالم اكثر عدالة ولا ظلم فيه.

قلنا له: «الألواح والدسر» ستفعل ذلك؟..

قال: نعم..

سألنا: كيف؟.. متى؟.. وأين؟..

قال: عندما تجعلون الألواح تلتحم بالدسر..

بعد بضعة أيام، قال لنا السيد نوح، إن وقت العمل الحقيقي قد حان..

تعجبنا نحن.. وقرأ هو العجب في عيوننا، إذن كل هذا لم يكن "العمل الحقيقي؟"...

قال، كل هذا كان مجرد تمهيد للعمل الحقيقي..

أما العمل الحقيقي فسيبدأ الآن..!



قال لنا إننا سنبني السفينة..

وإن تلك الألواح التي مرت على رؤوس الأطفال، لن تصير أشجاراً مثمرة، إلا عندما تلتحم بالدسر.. وعندما تجعلها الدسر تلتحم بعضها بالبعض الآخر..

قال لنا إن الألواح لن تثمر إلا إذا التحمت ببعضها بعضاً، تكاملت مع بعضها بعضاً...

وقال لنا، إن الدسر، على كل الجهد الذي بُذل من أجلها، لن تكون مهمة، لن تكون فاعلة، إلا إن دخلت في الألواح.. قال لنا إننا لن نصل إلى أي مكان بالألواح وحدها.. ولن نصل إلى أي مكان بالدسر وحدها..

إنما هي الألواح والدسر، لا يمكن الوصول إلا بها معاً..
لا يمكن الذهاب إلى ذلك العالم الأفضل إلا بها معاً..

ألواح، ودسر..



"سفينة؟!، سفينة في العراء؟! على بعد عشرات الأميال من النهر، والنهر بلا ميناء، ولم تسر فيه سفينة من قبل؟".

هذه كانت ردود الأفعال الأولى، من قبل معظم الناس في المدينة، وخصوصاً ملأ المدينة الغني والمسيطر، والذي اعتبر أن السفينة التي يبنيها نوح، هي من ضمن مسلسل جنون السيد نوح.. والذي مع السفينة لم يعد يحتاج إلى دليل في رأيهم، حتى إن السيدة تفاهة قالت إن المجانين في المدن المتحضرة يحتجزونهم ويلاقون عناية طبية، ولا يتركونهم هكذا، ثم تساءلت إن كانت السفينة التي يبنيها السيد نوح تحتوي على مسبح كما في سفن مدينة الرجل الأبيض، أما السيدة نميمة فقد قالت إنها سمعت أن السيدة زوجة السيد نوح تركته نهائياً بهذه المناسبة،

وأنها تقول إن السيد نوحاً يجمع الحيوانات ليضعها في السفينة، قالت غلاظة على الفور: "معه حق! الحيوانات أفضل بكثير من زوجته.."... أيدتها أمي بحرارة، أما السيدة تفاهة فقد قالت: "كل مرة أمر أمام هذه السفينة البائسة التي يبنيها نوح، والمكونة من ألواح ومسامير.." قاطعتها نميمة فوراً: "لا تقولي ألواح ومسامير، إنهم يصرون على أنها ألواح ودسر.." وانفجرت ضاحكة وضحكن جميعاً..

تابعت تفاهة: "كل مرة أمر أمام هذه الألواح والمسامير التي يسمونها دسراً، أتذكر تلك المعدات الضخمة التي جلبها السيد أبرهة أخيراً.. معدات هائلة ومتطورة، ونحن لا نزال في مسامير وألواح، لا فائدة منا أبداً.." وارتشفت قليلاً من كوب الشاي المثلج، الذي هو دلالة على التقدم كما أكدت في بداية الجلسة عندما طلبته..

"لا فائدة، نعم، لا فائدة" أكملت السيدة غلاظة بصوت ضجر: "لا فائدة من الشاي المثلج، أريد شاياً عادياً، ويستطيع التقدم أن ينتظر قليلاً"..

سألت أمي فجاة:" صحيح يا تفاهة، ما قصة هذه المعدات الضخمة؟"

قالت تفاهة:" لقد سألت السيدة حيزبونة عنها، فقالت إنها المعدّات التي ستنقلنا إلى عالم الحضارة والتقدم.."

سألتها نميمة باهتمام وقد اعتبرت أن الأمر يدخل في صلب مهنتها:" سمعت أنهم وضعوا المعدات في مخيم مغلق أسواره عالية قرب الجبل، لماذا؟.."

قالت تفاهة، "خشية الحسد يا عزيزتي، تعرفين، الحذر واجب.."

قالت غلاظة:" صوت الجرّارات والمعدات مزعج جداً.. أفضّل مسامير نوح.."

ردت تفاهة بانزعاج، "هل تريدون التقدم والمدنية والازدهار بلا ثمن، صحيح لا فائدة منكم.."

وارتشفت المزيد من الشاي (المثلج).. بصوت عال هذه المرة..



في الأيام التالية، بدأ الماء (ينبع) فجأة في أماكن متفرقة من المدينة، كان ذلك حدثاً نادراً، بل إنه لم يكن قد حدث من قبل..

بدأ في البداية في الأطراف، حيث مساكن الأراذل، لكن أحداً لم يهتم لهم، بل إن الأراذل فرحوا لأنه صار بالإمكان استعمال المياه بشكل مباشر في المنازل، بعدما كانوا يضطرون للذهاب إلى مكان بعيد لملء الأواني بالماء..

تعكر الأمر قليلاً عندما غرق أحد الأطفال في أحد الينابيع الفجائية، وتقدم والد الطفل طالباً النظر في الأمر أو التعويض، لكن مجلس إدارة المدينة علّق بأن الأمر لا يخص صلاحياته، وأن بإمكان والدي الطفل تدبر الأمر بالتعويض عبر إنجاب طفل آخر، ومن ثم تعليمه السباحة، بدلاً من إزعاج مجلس المدينة.

ومن ثم كف الأراذل عن تقديم شكاوى مع أن حوادث مماثلة قد تكررت. وقد اهتمت السيدة نميمة بوصفها وزيرة الأخبار الصحيحة بالأمر من ناحية

تشجيع الناس على تعلم السباحة بوصفها رياضة حضارية ومنتشرة في مدينة الرجل الأبيض.

لكن ينابيع الماء اقتربت أكثر فأكثر من المدينة ومن أحيائها الراقية، ولم يهتم مجلس المدينة فعلياً بالأمر إلا عندما ظهر ينبوع ماء فجأة في صالة استقبال السيدة تفاهة وأفسد لها سجادة ثمينة، وكاد أن يغرق كلبها (الحقد الطبقي)..

طالبت السيدة تفاهة بعقد اجتماع عاجل للوزراء لخطورة الأمر.

"هذه السجادة لا تعوض، لا أريد أن يقول لي أحد أن أشتري سواها.. إنها لا تعوض.. ولكن الكارثة الأكبر كانت ستحل لو غرق كلبي حبيبي (الحقد الطبقي)، مجرد التفكير في الأمر يرعبني.."

قالت غلاظة:" عجباً! كنت أعتقد أن الكلاب تعرف السباحة؟".

ردت تفاهة بحدة:" وأنت تقولين ذلك؟! بالتأكيد تودين الهرب من مسؤولياتك كوزيرة، الست وزيرة الإنسانية؟ أليس إنقاذ الكلاب من صميم واجباتك؟.."

ردت غلاظة: "كلبك فاسد ومدلل.. لِمَ لَم يسبح مثل بقية الكلاب؟.."

تدخل الكاهن عصفور وهو يحاول تهدئة الأمر: "سنحاول أن ندخل (الحقد الطبقي) دورة لتعليمه السباحة لتفادي تكرار الأمر، لكن المشكلة ليست فقط في (الحقد الطبقي).."

.. "صحيح!" قال السيد إمّعة، ثم سأل بصوت خفيض: "فيمن إذن؟".

قال الكاهن عصفور: "كم واحداً من أعضاء وعضوات مجلس إدارة المدينة يعرف السباحة؟.."

سكت الجميع.. قالت غلاظة بصوت منخفض إنها سقطت في ساقية وهي صغيرة وتدبرت الأمر بمفردها..

"علينا أن نفكر.. إن الأمر لا بد أن يكون له أسبابه.. الأرض تخسف والماء ينبع فجأة.. لا بد أن نفكر في أن ذلك قد يحدث في بيت أي منا.."

"صحيح" قال السيد إمّعة..

"سأسأل السيدة حيزبونة" قالت تفاهة.. "إنها تعرف

كل شيء طبعاً.. ولا بد أن للرجل الأبيض حلوله للأمر.."..

"بالمناسبة..هل سمعتم ما يقوله السيد نوح؟!" قالت السيدة نميمة: "يقول إن هذا الخسف والماء الذي ينبع حدث بسبب المعاهدة التي وقعناها مع السيد أبرهة"..

ضج الجميع بالضحك "هل يقول هذا حقاً؟.. ما علاقة هذا بذاك؟".

"لا أدري.. هذا ما يقوله.. ويقول أيضاً إننا لن نتمكن من إيقاف الأمر لأننا بعنا أرواحنا وانتهى الأمر"..

"هذا الفاشل.. ليس هناك أكثر من ثرثرة منه.. وهكذا هم الفاشلون دوماً.. كلام فقط".



هونت السيدة حيزبونة من الأمر كله عندما فاتحتها السيدة تفاهة بالأمر.. قالت السيدة حيزبونة: "سكان المدينة يجب أن يفرحوا بالأمر بدلاً من التشكي طوال الوقت، فبعض المدن تعاني من التصحر ومن الجفاف..

وأنتم يطلع عندكم الماء فجأة وفي بيوتكم ومع ذلك الأمر لا يروق لكم؟!"..

ثم طلبت من السيدة تفاهة أن تخبر السيدة نميمة أن تركز على الجانب الإيجابي للأمر.. "تخيلي لو أن الينابيع تفجرت في كل مكان، واستطعنا استثمار الأمر سياحياً.. فمدينتكم تصير مدينة سياحية، وسيأتي لها الناس من كل مكان، وسيزيد معدل الدخل، وتسارع التقدم والازدهار.. ماذا تريدون أكثر من ذلك؟.."..

أبدت تفاهة إعجابها الشديد برجاحة عقل السيدة حيزبونة: "كيف فاتنا ذلك؟، صحيح أن عقول أهل مدينة الرجل الأبيض تعمل بشكل مختلف.. "ثم قالت وهي تطاطئ رأسها: "لكني لا أزال حزينة يا سيدة حيزبونة من أجل سجادتي الثمينة، إنها لا تقدر بثمن، ليسَ لشيء إلا لأنك مشيت عليها. قولي لي كيف ساعوض ذلك؟".

زفرت حيزبونة وهي تقول: "ساعوضك يا تفاهة، لا تخشي شيئاً من هذه الناحية". ثم قالت: "تستطيعين

أن تغلقي الباب من بعد ذهابك إن شئت.." في إشارة لها كي تنصرف.

قبل أن تصل تفاهة إلى الباب التفتت وقالت: "والحقد الطبقي؟!" رفعت السيدة حيزبونة عينها من الأوراق أمامها: "ما به؟".

"كاد أن يغرق!".

قالت حيزبونة بصبر نافد: "عندما يغرق في المرة القادمة، تأكدي أني ساعوضك عنه بكلب يعرف السباحة"..

❖ ❖ ❖

لم تلبث السيدة حيزبونة حين خرجت السيدة تفاهة، فاتصلت بجهاز التحاكي عن بعد. قالت فوراً وتقريباً دون أن تلقي السلام: "أين وصلتم؟... لا يهمني إن كان الحفر قريباً من السد أو من غيره.. لقد أنفقنا الكثير من أجل الوصول إلى سائل الطاقة.. ويجب أن نعثر عليه.. كل مصانعنا وكل مصالحنا في مدينة الرجل الأبيض تعتمد على هذا. ولن يهمني هذا السد

الغبي الذي يحمي هؤلاء الأغبياء.. إن أمكنك أن تتفاداه فافعل.. إن لم يمكن فليذهبوا وليذهب إلى الجحيم.. أسمعت؟ ..**الجحيم!**.."



مع الأيام، تصاعدت وتيرة شيئين، وتيرة بناء السفينة، والتحام الألواح بالدسر، ووتيرة هدم الأرض وخسفها وتفجر الماء منها.. وكان الناس قد اقتنعوا - بواسطة جهاز المشهاد - أن الأمر يمكن أن يكون خيراً كثيراً، وأنه من الأفضل استثماره عبر بناء المطاعم والكازينوهات وتشجيع السياحة... وتعلم السباحة أيضاً.. وقد بدأ بعض تجار المدينة وأثريائها بالتخطيط لذلك فعلاً، ولكن السيد عبد المال سبقهم بالحصول على حق احتكار "الخسف والهدم" من مجلس إدارة المدينة.و هكذا صار على من يريد بناء "كازينو" قرب أحد "ينابيع الماء" أن يأخذ موافقة السيد عبد المال باعتباره صاحب حق الاستثمار حصرياً..وكان السيد عبد المال يمنح هذه الموافقة مقابل مبلغ باهظ من المال بالإضافة إلى الاتفاق على أن يكون شريكاً في الأرباح..

مع أن العمل ببناء بعض هذه الكازينوهات قد بدأ..إلا أن سرعة الخسف أوقفت كل ذلك...لم يكن من الممكن بناء أي أساس على "جرف" الانهيار..

وبدا فجأة أن المدينة كلها أصبحت على هذا الجرف..



كانت السيدة حيزبونة تعرف أن السيد أبرهة يحب جمع الملفات الضخمة، لكن ليس لقراءتها، لذا ملأت الملف بكل ما تعرف جيداً أنه لن يراجعه، جداول وإحصاءات وخطوط بيانية صاعدة ونازلة.. لكنها، بدلاً عن ذلك كله، اكتفت بالقول بلهجة الانتصار: **"لقد فعلتها مجدداً يا سيدي. كل توقعاتك كانت صائبة.. المدينة الغبية نائمة فعلاً على كنز.. هناك بحيرة عملاقة أو ربما حتى محيط من سائل الطاقة الذي نحتاجه.. والذي يكاد ينفد في العالم كله إلا في هذه البقعة الغبية"..**

"كل توقعاتك يا سيدي صحيحة، بطريقة ستجعل نفاد هذا السائل لمصلحتنا، أعني لمصلحة أرباحنا ومضاعفتها مئات المرات.."..

كان السيد أبرهة يقلب الملف ويستمع باهتمام بينما يحرص على جعل سعادته بما يسمع لا تتجاوز حدود الابتسامة الهادئة.

"عملياً، وحسب المعاهدة التي وقعها مجلس إدارة المدينة، نيابة عن سكانها الأغبياء، فنحن نمتلكهم حرفياً، نمتلك إرادتهم، رؤوسهم، أرواحهم، نمتلك ما يملكون، وطبعاً نمتلك تلك البحيرة الهائلة التي ينامون عليها دون أن يعرفوا قيمتها..".

"ماذا عن الرجل المشاغب الذي كان قد لمَّح لشيء مقارب عندما عارض المعاهدة؟"..

"نوح؟.. أوه يا سيدي، لقد جُنَّ تماماً، وهو الآن يلعب في الشارع كالأطفال ويبني سفينة على اليابسة وعلى بعد عشرات الأميال من أي نهر.." قالت السيدة حيزبونة باستخفاف وفرح..

"لا بد أنها واحدة من ألاعيبك يا حيزبونة التي جعلته يجن " قال بخبث.

"تلميذتك يا سيدي" قالت حيزبونة بخبث أكثر.. ثم أكملت.. "والآن يا سيدي أنت تمتلك أكبر خزين

في العالم من سائل الطاقة. بدأنا فعلاً في مد أنابيب تنقله إلى خزانات عملاقة بعيدة عن المدينة .الآن يا سيدي نقوم بتصحيح الخطأ الذي ارتكبته الطبيعة وآلهتها عندما وضعت هذا السائل عند هؤلاء الأغبياء.. الآن السائل لنا، ونقوم بنقله ليكون عندنا أيضاً.."

بدا السيد أبرهة مستثاراً كمن يشاهد فيلماً ولا يريد الانتهاء منه. تخيل كيف أن أعداءه ومنافسيه سيصابون بالذعر عندما يكتشفون أنه يحتكر السائل الذي لا يمكن أن تدور مصانعهم من دونه..

"ثمة شيء واحد صغير جداً يا سيدي، يتعلق بموت بعض الحيوانات في المدينة من جراء تدفق السائل في الماء.. لكن لا تشغل بالك بهذا، فما أهمية هذه المدينة وسكانها كلهم بكل الأحوال..؟".



قال النورس: لم يحدث هذا هنا، أليس كذلك؟..

قال الأفق: لا.. ليس هنا، لكنه حدث طبعاً في وقت آخر..

قال النورس: نعم.. تم تصحيح الخطأ.. أذكر ذلك طبعاً.. لكن ما الذي جاء بهذا هنا..؟

قال الأفق: ليس على النائم حرج كما تعلم..

قال النورس: نعم.. و ربما نوم كهذا أكثر وعياً من " يقظة الغافلين"

قال الأفق: أحسنت!..أشعر أن يقظة الغافلين هي التي عليها حرج!



بدا شكل (السفينة) غريباً، كلما اتضح أكثر فاكثر..

لم تكن تشبه السفن التي اعتاد عليها الناس والتي رآوها سواء في الحقيقة أم على المشهاد. كان شكلها غريباً، وبسيطاً في آن.. لكنها لم تكن تشبه أي سفينة أخرى..

وكالمعتاد، كان ذلك مثاراً لسخرية سكان المدينة، الذين لم يفعل نوح شيئاً إلا وسخروا منه..

"لقد فهمنا أنه صمم وأراد أن يبني سفينة، ألم

يكن ممكناً أن تكون على الأقل سفينة معقولة الشكل؟ هل كان يجب أن يكون شكلها لا علاقة له بالسفن أصلاً؟".

"نعم..! هذه الخزانات العريضة، والسواري المتعددة، والبطن المنتفخة للسفينة، لا تشبه أي سفينة على الإطلاق..".

سألنا ذا الرجولة المبكرة عن ذلك، بينما كنا نضع المزيد من الألواح في السفينة، فقال لنا إنه سأل السيد نوحاً أيضاً، وإن نوحاً أجابه أن السفن التي تنجي حقاً، والتي يمكن لها أن تنقذ الناس، يجب أن يكون شكلها مختلفاً، لأن كل الأشكال المألوفة قد استنفدت ولم تعد تجدي..

قال إن السفينة ستبحر إلى عالم آخر.. عالم جديد، يجب أن تكون مختلفة الشكل عن كل السفن الأخرى، وأن الناس سيستغربون طبعاً من شكل هذه السفينة، لأنهم سيستغربون وجود أي شيء غير الذي اعتادوا عليه..



بدأت ظاهرة موت الحيوانات في المدينة تزيد أكثر فأكثر، ماتت طيور كثيرة أولاً، ثم بدأت الأخبار تتحدث عن وفاة الأغنام والدجاج والمواشي في أطراف المدينة.. ثم بدأت الحيوانات السائبة، مثل الكلاب والقطط تموت أيضاً، وهو الأمر الذي أثار ذعر السيدة تفاهة خوفاً على (الحقد الطبقي)، لذا قررت أن ترسله إلى مدينة الرجل الأبيض "فقط من أجل الفحوصات، إنه في أتم الصحة والعافية، لكني أحببت فقط التأكد من ذلك" أو هكذا صرّحت للمشهاد عندما سئلت عن الأمر.

كان هناك حالات وفاة أخرى، لكن ليس للحيوانات، وإنما لبشر، لكن ذلك لم يلفت نظر المشهاد ولم يسأل أحد أي وزير عن الأمر. كانوا بشراً من فقراء الأراذل.. ولذا لم يكن موتهم يهم أحداً. إلا إذا كانوا يعملون مباشرة في بيوت الأغنياء، كما ابن خادمتنا بطيئة، الذي مات متسمماً بالماء..أو أم صابر التي تخبز لنا، والتي ظهر طفح غريب اللون على جلدها، جعل أمي، آسفة، تطلب منها عدم القدوم مجدداً، خوفاً من أن يكون "هذا الشيء" معدياً..

لكن المشهاد، وإن لم يتحدث عن الأمر بشكل مباشر، إلا أنه لمح إلى أن **"نقصان عدد الأشخاص الذين يقتسمون مالاً واحداً سيجعل من حصة كل واحد منهم تزيد"**، وقد وضح السيد عبد المال الفكرة قائلاً، **إن معدل الدخل الفردي سيزيد في المدينة، إذا قل عدد السكان، وهذا طبعاً سيجعل المدينة تزدهر وتلحق بركب المدن المتقدمة"**.

علماً أن أولئك الفقراء، الذين كان عددهم يقل، بوفاتهم، لم يكونوا يحصلون على أي شيء من هذا الدخل، لكنها كلمات كبيرة تقال، ورؤوس مهياة لأن تصدق أي شيء.. وكل شيء..



أما السيد نوح، فقد قال لنا إن كل ما حدث ويحدث ليس له علاقة بغضب الطبيعة كما كان البعض يقول، ولا ضريبة التقدم التي علينا أن ندفعها كما كان المشهاد يكرر ليل نهار..

قال لنا نوح إن الطبيعة لا تغضب لأنها مثلنا (عبدة) لله الواحد الحق، ولا تستلم أوامرها إلا منه، وهي مسيرة

بقوانين ثابتة وواضحة، لكن الإنسان هو الذي يخرب الطبيعة، مما يجعلها تتصرف كما لو أنها غاضبة، فتظهر الزلازل، أو البراكين، أو الفيضانات، أو تزيد الحرارة، أو تقل الأمطار.. كل هذا هو بسبب الإنسان الذي يتمرد على قوانين الله، ويخرب التوازن في العالم..

قال لنا نوح إن "ثمن التقدم" لا يمكن أن يكون على حساب قيمة الإنسان أو حياته.. لأن ذلك سيعني أن التقدم نفسه، يسير باتجاه الخطأ.. ربما باتجاه الهاوية..

قال نوح إن علينا أن ننقذ الحيوانات التي لا دخل لها في ذلك كله، ننقذها بأن نضعها في السفينة، زوجان اثنان، ذكر وأنثى، لكي نضمن وجود نوعها في ذلك العالم الجديد الذي سنذهب إليه - أو سنبنيه (لست واثقاً أيها قال)..

قال نوح إن علينا أن نحافظ على فكرة الحياة نفسها، أن نحملها معنا أينما ذهبنا، وأن نشعر بأننا مسؤولون عن كل كائنات الأرض، كل مخلوقات الله، بما أننا خلفاؤه على الأرض..



قال النورس: هل كان نوح من أنصار الحفاظ على البيئة إذن؟..

قال الأفق: نعم، لكن ليس بطريقة التكفير عن الذنب السائدة، حينما يعترض البعض من هؤلاء على قتل طيور أو تلوث بيئة، ولا يعترضون ولو قليلاً على قتل البشر، لمجرد أنهم من لون آخر، أو من عرق آخر، أو من مستوى مادي أقل..

قال النورس: باي طريقة إذن؟..

قال الأفق: بطريقة يتكامل فيها معنى الحياة، ويظل للإنسان فيها مكانة السيادة والهيمنة.. والخلافة..



١١

اهـتـزت الأرض بـشـدة، لأول مـرة، ذات مـسـاء، عـنـدمـا كـنـا قـد انـتـهـيـنـا مـن وضـع آخـر لـوح، مـع آخـر دسر..

لـم تـعـرف مـديـنـتـنـا الـزلازل مـن قـبـل. كـانـت هـذه تـجـربـتـهـا الأولى. هـزة مـتـكـررة وطـويـلـة اسـتـمـرت نـحـو دقـيـقـتـيـن، وخـرج الـنـاس إلـى الـشـوارع مـرعـوبـيـن و هـم لا يـعـرفـون مـا يـفـعـلـون.. وزاد الـخـسـف وتـفـجـر الـمـيـاه مـن بـاطـن الأرض، وتـحـطـمـت أنـابـيـب الـمـيـاه وبـعـض الـلـوحـات الـزجـاجـيـة، ولـم تـحـدث خـسـائـر بـشـريـة فـي الـمـديـنـة، لـكـن بـيـوت الأراذل لـم تـصـمـد أمـام الـهـزة، فـسـقـط كـثـيـر مـنـهـا فـوق أصـحـابـهـا، وشـبـت حـرائـق غـامـضـة انـطـلـقـت مـن مـواقـع الـخـسـف الـتـي يـنـطـلـق مـنـهـا الـمـاء عـادة..

قال المشهاد إن الوضع تحت السيطرة، وإن كل شيء آمن، وإن هذه الأمور عادية تماماً، وإنها تحدث في كل مكان في العالم، بالذات في المدن المتقدمة، "ولعل هذا دليل على خطوات التقدم التي قامت بها المدينة".

تكررت الاهتزازات بعد ذلك. واشتدت. واستدعى الأمر اجتماعاً لمجلس إدارة المدينة لمعالجة الأمر. قالت السيدة تفاهة إنها لم تشعر بشيء لأنها يغمى عليها كل مرة تحدث فيها الاهتزازات.. وتساءلت إن كان الأمر يشبه أجهزة التنحيف الرجّاجة التي تستعملها "مع أنها لا تحتاج إلى تنحيف، ولكن تريد المحافظة على رشاقتها"، كما أكدت.

أما السيدة غلاظة، فقد أقسمت أن الأمر لا يستحق كل هذا، وأن شخير والدة زوجها المرحومة، كانت تحدث اهتزازات أكثر من هذه..

لم ينتج الأمر أكثر من توصيات للناس بان يخرجوا من بيوتهم عندما يحدث الزلزال.. وأن يعتبروا الأمر مسلياً ويحاولوا الاستمتاع فيه، وإذا لم يتمكنوا من ذلك، فعليهم أن يعتبروا أنه جزء من ضريبة التقدم..

على كل حال، لم يفسر أحد سبب حدوث هذه الاهتزازات، رجال المعبد قالوا كعادتهم إن الأمر سببه أن سكان المدينة قللوا من تقديم القرابين للآلهة، وجعلها ذلك تغضب وتحدث هذه الزلازل تحذيراً لهم لكي يسددوا المزيد والأفضل من القرابين..

السيد نوح قال إن الإنسان عندما يتجاوز قوانين الإله الحق الواحد، فإن هذه القوانين ستتجاوزه حتماً وستتمرد على تمرده عليها..

كان ذلك بطريقة ما مقارباً لما كان يدور من همس عن سبب للزلازل، خاصة في المناطق القريبة من المخيم الذي ضم جرارات السيد أبرهة وحافراته.

كانوا يقولون، هناك، إن هذه الاهتزازات لم تبدأ بالحدوث إلا بعد أن صار الحفر أعمق في الأرض، وبعد أن جاءت حافرات عملاقة أخرى..

كان الحفر العميق في الأرض، ينتج خسفاً عميقاً، وكان هذا، ينتج، على ما يبدو تلك الاهتزازات..

كانوا يقولون أيضاً، إن أنابيبَ عملاقة، كانت توضع في الأرض.. لم يكن أحد يصدقهم بكل

الأحوال.. لِمَ سينفق السيد أبرهة أموالاً هائلة على وضع أنابيب في باطن الأرض؟.. هل هو مثل السيد نوح ليفعل شيئاً (غريباً) كهذا؟..



بعد بضعة أيام، هز المدينة انفجار هائل، عقبه تدفق نافورة عملاقة من سائل أسود اللون عند المخيم قرب السد، تداور الناس همساً أن أنبوباً عملاقاً قد انفجر، وأن" النافورة" كانت ناتجة عن ذلك..

لم يهدأ تدفق السائل الأسود، كما توقع البعض، وسرعان ما تكونت غيمة سوداء عملاقة غطت المدينة بأسرها..

وسرعان ما بدأ المطر..

مطر.. مطر.. مطر..

مطر أسود، قطراته لزجة عملاقة..

مطر.. مطر.. مطر..



لم يتوقف المطر، بل زاد..

سكن الناس في بيوتهم مرعوبين، لم يعرفوا ماذا يفعلون، زادت الاهتزازات، زاد الخسف، زاد تدفق الماء من الخسف. واستمر المطر الأسود. قال المشهاد إن الوضع تحت السيطرة، وإن كل شيء آمن.. وذكر شيئاً عن أحوال جوية مماثلة في مدن أخرى، قال أيضاً إنه ثمن التقدم وأن "اشتدي أزمةُ تنفرجي".

حاولت السيدة تفاهة الاتصال بالسيدة حيزبونة، لكنها لم ترد، كانت تفاهة قد بدأت تقلق فعلاً، ذلك أن المطر الأسود قد دمر حديقتها تماماً، خاصة لوح الأزهار الذي أنفقت ثروة من أجل تنسيقه وجلب "منسقة" خاصة له من مدينة الرجل الأبيض..

لم تستطع السيدة نميمة أن تقول أشياء كثيرة، لأن المطر أجبرها على الجلوس في البيت، وكان المطر قد أثر على جهاز التحاكي عن بعد.. قالت، على الأقل: "إن هذا المطر لم يحدث من قبل، اسألوني أنا عن ذلك"..

أما غلاظة فلم تقل شيئاً على الإطلاق.. سكنت وهدأت كأن المطر الأسود قد أخرسها تماماً..

واستمر المطر الأسود، يكشط عن المدينة وجهها

المصبوغ بإعلانات السلع وأوهام التقدم، يلون تلك الصور الزاهية بلون أسود كالهباب، فتبدو كما لو كانت محروقة.. تبدو كما لو كانت هذه هي حقيقتها..

مطر.. مطر.. مطر..

أسود كثيف ولزج، يلتحم بالماء المتفجر من الأرض، فينقل له اللزوجة.. ويغمر شوارع المدينة.. يغرقها بالتدريج..

بالتدريج..



قال لنا نوح إن موعدنا عند السفينة..

وقال لنا إن كل من قال لا إله إلا الله، يجب أن يصعد إلى السفينة.. قال إن السفينة صنعها لوحاً بعد لوح، ودسراً بعد دسر، والركوب فيها بعد ذلك هو الجزء العملي من كلمة لا إله إلا الله..

قال إن تلك الكلمة قد تكون يسيرة على اللسان، لكن تطبيقها على الأرض ليس أقل صعوبة من صنع السفينة التي ستقلنا جميعاً إلى عالم آخر، عالم أفضل

وأكثر توازناً وعدالة، نبنيه لأننا خلقنا أصلاً من أجل ذلك..

وانطلقنا، على رغم المطر الأسود، ننقل الخبر، ودهشت أن كلمة «لا إله إلا الله» كانت تسهل الطريق الصعب أمامنا، لا أدري إن كانت تسهل الطريق بالضبط، أو أنها كانت تجعلنا أقوى بحيث أن الطريق صار يبدو أسهل لنا.. لا أدري، و ربما لا فرق كبيراً بين الأمرين..

حملنا "لا إله إلا الله" - التي حملتنا كما تحمل السفينة ركابها، إلى كل بيوت المدينة، كل من نعرف أنه قالها، إنه آمن بها، قلنا له إن الموعد عند السفينة..



ذهبت لأمي. كانت تروح وتجيء مسرعة بين أنحاء البيت وهي تجمع الأغراض وتضعها في حقيبة كبيرة، قالت لي دون أن تنظر: "اذهب واجمع أغراضك، قالت السيدة حيزبونة إنهم سيرسلون لنا طائرة لتنقذنا".

"لنا؟ من المقصود بـ"لنا؟"..

"نحن، عائلتنا، هل نسيت أن السيد إمعة رئيس مجلس إدارة المدينة هو زوج عمتك، كل أعضاء المجلس وأقاربهم والأشخاص الأثرياء المهمون في المدينة سيتم نقلهم خارجها. قالت السيدة حيزبونة إن الطائرة ستنتظرنا صباح الغد عند قمة الجبل، وعلينا أن نكون هناك قبل الفجر.."

"أمّاه، لقد جئت لأقول لك أن تأتي إلى السفينة.."..

" أي سفينة؟.."..

" سفينة نوح.. قال لنا السيد نوح إن كل من آمن بـ (لا إله إلا الله) يمكنه أن يركب السفينة التي ستنجينا من كل هذا ".

"سفينة نوح؟" قالت وهي سارحة..

"نعم، سفينة نوح، هل ستفضلين طائرة حيزبونة عليها؟.."..

لم ترد. قالت كما لو كانت تحدث نفسها: "كل من آمن بـ (لا إله إلا الله)؟"..

"نعم.. كل من آمن بـ (لا إله إلا الله) "..

تجهم وجهها كما لو ذكرتها بماضٍ بعيد كانت تحاول أن تنساه. قلت لها: "تعرفين كم أحب والدي وإخوتي يا أمي، لكنهم لم يؤمنوا أبداً بـ (لا إله إلا الله) لذا لا يمكنني أن أقول لهم أن يأتوا إلى السفينة، لكن أنت، أنت تحملين تلك الكلمة معك، لابد أن شيئاً ما قد بقي هناك في أعماقك منها..."..

لم ترد.. ظلت ساهمة كما لو كانت تبحث في أعماقها عن بقية الكلمة.. قالت بعد صمت: "كان ذلك من وقت طويل"..

قلت لها: " لكنها لا تزال هناك.."

ردت: "الطائرة تنتظر يا نور، عند قمة الجبل.."

كررت: "أيهما تختارين، سفينة نوح، أو طائرة حيزبونة؟.."



أخذ أعضاء مجلس الإدارة يجمعون أغراضهم - التي اتضح أنها كثيرة جداً لدرجة أنها تحتاج إلى أكثر من طائرة لنقلها. كانت أغراض السيدة تفاهة وحدها،

تحتاج إلى طائرة عملاقة كما كانت تقول بفخر - وقد أكدت أن السيدة حيزبونة سترسل طائرة خاصة لأغراضها وحدها "مع أنها أكدت لي أن الأمر عابر، وأن الوضع لا يزال تحت السيطرة، لكن الأمر كله، من أجل الاحتياط لا أكثر.."..

بعد قليل، تبخر فخر السيدة تفاهة، وسال قناع أصباغها تحت المطر الأسود وتحت دموعها، فقد اختفى كلبها المدلل (الحقد الطبقي) في أثناء نقل الأغراض، اكتشفت تفاهة ذلك بعد فترة من اختفائه، وانطلقت تفتح صناديقها خشية أن يكون (الحقد الطبقي) محتجزاً في داخلها.. وتحت المطر الأسود، أخذت السيدة تفاهة تخرج أغراضها الثمينة، تلك التي قضت الساعات في انتقائها وشرائها من الأسواق، وتطرحها أرضاً دون أن تنتبه لما تفعله، كانت تصرخ (الحقد الطبقي)، (الحقد الطبقي) وهي ترمي الأحذية الثمينة غير المستعملة وملابس السهرة التي لا تزال في أكياسها..

بعد ساعات من البحث في الصناديق، كان من الواضح أن (الحقد الطبقي) قد اختفى، ربما يكون قد هرب، ربما يكون قد غرق، أو اكتسحته المياه

الجارفة، المهم أنه اختفى.. وعندما أيقنت تفاهة من ذلك، كانت كل أغراضها قد غرقت تحت المطر، وظلت تلطم وتندب حظها وهي جالسة بين الصناديق الفارغة والسلع المرمية أرضاً.. لم يكن من الممكن معرفة إذا كانت تفاهة تبكي من أجل ماكياجها السائح أو من أجل سلعها الثمينة، أو من أجل الحقد الطبقي..



كانت ليلة هادئة نوعاً ما..

خفَّ المطر الأسود، وتفاءل البعض بانه سيتوقف، وأن كل شيء سيعود كما كان.

لم أكن أريد لذلك أن يحدث، كنت أريد للأمر أن يحدث بسرعة، إذ لا مفر من أن يحدث.. كنت أريد أن أركب السفينة التي ستبحر بنا باسرع وقت ممكن..

لكن هدوء المطر ترك فرصة لكل من يريد أن يركب السفينة أن يذهب إليها..

كان هناك فقراء من الأراذل، وأغنياء من جيراننا،

وآخرون بين هؤلاء وهؤلاء.. كلهم تجمعوا في السفينة، بلا فوارق..، من أجل عالم آخر، أكثر عدالة..

وكان هناك الأطفال، الكثير من الأطفال.. الأطفال الذين مرت على رؤوسهم الألواح وزرعت فيهم بذرة ذلك العالم الآخر..

كلهم تجمعوا.. في السفينة، ومع كل واحد منهم نبتة، أو زرعة صغيرة، تمّ إنقاذها من ماء المطر الأسود، وستكون أفضل في تربة أفضل، لعالم آخر..

هذا المطر الأسود، كما لو أن الإله الحق الواحد يمنحنا الفرصة لكي نذهب إلى السفينة..

كما لو أن قوانين هذا العالم - حتى القوانين التي أدت إلى الطوفان - كانت أكثر حنواً علينا، كانت متفهمة لما نفعله..

ربما لأننا كنا نعمل بنفس القوانين أيضاً..



قبيل الفجر، وبعد ليلة شبه هادئة، حدث صوت هائل..

صوت هائل جداً، لم نسمع مثله من قبل. كان مثل انفجار عظيم واحد، حبسنا له أنفاسنا جميعاً..

ثم تلت ذلك اهتزازات عنيفة... واحدة تلو الأخرى.. اهتزت لها المدينة بشدة.

كان ذلك هو السد، السد الذي يحمي المدينة، السد الذي بنيت المدينة عليه، انهار فجأة ومرة واحدة..

وبانهياره تدفق الماء الذي كان السد يحتجزه، تدفق نحو المدينة بسرعة، مكتسحاً كل شيء أمامه.. البساتين، البيوت، الشوارع..

ومرة أخرى انفجرت أنابيب ذلك السائل اللزج، وتكونت الغيوم السوداء مجدداً.. وتدفق المطر الأسود من جديد..

وزاد الخسف بعد الاهتزازات، وزاد تدفق الماء من باطن الأرض ..والتقت هذه المياه كلها، السد والمطر ومياه باطن الأرض، كما لو أن لديها موعداً..

صار واضحاً الآن أن المدينة كلها تغرق..



كان البعض قد جاء إلى السفينة بواسطة قوارب إنقاذ صغيرة. أخذت واحداً وجذفت باتجاه الجبل.

كانت أمي قد وصلت للتو، سبقها أبي وبقية إخوتي، كان صوت التقاء المياه عالياً جداً، لذلك ناديتها بأعلى صوتي.. التفت إلى وسط المطر الأسود، قلت لها: " أمي، تعالي، لا عاصم اليوم من أمر الله.. لا فائدة من الجبل.."

قالت: " اذهب يا نور لا فائدة أيضاً من أن أخدع نفسي.. لقد تركت الإيمان، وارتددت عنه، ولم يعد يمكنني أن أعود، الإنسان يجب أن يتحمل نتائج قراراته.. ولذلك.."..

قاطعتها بصوت عال: "كفى! لا وقت لدينا لهذه الفلسفة الآن.."

لدهشتها، سحبتها بقوة إلى القارب وأجلستها فيه..

قلت لها: عذراً، ولكن و لا كلمة..!!



قال النورس: الحمد لله أنه فعل ذلك، كنت

سأنزعج جداً لو أنه تركها تذهب لتغرق فقط من أجل "حريتها الشخصية"..

قال الأفق: يحبون فعل ذلك في (الدراما).. فقط من أجل تأزيم الأمور والظهور بمظهر فني..كم أكره ذلك...

قال النورس: نعم، لكن ألم يذكرك ذلك بابن نوح؟.. ألم يكن هنا أيضاً؟.. ألم يحاول معه والده؟.. ورفض هو ومضى إلى قمة الجبل، وقال له لا عاصم اليوم من أمر الله..

قال الأفق: نعم، كان ذلك غرقاً مع سبق الإصرار والترصد، ربما لنفهم أن لا واسطة هناك، لن يتم سحبه إلى السفينة من دون استحقاق لمجرد أنه (ابن) نوح..



بدأت السفينة تعلو، بينما كانت المدينة تغرق، تلك السفينة التي ضحكوا منها، وقالوا إنها دليل على جنون نوح، بدت الآن أنها الشيء الوحيد الذي يرتفع، بينما المدينة كلها تهبط..

من بعيد كان هناك قارب صغير، بدا أن به شخصاً واحداً، لم نتبين شكله، لكنه كان يحمل مصباحاً ويلوح لنا لننتظره، كان شخصاً آخر، جاء إلى السفينة، وهي على وشك الإبحار..

مع اقتراب القارب، بدأنا نسمع بوضوح أكثر ما يقوله الشخص، كان يقول: " لا إله إلا الله"..كما لو أنها كانت كلمة سر للركوب في السفينة...

ومع اقتراب القارب، تبين لنا أن الشخص كان سيّدة، لم نرَ وجهها لأنها كانت تسدل غطاءً عليه.. ساعدناها على الصعود إلى السفينة، ما إن صعدت حتى أزاحت الغطاء عن وجهها..

ذهلنا جميعاً عندما فعلت وصحنا بصوت واحد تقريباً: **أنت؟!**..

كانت السيدة غلاظة!

قالت: "نعم، أنا، أنا غلاظة.. ما الغريب في ذلك؟ ألا تقولون أن الإله الحق الواحد يقبل كل من يقبل عليه.. فلماذا تنكرون ذلك عليّ؟ في الحقيقة إنكم لا تعرفونني جيداً، أنا رقيقة وحساسة جداً، مع أن أحداً

لا يصدق ذلك. بل إن غلاظتي كلها هي مجرد قناع دفاعي لهذه الرقة.. أي إنني أبدو غليظة كي لا يهاجمني أحد.."

سكت الجميع أمام ما تقوله غلاظة، فقالت بسرعة: "والآن ماذا ستفعلون بي؟.. أقول لكم إني أؤمن بأن لا إله إلا الله، فهل سترمونني إلى الماء لمجرد أن لساني كان طويلاً قليلاً؟.."

أفسحنا لها المجال لكي تدخل أكثر بعيداً عن المطر.. ما إن رأت غلاظة أمي حتى ضربتها في كتفها:" أنت هنا؟! يالك من صديقة خائنة! أهذا هو الوفاء؟!.. على العموم كان هذا هو رأيي بك دوماً.."

ضحكنا جميعاً، وقالت أمي: لسانك "كان" طويلاً يا غلاظة؟!..



بالتدريج اختفت معالم المدينة. كل المباني المرتفعة، حتى الهيكل الكبير، حتى الأوثان العملاقة، حتى قليس السيد "أبرهة" الكبير، حتى التمثال العملاق للكولا لولا.. كل شيء غطاه الماء..

بعد قليل مرت السفينة أمام ما كان يفترض أنه الجبل.. لم نجد له أثراً.. كان لا بد أنه غرق أيضاً، الجبل الذي كان يفترض أنه سيكون الموضع الذي ستحط عليه طائرة حيزبونة لتنقذ مجلس الإدارة وأقاربهم والأثرياء وكهنة المعبد..

لم تأت الطائرة أبداً..

وغرق الجبل بمن فيه، قيل إن حيزبونة لم تكن جادة أصلاً في أمر الإنقاذ، وإنها قالت ذلك فقط لكي تلهي الناس وتتخلص منهم. قيل أيضاً إن الطائرة كانت على وشك الهبوط عندما ضربتها موجة هائلة أسقطتها في الماء، وغرقت بمن فيها.. وقيل إن طائرة السيدة حيزبونة قد غرقت أصلاً قبل أن تقلع.. كما قيل إن حيزبونة ربما نجت ولم تلتفت حتى إلى من تركتهم ينتظرونها عند قمة الجبل..

لم يكن هناك من أثر لا للجبل، ولا لمن التجأ إليه.. لم يكن هناك سوى تلك الأغراض الثمينة التي أخذوها معهم، بدت طافية على سطح الماء وهي مهترئة وبلا قيمة. كانوا قد غرقوا فيها في حياتهم، وكانوا

فرحين بذلك، واليوم عندما غرقوا، طفت هي، ولم تصبح حتى (قشة) ليتعلقوا فيها..



اختلط كل شيء مع الماء، الذكريات والوجوه والمباني، وكل تلك الرحلة التي قضاها السيد نوح، في تغيير سكان المدينة، إلى درجة أنه قرر بناء مدينة أخرى، والإبحار إليها، عبر سفينة مختلفة..

كان بعض ذلك مؤلماً طبعاً.. ليس من السهل أن ترى مدينتك وأهلك يغرقون، حتى لو كانوا يريدون ذلك، لكن بعد (ألف سنة) مثلاً، لا يعود ممكناً الانتظار أكثر..

كانت المدينة قد استنفدت فرصها. وكان غرقها مع سابق الإصرار والترصد.. ومع كل الألم كان لا بد لذلك أن يحدث..

قال لنا السيد نوح و نحن ننظر إلى المدينة الغارقة - التي لم يعد لها وجود، قال لنا: **"لا مفر من أن نتألم من أجل أولئك الذين أحببناهم ولكنهم أصروا على الغرق..**

لكن علينا ان نجعل ذلك الألم، مثل ألم المخاض الذي تمر به الأمهات عندما يلدن أطفالهن..

علينا ان نجعله ألماً منتجاً، بنَّاء.. نستخدمه أداة للبناء في ذلك العالم الآخر الذي نتوجه له..

قال لنا إن الألم لا بد منه، لكن علينا أن نغير من احرفه قليلاً بعد ذلك، لكي يصير: (امل).."



..وقال السيد نوح، عندما أنزل الأشرعة، وقبل أن تبحر السفينة، قال: بسم الله مجريها ومرسيها..

شعرت أن تلك الكلمة كانت بمثابة "المحرك" للسفينة، بمثابة الشراع الحقيقي للسفينة..

قال لنا ذو الرجولة المبكرة، إن السفينة ستجري باسم الله، الله الحق الواحد الذي وضع السنن والقوانين التي جعلت السفينة "تعلو" و "تطفو".. وتجري.. وأنها سترسو كذلك على قوانينه.. سيكون المرفإ الأخير مبنياً على قوانينه أيضاً..



يوم ويومان وثلاثة، هدأت السماء.. وصفا الجو، وسطعت الشمس من جديد، وعادت الغيوم بيضاء، كما لو أنها تحمل بشارة رسالة مفعمة بالأمل، بدلاً من تلك الغيوم السوداء.. التي حملت إنذار الغرق..

ظلت السفينة تبحر، كان نوح يعرف اتجاهه جيداً، كان قد حدد هدفه، وكانت بوصلته واضحة.. وكانت دفة السفينة وأشرعتها، ترتبط بتلك البوصلة بلا أي تناقض، أو افتراق..



خاتمة

..من بعيد جاء نورس أبيض..

رفرف طويلاً حول السفينة، دار حولها دورات عدة، ثم، وكما لو أنه خلق بالذات من أجل ذلك.. حطّ على سارية السفينة..

هللنا جميعاً عندما فعل ذلك.. كان وجود النورس يعني أن البر، بر الأمان، المرفأ الذي نتجه إليه، قد اقترب..

كان ذلك يعني أن العالم الآخر، العالم الجديد الذي سنبنيه نحن، بسواعدنا، برؤوسنا، ببوصلتنا وباشرعتنا.. قد اقترب..

نظرنا جميعاً إلى الأفق البعيد.. ورايناه يتلألأ كما لو كان يومئ لنا، أن اقتربوا..



قال النورس للأفق: هل رأيتني؟

قال الأفق: هل كان ذلك أنت؟..

قال النورس: نعم! لقد كنت أنا، طوال الوقت كنت أنتظر أن يأتي دوري.. كي أحمل بشارة الوصول إلى ذلك العالم الجديد..

قال الأفق: أنا أيضاً كنت موجوداً هناك.. ألم ترني؟..

قال النورس: كان ذلك أنت إذن؟..

قال الأفق: نعم.. كنت أحمل بشارة العالم الذي سيكف عن أن يكون حلماً، بل يصير واقعاً..

قال النورس: تنتهي الحكاية هنا؟..

قال الأفق: تقريباً... تنتهي حكاية، وتبدأ أخرى.. دوماً هناك مدينة تخرق القوانين، وتغرق، ودوماً هناك سفينة يمكن أن تنقذها..

قال النورس: نعم، ودوماً أنتظر دوري.. الآن علي أن أذهب لأبحث عن السفينة الكامنة الأخرى..

قال الأفق: نعم، وأنا أيضاً.. كانت حكاية جميلة، حتى إن كنت قد شاهدتها كلها من قبل.. صحيح، لكني لم أتعرف عليك بعدُ، قل لي: ما اسمك؟..

قال النورس: اسمي "ألواح".. وأنت؟..

قال الأفق: اسمي "دُسر".. سأراك في الحكاية مجدداً، صحيح؟..

قال النورس: إن شاء الله..ما دامت قوانينه وسننه عز وجل مستمرة، فسيكون لنا دوماً دور في الحكاية..

وطار النورس "ألواح"، حلق عالياً.. وغاب في الأفق.. الأفق "دُسر"..

بدأت في دمشق ١/٦/٢٠٠٨

انتهت في المدينة المنورة ٢٣/٨/٢٠٠٨

مستخلص

رواية" ألواح ودسر " تجمع بين ما يعرف بالرواية الفانتازية، وأدب "الواقعية العجائبية" الذي عُرف في العقود الثلاثة الأخيرة بعد فوز أهم كتّاب هذا النوع "غابرييل غارسيا ماركيز" بجائزة نوبل للآداب، و لكن هذه الرواية توظف هذا الجمع في عرض أدبي معاصر لقصة من قصص الأنبياء عليهم السلام أجمعين، ألا وهي قصة سيدنا نوح و على نحو يستثمر هذه القصة و معانيها العامة ليجعل لها قنوات ارتباط مع وعي الإنسان المعاصر .

الرواية تقع أحداثها في أي زمان ومكان، و تتحدث عن أنواع مختلفة من الشخصيات الإنسانية التي توجد في كل زمان و مكان ، شخصيات ليست بيضاء بالمطلق و لا سوداء بالمطلق ، بل هي شخصيات إنسانية قد تختار في مفترق الطرق وقد تصيب في خيارالها و قد تخطئ ، و قد تحاول بعدها أن تصحح هذا الخطأ...و الرواية ترصد هذه الشخصيات الإنسانية عندما تتعرض المدينة التي يعيشون فيها إلى طوفان من نوع خاص : طوفان متعدد الأشكال قد يفرح به من يفرح في بداية الأمر، وقد يرحب به من يرحب ، لكن خواتيم الأمور ستكون مختلفة.

الطفل "نور" هو الشخصية المركزية في هذه الرواية ، و الروائي لا يحتاج إلى دليل لإثبات الوجود التاريخي للطفل نور ، فهو موجود فعلاً في كل زمان و مكان ، و نحن، كل منا ، مهما كانت أعمارنا و شهاداتنا - نكاد نكون الدليل الحي على وجود الطفل نور ..

الشخصيات الأخرى موجودة أيضاً حولنا ، نكاد نراها و نسمعها و نحاورها في كل حين، و الخيار مفتوح دوماً لأن نكون واحدة من الشخصيات التي تركب الألواح و الدسر ..أو الشخصيات التي تختار الاستهزاء و السخرية و تفضل الغرق...

ومع أن القصة معروفة لكل الأديان السماوية، وموجودة أيضاً حتى في التراث الإنساني غير المرتبط بالأديان السماوية _ إلا أن تقنيات الرواية تجعلها قصة مستمرة بطريقة ما، إلى يومنا هذا، وتحفز عبر هذا الاستمرار التنبيه إلى أن الطوفان قادم بأساليب مختلفة، و أن للغرق معاني مختلفة، وأن السفينة، التي يمكن أن تنقذنا، سيكون لها أشكال مختلفة.

ألواح ودسر

Alwah wa - Dusur

رواية استثنائية عن عالم استثنائي ومختلف. قد يكون عالمنا الحقيقي بعد أن نزيل عنه أقنعته ونزيح عنه أصباغه. عالم تسقط فيه الجدران الوهمية بين الزمان والمكان، فإذا بالماضي يصير بصيغة الحاضر، والحاضر يتلبس صيغة المستقبل....

للوهلة الأولى ستكون الرواية عن سيدنا نوح عليه السلام، وسفينته التي أنقذت الإنسانية من الطوفان، وكلنا نعرف هذه القصة، لكننا سنجد أنفسنا فجأة جزءاً منها، بل إننا سنجد أن واقعنا المعاصر كله هو استمرارٌ لتلك القصة، كما لو أنها لم تنته قط... كما لو أنها تتجدد دوماً وإن تبدلت أشكال الطوفان، وتبدل معها شكل السفينة....

القصة تروى من وجهة نظر طفل صغير عاصر الأحداث وقتها، لكن سرعان ما نكتشف أن هذا الطفل يسكن جزءاً من أعماقنا، وأن في كل منا بقايا شيء منه....

في هذه الرواية، سنجد أنفسنا أمام خيارين لا ثالث لهما، إما أن نستسلم للطوفان، ونقبل الغرق، أو أن ننضم إلى السفينة وركبها... إما أن نمر بها وبمن يبنيها ضاحكين مستهزئين، أو أن نمد أيدينا، إلى الألواح والدسر...



ISBN 978-9933-10-043-8



موقع عربي للأطفال - متعة وتعلم
www.zamzamworld.com



فرات
موقع عربي رائد لتجارة الكتب والبرامج العربية
www.furat.com

تصميم الغلاف
عبد الله الحموي
ريما الجبوري